٣٠١٠٢٠٠٠٠٣٥٦٩

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

شروح ديوان أبي تمام

دراسة نقدية تطبيقية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية

إعداد

حمدان عطية أحمد الزهراني

إشراف

الأستاذ الدكتور/ طه عمران وادي

المجلد الأول

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القـــرى
كلية اللغة العربيـة

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : عدنان عطية أحمد الزهراني كلية : اللغة العربيـــــة قسم : الدراسات العليا
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراة في تخصص : الأدب العربي
عنوان الأطروحة : ((شروح ديوان أبي تمام - دراسة نقدية تطبيقية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٦/ ٣ /١٤١٩هـ _ بقبولها بعد إجـ
التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : طه وادي	الاسم : حسن باجودة	الاسم : علي أبو زيد
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم الدراسات العليا

الاسم : محمد العمري

التوقيع :

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : شروح ديوان أبي تمام – دراسة نقدية تطبيقية .

الطـــالـــب : حمدان عطية أحمد الزهراني .

المشـــــرف : أ.د . طــه عمران وادي .

بعد تأمل عميق في تراثنا الأدبي تبيّن أن ديوان أبي تمام قد استأثر بنصيب وافر مـــن جهود الأدباء والنقاد على مرّ العصور ، وقد اهتمت طائفة منهم بوضـــع الشـــروح المطوّلـــة والمختصرة عليه، فكانت شروحهم حافلة بكثير من القضايا اللغوية والأدبية والنقدية .

وهذه الدراسة محاولة نقدية لتناول شروح ديوان أبي تمام من خلال تحليل محتوياتـــها وبيان خصائصها ، ومعرفة مواطن الاتفاق والاختلاف فيها ، ورصد الاتجاهات التـــي ســادت حركتها ، ثم إقامة دراسة موازنة بينها تكشف عن القيم الأدبية والنقدية التي اشتملت عليها .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يكون البحث في مدخل وثلاثة أقســام تســبقه مقدمــة وتتلوه خاتمة على النحو التالي :

المقدمة : وضحت أهمية الموضوع ودوافعه وأهم الصعوبات التي واجهت الباحث ، وخطـــة السير فيه .

المدخل : دراسة موجزة عن حياة أبي تمام ، ومذهبه الشعري ، والخصومـــة النقديـــة حـــول شعره،وفيه رصد مختصر لحركة الشروح الشعرية،وثبت بأهم شروح ديوان أبي تمام.

القسم الأول : تناول الشروح الكاملة لديوان أبي تمام في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تناول شرح أبي بكر الصولي .

الفصل الثاني : درس شرح أبي زكريا التبريزي .

الفصل الثالث : تناول شرح ابن المستوفي .

القسم الثاني : تناول الشروح الخاصة في ثلاثة فصول أيضاً :

الفصل الأول : عرض لشروح أبي علي المرزوقي في كتاب (شـــرح مشكـــلات ديوان أبي تمام) وكتاب (الانتصار من ظلمة أبي تمام) .

الفصل الثاني : تناول شرح أبي العلاء المعري ، المعروف بـــ (ذكرى حبيب) .

الفصل الثالث : درس شرح أبي حامد الخارزنجي من خلال ما نقلـــه التـــبريزي وابن المستوفي عنه .

القسم الثالث : دراسة موازنة بين الشروح عامة ، كشفت عن أبرز الخصائص المشتركة بين الشروح ، ودلت على السمات الخاصة التي تميز كل شرح .

الخاتمة : عرضت لأهم قضايا البحث وأهم ما توصل إليه من نتائج .

المشرف	الطالب	عميد الكلية
الاسم : أ .د. طــه وادي .	**الاسم: حمدان عطية الزهراني .**	**الاسم :أ.د. حسن باجودة**
التوقيع :	التوقيع:	التوقيع:

شكر وتقدير

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل :١٩).

وبعد :

أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أساتذتي في كلية اللغة العربية ، وأخص بالشكر عميدها سعادة الأستاذ الدكتور/ حسن باجودة ، ووكيلها سعادة الأستاذ الدكتور/عبد الله باقازي ، ورئيس قسم الدراسات العليا السابق سعادة الأستاذ الدكتور/سليمان العايد ، والحالي الأستاذ الدكتور/ محسن العميري ، على حسن الرعاية وعظيم الاهتمام .

كما أتقدم بجزيل الشكر وعاطر الامتنان إلى أستاذي القدير الأستاذ الدكتور/ طه عمران وادي ، الذي كان له الفضل - بعد الله عزّ وجل - في توجيهي وإرشادي ، وبذل جهده ووقته في متابعة البحث ورعاية صاحبه في كل فقرة من فقراته ، فجزاه الله عني خير الجزاء ، ونفع به العلم وطلابه .

كما أتوجه بالشكر إلى الأستاذ الدكتور/ عبد الحكيم حسان - المشرف السابق - ، على توجيهه وإرشاده وما قدمه من نصائح .

كما أتوجه بالشكر إلى قسم اللغة العربية بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة ، ممثلاً في رئيسه وأعضائه ، على ما أتاحوه لي من تفرغ لإعداد هذه الرسالة .

كذلك لا يفوتني أن أشكر أستاذي الفاضل الدكتور/ عبد الله المعطاني الذي كان يقدّم لي النصائح ويحثني على الجدِّ والاجتهاد .

كما أشكر كل من قدّم لي نصيحة ، أو أمدني بمرجع ، أو معلومة ، أو توجيه .

وأخيراً أقدم كل شكري وتقديري للأستاذين الفاضلين عضوي لجنة المناقشة على ما سوف يتفضلان به من توجيهات وإرشادات ، راجياً من الله أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا . **إنّه نعم المولى ونعم النصير .**

الباحث

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن المتأمل في تراثنا الأدبي يلاحظ أن الدواوين الشعرية قد استأثرت بنصيب وافر من جهود العلماء على اختلاف تخصصاتهم وتنوع اتجاهاتهم ، ومن أبرز جهودهم ما انصرف نحو وضع الشروح المطولة والمختصرة على دواوين بعض الشعراء، ولا سيما المجيدين منهم .

ويُعدّ أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي ، ١٨٨ -٢٣١ هـ) من أشهر شعراء العربية ، ورائد المذهب التجديدي في القرن الثالث . وقد حظي شعره بعناية فائقة ، ودارت حوله حركة نقدية واسعة . ومن هنا اهتم بديوانه الشُرّاح والنقاد على مرّ العصور ، محاولين كشف أسراره ، وإماطة اللثام عن مقاصده ، فكانت مؤلفاتهم حافلة بكثير من القضايا اللغوية والأدبية والنقدية ، لذلك فإن دراسة هذه الشروح – والتحليل العميق لمحتوياتها وبيان خصائصها ، ومعرفة مواطن الاتفاق والاختلاف ، ومجمل القضايا اللغوية والأدبية فيها ، وإقامة دراسة موازنة بينها تكشف عن القيم الأدبية والنقدية التي اشتملت عليها – لموضوع جدير بالبحث والتناول ، ويقدّم – بلا شك – إضافة جديدة في ميدان البحث الأدبي .

ولمّا لم أقف على أن أحداً من الباحثين السابقين قد تناول شروح ديوان أبي تمام دراسة مستقلة شاملة ، عزمت على أن تكون موضوع بحثي ، مقدّراً أن هذا الموضوع يكتنفه صعوبات كثيرة منها :

أ – طول الفترة الزمنية ، التي سيُدرس الموضوع في نطاقها ، من بداية القرن الرابع حتى منتصف القرن السابع الهجري .

ب – تعدد الشروح ، محور البحث ، وضخامة مادتها ، حيث إنّ منها ما يقع في أربعة مجلدات كبيرة ، مثل شرح التبريزي ، أو ثلاثة مجلدات ، مثل شرح الصولي .

جـ – إن بعض هذه الشروح لا يزال مخطوطاً نادر الوجود ، مثل شرح ابن المستوفي – ١٣١٦ ورقة – الذي لا يوجد منه إلاّ مصورات رديئة الخط ، عسيرة القراءة .

د – ضياع أصول بعض الشروح : التي وصلت إلينا في شكل نقول متفرقة في ثنايا بعض الكتب ، مثل شرح أبي العلاء المعري ، وشرح أبي حامد الخارزنجي .

والموضوع – في شموليته وتفصيله – لم يقم به أحد من الدارسين ، لكن لا بد من الإشارة إلى محاولة سابقة بعنوان « الشرح والرواية في شعر أبي تمام » نال بها عبده عزّام درجة الماجستير من جامعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م ، تقع في ثمان ومائة صفحة ، وبعد الاطلاع عليها تبيّن أن الباحث قد صرف جهده في معالجة قضية الشرح الأدبي ، والصعوبات التي تواجه الشارح ، وأثر ذلك في شرح الشعر وروايته بصفة عامة ، وكان نصيب شراح شعر أبي تمام لا يزيد عن ثمان وعشرين صفحة ، تحدث فيها عن ثلاثة منهم ، وخصّ التبريزي بصفحة ونصف ، مغفلاً الحديث عن الخارزنجي وابن المستوفي ، فكانت هذه المحاولة – الأولى المبكرة في العصر الحديث – ناقصة غير شاملة ، ولم توف الموضوع حقه الذي يستحق .

أما المصادر التي قامت عليها الدراسة فهي صنفان :

الأول : مصادر أولية ، تمثل محور البحث ، وهي :

أ – شرح ديوان أبي تمام ، لأبي بكر الصولي (٣٣٥ هـ) .

ب – شرح ديوان أبي تمام ، لأبي زكريا التبريزي (٥٠٢ هـ) .

جـ – شرح مشكلات ديوان أبي تمام ، لأبي علي المرزوقي (٤٢١ هـ) .

د – النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام ، لابن المستوفي الأربلي (٦٣٧هـ) .

الثاني : مصادر ثانوية : أفادت في إثراء مادة البحث وتعزيز ما ورد في ثنايا مباحثه وفصوله ، وهي : كل ما حصل الباحث عليه من المصنفات الأدبية والنقدية والمراجع القديمة والحديثة التي تتصل بموضوع البحث أو بإحدى جزئياته ، وقد أشرنا إليها في الهوامش ، وبيّناها في ثبت مفصّل في آخر البحث .

وقد قامت الدراسة على منهج وصفي تحليلي : يهتم بوصف الظاهرة الأدبية المدروسة تحليلاً ونقداً ، وبيان العناصر المكونة لها ، ومحاولة بيان الإيجابي والسلبي منها .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن تكون خطة البحث في مدخل وثلاثة أقسام ، تسبقه مقدمة وتتلوه خاتمة ، على النحو التالي :

المدخل: دراسة موجزة عن حياة أبي تمام ، ومذهبه الشعري ، والخصومة النقدية حول شعره ، كما يتضمن رصداً مختصراً لحركة الشروح الشعرية في التراث العربي ، وثبتاً بأهم شروح ديوان أبي تمام .

القسم الأول: الشروح الكاملة للديوان ، ويقع في ثلاثة فصول :

الأول : يتناول شرح أبي بكر الصولي .

الثاني : يتناول شرح أبي زكريا التبريزي .

الثالث : يتناول شرح ابن المستوفي الإربلي .

القسم الثاني: الشروح الخاصة ، وهو يقع في ثلاثة فصول أيضاً :

الأول : شروح أبي علي المرزوقي على شعر أبي تمام .

الثاني : شرح أبي العلاء المعري « ذكرى حبيب » .

الثالث : شرح أبي حامد الخارزنجي .

القسم الثالث: دراسة موازنة بين الشروح : تكشف عن أبرز الخصائص المشتركة بين الشروح ، وتدل على السمات الخاصة التي تميز كل شرح بعد أن تسلط الضوء على مدى الاتفاق أو الاختلاف في الشروح عامة .

الخاتمة : تبين أهم قضايا البحث وما توصل إليه من نتائج .

هذا هو موضوع البحث ومنهج الدراسة فيه ، أرجو من الله – جلّت قدرته – أن يجعله عملاً مسهماً في إثراء الدراسات الأدبية ، فما حالفني فيه من توفيق فبعون من الله ، وما كان فيه من تقصير ، فحسبي أني حاولت أن أدرس موضوعاً خصباً في تاريخ تراثنا الأدبي ، يتصل بنتاج واحد من أهم الشعراء في تاريخ الأدب العربي القديم . . . وهو أبو تمام الطائي .

والله تعالى أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه الخير والرشاد ، **إنه نعم المولى ونعم النصير .**

مدخل إلى الدراسة

أولاً : شعر أبي تمام .. والموقف النقدي حوله

أبو تمام .. ومذهبه الشعري

الخصومة النقدية حول مذهبه

ثانياً : شروح الديوان

نشأة الشروح في التراث العربي

شروح ديوان أبي تمام

أولاً : شـــعر أبي تمـام .. والموقـــف النـقـدي حولـــــه

أبو تمام الطائي :

أجمع كثير من مؤرخي الأدب والنقاد على أن حبيب بن أوس الطائي من أبرز الشعراء الذين أثروا الشعر العربي ، لكنهم اختلفوا في بعض ما يتعلق بحياته وطبيعة شعره ، فلم تتفق الروايات على سنة ولادته ومكانها ، ولا على سنة وفاته ، وتعددت الآراء في نسبه ومذهبه ، ونشأت حول شعره حركة نقدية واسعة .

يذكر الصولي في «أخبار أبي تمام» أن عون بن محمد الكندي [(١)] قال : " قرأت على أبي تمام شيئًا من شعره ، في سنة سبع وعشرين ومائتين ، وسمعته يقول : مولدي سنة تسعين ومائة" [(٢)] ، ثم ينقل رواية أخرى عن أبي سليمان النابلسي أن تمام ابن أبي تمام قال : " مولد أبي سنة ثمان وثمانين ومائة " [(٣)]، ويبدو أن الرواية الثانية أرجح من الأولى ومن روايات أخرى ذكرتها كتب التراجم ، يؤيد ذلك قوله :

سِتٌّ وعِشْرُونَ تَدْعُوني فأَتبعُها إلى المَشيبِ ولَمْ تَظْلِمْ ولَمْ تَحُبِ

من قصيدة مدح بها الحسن بن سهل بالعراق سنة أربع عشرة ومائتين هجرية .

وكانت ولادته في قرية «جاسم» التي لا تبعد عن دمشق سوى ثمانية فراسخ ،كما ذهب إلى ذلك معظم المؤرخين لأب قيل إنه كان يدعى «تدوس» فحرفه أبو تمام إلى «أوس» وانتسب في طيء[(٤)] ، وارتضى طه حسين هذا الرأي وذهب إلى أنه طائي بالولاء[(٥)] ، لكن نجيب البهبيتي عندما تناول قضية عروبة أبي تمام ، حاول أن يقلل من أهمية عبارات التشكيك التي أطلقت في نسبه ، وأنها لا تتعارض مع طائيته[(٦)] .

---

(١) هو أبو مالك الكاتب ، أحد أصحاب ابن الأعرابي ، روى عنه الصولي فأكثر ،ولم أعثر على تاريخ وفاته . انظر : ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١٦ ، ص ١٤٥-١٤٦.

(٢) أبو بكر الصولي : أخبار أبي تمام ، ت : محمد عبده عزام وآخرون ، ط : دار الآفاق الجديدة ، الثالثة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ص ٢٧٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

(٤) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ت : إحسان عباس ، ط : دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٨م ، جـ ٢ ، ص ١١

(٥) انظر : طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، ط : دار المعارف ، العاشرة ، مصر ، د : ت ، ص ٩٤ .

(٦) انظر : نجيب البهبيتي : أبو تمام الطائي ، حياته وحياة شعره ، ط : دار الثقافة ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ٢٨ وبما بعدها .

والحق أن من يعود إلى شعر أبي تمام يلاحظ شدة فخره بالانتساب إلى قبيلة طيء ، والتغني بأمجاد الطائيين ومآثرهم ، وغلوه في محبتهم ، حتى لا يشك - كما يقول شوقي ضيف - في أنه طائي صليبة وأنه من صميم طيء ، لا دعيّ فيها ولا من مواليها[١] . يقول في معرض افتخاره بطيء :

أَنَا ابن الذينَ استُرْضِعَ الجودُ فيهمُ ... وسُمِّي فيهمْ وهْوَ كَهْلٌ ويافِعُ

سَما بِيَ أَوسٌ في السَّماءِ وحَاتِمٌ ... وزيْدُ القَنا والأَثْرَمانِ ورَافِعُ

نُجُومٌ طَوَالِعٌ جِبَالٌ فَوَارِعُ ... غُيوثٌ هَوَامِعٌ سُيُولٌ دَوَافِعُ

إِذا طَيِّءٌ لم تَطْوِ مَنْشُورَ بأْسِهَا ... فأَنْفُ الذي يُهْدِي لها السُّخْطَ جَادِعُ[٢]

ويفيض شعره فخرًا وعصبية لطيء ، حتى إنه استعمل بعض لهجاتها النادرة ، لكن خصومه وحساده أحبوا الطعن في كثير مما يتصل بحياته وشعره .

وقد نشأ أبو تمام بدمشق ، ثم غادرها إلى حمص ، حيث مدح بني عبد الكريم الطائيين ، والتقى هناك بالشاعر العباسي «ديك الجِنّ» ، ثم هاجر إلى مصر ، يروي الناس الماء بجامع الفسطاط الكبير ، ويرتوي من العلم والقصص والأخبار والأشعار ، واتصل بعياش بن لهيعة الحضرمي الطائي ومدحه قبل أن يحدث بينهما جفاء ، واشتبك مع الشاعر المصري يوسف السراج ، وكانت بينهما خصومة ومهاجاة ، " وكان أبو تمام كثير العيب لغريب السراج ومعانيه ، فلم يلبث أن تأثر بهما ، وأصبحا من أخص خصائص مذهبه الشعري" [٣] .

بعد ذلك عاد أبو تمام إلى الشام ، ومدح طائفة من الناس ، من أبرزهم أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي ، الذي أصبح فيما بعد واليًا للمعتصم على دمشق ، وبعد وفاة المأمون سنة ثماني عشرة ومائتين ، اتجه الطائي إلى بغداد ، حيث الخليفة «المعتصم» ، والوزراء ، وكبار القادة ، فقرّبه المعتصم ، ونال حظوة عند علية القوم ، فكانت هذه المرحلة من أخصب أيامه وأزخرها ، ومن عيون شعره فيها : قصائده في

---

(١) انظر : شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،
ط : دار المعارف ، العاشرة ، القاهرة ، ١٩٧٨م ، ص ٢١٩ .

(٢) التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، ت : محمد عبده عزام ،
ط : دار المعارف ، الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، جـ ٤ ، ص ٥٨٤ - ٥٨٨ .

(٣) نجيب البهبيتي : أبو تمام الطائى ، ص ٨٧ .

فتح عمورية ، وقتل الأفشين ، والقضاء على ثورة بابك الخُرّمي ، وقصائده في رثاء محمد بن حميد الطوسي، ومدائحه في محمد بن يوسف الثغري ، وأحمد بن أبي دؤاد ، وابن الزيات ، وأبي دلف العجلي ، ومالك بن طوق ، وغيرهم ، ولما مات المعتصم في سنة سبع وعشرين ومائتين ، تنقل في عدد من المدن ، واستقر به الحال في الموصل . وقد ولاّه صديقه الحسن بن وهب على بريد الموصل ، حتى توفي بها في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين على أرجح الروايات[١] .

ثقافته :

قضى أبو تمام سنوات حياته في عصر يموج بالعلوم والمعارف المتعددة العربية، والفارسية ، والهندية ، واليونانية ، فأخذ نفسه بثقافة واسعة وعميقة ، اتكأ عليها في كثير من شعره اتكاءً واضحًا ، حتى قالوا عنه " الشاعر العالم " [٢] ، وإن " علمه وعقله فوق شعره" [٣] ، وذلك لما ورد في شعره من المصطلحات العلمية والمعاني الفلسفية التي لا يفهمها أحيانًا إلا العلماء ، ولا يعجب بها إلا أصحاب المعاني ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام ، الأمر الذي جعل ابن الأنباري صاحب « نزهة الألباء» يجعله في طبقات الأدباء والنحاة ويعده من أئمة علماء العربية [٤]، والزمخشري احتج بكلامه ؛ لأنه – عنده – " وإن كان محدثًا لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه»[٥] ، وذكر ابن جني أن المبرد احتج في كتابه «الاشتقاق» بشيء من شعر أبي تمام[٦] ، وتبعه ابن جني فاستشهد بشعره عند الحديث

---

(١) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢٧٣ .

(٢) الآمدي : الموازنة بين الطائيين ، ت : أحمد صقر ، ط : دار المعارف ، الرابعة ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، جـ ١ ، ص ٢٥ .

(٣) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٦٧ .

(٤) انظر : أبو البركات كمال الدين ابن الأنباري : نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ت : إبراهيم السامرائي ، ط : مكتبة الأندلس ، بغداد ، ١٩٧٠م ، ص ٢١٣ .

(٥) الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل ، ط : المكتبة التجارية الأولى ، القاهرة ، ١٩٣٥م ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .

(٦) انظر : ابن جني : الخصائص ، ت : محمد النجار ، ط : دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٧١هـ . جـ١ ، ص ٢٤ .

عن الفصل بين المتضايفين على التقديم والتأخير[١] ، وهذه الثقافة الغزيرة التي اتخذها بعض خصومه ذريعة يغمزون بسببها شعره ، كانت ميزة له عند أنصاره ، ومستنداً فسر به الشراح كثيراً من أشعاره ، لكنهم مجمعون على أن أبا تمام كان " مستهتراً بالشعر ، مشغوفاً به مشغولاً مدة عمره بتبحره ودراسته "[٢]، وأنه مع شدة انكبابه على القديم مستوعب لثقافات عصره ، متمثل لها في شعره .

ومن اليسير أن نجد أمثلة كثيرة تدل على تنوع ثقافته وتعدد مصادرها القديمة والجديدة ، ومن يتتبع شعره يجد أثر ثقافته الدينية في اعتماده على بعض معاني القرآن الكريم وألفاظه ، فهو يستمد من قصة يوسف قوله في مدح ابن طاهر :

أيُّهذَا العزيزُ قَدْ مَسَّنَا الضُّرُّ ... جَميعًا وأَهْلُنَا أَشْتَاتُ

ولنَا في الرِّحَالِ شَيْخٌ كَبِيْرٌ ... ولَدَيْنَا بِضَاعَةٌ مُزْجَاةُ

فاحْتَسِبْ أَجْرَنا وأَوْفِ لنَا الكَيْـ ... ـلَ وصَدِّقْ فإنَّنا أَمْواتُ[٣]

ومن الحديث الشريف كما في قوله :

إذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالي ... ولم تَسْتَحْي فافْعَلْ ما تَشَاءُ[٤]

إشارة إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إذا لم تستح فافعل ما شئت»[٥].

ويظهر علمه ببعض المذاهب والنحل المختلفة على نحو ما في قوله :

فَلَوْ صحَّ قَوْلُ الجَعْفَرِيَّة في الذي ... تَنُصُّ مِنَ الإلْهَامِ خِلْنَاكَ مُلْهَمَا

---

(١) انظر : ابن جني : الخصائص ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ .
(٢) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ٥٨ .
(٣) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢١١ .
(٤) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٢٩٧ .
(٥) انظر : البخاري : صحيح البخاري ، ضبط : مصطفى ديب ،
ط : دار القلم ، الأولى ، دمشق ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، جـ٣ ، ص ١٢٨٤ .

وقوله :

عَمْرِيٌّ عُظْمِ الدِّينِ جَهْمِيُّ النَّدَى يُنْفِي القُوَى ويُثَبِّتُ التَّكْلِيفَا

والجعفرية جماعة من الشيعة يغلون في تعظيم جعفر بن محمد ، ويزعمون أنه ملهم ، والجهمية فرقة تنسب إلى جهم بن صفوان ، وتقول بالجبر المحض[١].

ونجد بعض مصطلحات الفقهاء في قوله :

كَمْ في العُلَى لَهُمُ والمَجْدِ مِنْ بِـــدَعٍ إِذَا تُصفِّحَت اختِيرَتْ على السُّنَنِ[٢]

والمصطلحات النحوية كما في قوله :

خَرقَاءُ يَلْعَبُ بالعُقولِ حَبَابُهَا كَتَلَعُّبِ الأَفْعَالِ بِالأَسمَاءِ[٣]

ويعلق التبريزي على قوله :

صَاغَهُم ذُو الجَلالِ مِنْ جَوْهَرِ المَجْـ ـدِ وَصَاغَ الأَنَـــامَ مِنْ عَرَضِهْ

" هذا مأخوذ من الجوهر والعرض اللذيْن وضعهما المتكلمون ؛ لأن الجوهر عندهم أثبت من العرض "[٤].

ولا نريد أن نتتبع صدى الثقافة الواسعة في شعره ، وحسبنا ما قدمنا من أمثلة تدل على أهمية الجانب الثقافي باعتباره عنصراً من أهم العناصر المكونة لشعره .

ونلفت الانتباه إلى أن بعض الملكات الذاتية لأبي تمام قد أسهمت بوضوح في تشكيل شعره . ومن أبرزها ما كان يتمتع به من ذكاء حاد وبديهة حاضرة ، " فكان أحضر الناس خاطراً "[٥]، وقد ذكر بعض القدماء والمحدثين من أخبار ذكائه قصصاً كثيرة ، ومما يدل على فطنته وسرعة بديهته قصته مع الكندي الفيلسوف ،[٦] حين مدح

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٤٢ وجـ٢ ، ص ٣٨٧ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٣٩ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٩ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ .

(٥) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٧١ .

(٦) هو يعقوب ابن اسحاق الكندي ، ولد في أواخر القرن الثاني الهجري ، حصل بعض علومه في البصرة وبغداد ، اتصل بقصر الخلافة مترجماً لكتب اليونان توفى سنة ٢٥٢هـ . انظر : الأعلام ، جـ٨ ، ص ١٩٥ .

أبو تمام الخليفة أحمد بن المعتصم بسينيته المشهورة :

مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَـاسِ ... نَقْضِي ذِمَامَ الأَرْبُـعِ الأَدْرَاسِ

حتى انتهى إلى قوله :

إِقدَامَ عَمْرٍو في سَماحَةِ حَاتِمٍ ... في حِلْمِ أَحْنَفَ في ذَكَاءِ إِيَاسِ

فقال له الكندي ، وكان حاضراً : الأمير فوق ما وصفت ، فأطرق الطائي قليلاً ، ثم رفع رأسه وقال :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً في النَّدى وَالْبَاسِ

فاللّهُ قد ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُـورِهِ ... مَثَلاً مِنَ المِشْـكَاةِ والنِّبْـرَاسِ

فعجب الحاضرون من سرعته وفطنته[١] .

إلى جانب هذه الفطنة كان أبو تمام يملك حافظة قوية مكنته من حفظ الكثير من أشعار القدماء ، وقد قيل إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة غير القصائد ، والمقطوعات ، وغير دواوين الشعراء المحدثين ودواوين النساء[٢] ، ولا شك أن هذا يدل على مدى اهتمامه بالتراث الشعري وعكوفه عليه ، حفظاً وتأليفاً . وقد ذكر الآمدي أن له كتب اختيارات فيه مشهورة معروفة ، منها الاختيار القبائلي الأكبر ، والاختيار القبائلي الأصغر ، واختيار شعر الفحول ، والحماسة ، والحماسة الصغرى «الوحشيات» ، ومنها اختيار مجرد في أشعار المحدثين ، وغيرها مما يدل على عنايته بالشعر " وأنه ما فاته كبير شيء من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه وطالع فيه" [٣] . فكان لهذا التمرس بالشعر القديم وهذه الثقافة التراثية مع ما أخذ به من ثقافات عصره أثر ظاهر في مذهبه الشعري وما تميز به من خصائص فنية .

---

(١) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) انظر : يوسف البديعي : هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ، نشر الشيخ محمد مصطفى ، القاهرة، سنة ١٩٣٤م ، ص ١٠ .

(٣) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

مذهبه الشعري :

مرّ الشعر العربي في بعض عصوره بمراحل فنية تغيرت فيها بعض سماته وملامحه العامة ، استجابة لظروف العصر ومتطلبات الحياة ، وفي العصر العباسي ظهرت أبرز أشكال تطور القصيدة العربية في أشعار المحدثين أمثال بشار ومسلم وأبي نواس ، وبلغت الذروة على يد أبي تمام ، يقول الصولي : " إن ألفاظ المحدثين منذ عهد بشار إلى وقتنا هذا كالمتنقلة إلى معان أبدع وألفاظ أقرب وكلام أرق" [١] ، وفي هذا إشارة إلى ما لحق الشعر من تجديد وإبداع في الألفاظ ، والمعاني والأسلوب ، غير أن الطائي لم يقف عند هذا الحدّ ، بل بالغ في تجديده ، فجاء مذهبه مخالفًا لمذاهب الشعراء ، القدماء منهم والمحدثون ، المعاصرون له أو المتقدمون عليه ، فكان صاحب مذهب جديد ، و " رأسًا في الشعر مبتدئًا لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه حتى قيل : مذهب الطائى" [٢] .

وأول ما اتهم به أبو تمام مخالفته لبعض مبادىء «عمود الشعر العربي» فإذا كان الشعراء قبله " يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه .. ومناسبة المستعار منهم للمستعار له" [٣] فإن شعره كما يقول الآمدي : " لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولّدة " [٤]. وتكلُّف التصنيع ، ووضع الألفاظ في غير مواضعها والإكثار من « نوافر الأضداد » ، وتدقيق المعاني واستقصائها ، فكان إمام أهل «الصنعة» من المحدثين ، بينما عدل البحتري عن هذا المذهب فكان إمام أهل الطبع ؛ لأنه «أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل ما فارق عمود الشعر ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام »[٥] .

---

(١) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٣) المرزوقي : شرح ديوان الحماسة ، ت : أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط : دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، جـ ١ ص ٩ .

(٤) الآمدي : الموازنة ، جـ١ ، ص ٤ - ٥ .

(٥) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤ .

وهذه الصفات الشعرية أفادها البحتري من الوصية الثمينة التي تلقاها من أبي تمام ، والتي لم يلزم أبو تمام نفسه بها[١] ، بل نجده يخالف كثيراً مما جاء فيها ، فلم يجنب شعره الألفاظ الوحشية ، وبالغ في تقصي المعاني ، وارتياد المجهول ، وأغرق في طلب الاستعارة والطباق والجناس ، وأكره نفسه أحياناً على نظم الشعر ، ولم يتقيد بأشعار الماضين ، فكان له مذهب عرف به ، وصار علامة على شعره ، استدل به الشراح - كما سيأتي في الفصول القادمة - على تفسير المشكل والغامض من شعره .

ومن الظواهر الفنية التي شكّلت مذهب أبي تمام وصار فيها إماماً متبوعاً: الإفراط في توظيف «البديع» ، وهو عند القدماء يشمل التشبيه والاستعارة والطباق والجناس وغيرها من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وقد عدّ العلماء بشاراً أول المولدين وأصوبهم بديعاً وأن الذين أتوا بعده إنما حذوا حذوه[٢] ، لكن ابن المعتز ينفي أن يكون البديع من اختراع بشار ومسلم وأضرابهما ، يقول في مقدمة كتاب «البديع» : "وقد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه في القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون بالبديع ؛ ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه" [٣] .

ونظن أن هناك سبباً آخر غير تجاوز المقدار بالنسبة للبديع في شعر أبي تمام ، ذلك أنه كان غالباً ما يمزج بين ثقافته العقلية وتوظيف البديع ، فنجده يوظف الطباق والجناس والمشاكلة والاستعارة وغيرها توظيفاً فلسفياً معقّداً ، تمر في ظلال الثقافة والفلسفة ، فإذا هي تتحول عن شياتها وهيئاتها، وكما أن اللون يتحول عن شكله حين يمر في ضوء صناعي ، فكذلك البديع عند أبي تمام حين يمر في فلسفته وثقافته

---

(١) انظر : حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ت : الحبيب بن الخوجة ، ط : دار الغرب الإسلامي ، الثانية ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٢٠٣ .

(٢) انظر : الجاحظ : البيان والتبيين ، ت : عبد السلام هارون ، ط : دار الفكر ، الرابعة ، د : ت ، جـ ١ ، ص ٥١ .

(٣) ابن المعتز : البديع ، نشره : كراتشقوفسكي ، د : ت ، ص ١ .

العميقة[١]، ويبرز في صور غير التي عرفت عند مسلم ، وأبي نواس وبشار من ألوان البديع البسيطة التي تقوم على قدر من التلاعب بالألفاظ وحدها ، ولكن البديع عند أبي تمام يعتمد على عملية فنية معقدة ، كما في قوله :

مَطَرٌ يَذوبُ الصَّحْوُ منْه وبَعْدَه صَحْوٌ يكادُ مِنَ النَّضَارة يُمْطِرُ

حيث اعتمد في تشكيل البديع على ما كان يسميه بـ «نوافر الأضداد» واستخدمه استخدامًا فنيًا يحوج قارئه إلى كثير من التأمل ، لذلك ذهب الشراح في تأويل بعض أبياته مذاهب شتى ، فتعددت الشروح و التأويلات ، واختلفت رؤى النقاد حول شعره ، فمنهم من يرى أنه كان " يريد البديع فيخرج إلى المحال" [٢] ، ومنهم من يرى أنه " أكثر منه، فأحسن في بعض وأساء في بعض" [٣]، والذي يبدو أنه عندما يكون البديع متعلقًا بالمعنى ومعبرًا عن تجربة صادقة لديه فإنه يكون منسجمًا مع الصورة ومؤديًا لدلالته الفنية ، أما إذا قصد به تزيين اللفظ فحسب ، فإنه يأتي في الغالب خاليًا من الجمال الفني . لكن ولع الطائي بهذا الاتجاه جعله يبالغ في تشكيله في كثير من قصائده ، فأتى في شعره بما لم يألفه القدماء من قبل ، فكان سببًا دعا بعض النقاد وبعض شراح شعره إلى مهاجمته ، الأمر الذي جعل ابن رشيق يحذر الشاعر من الإسراف في استخدام البديع كما فعل أبو تمام ، قال : " فقد رأيت ما صنع به ابن المعتز ، وكيف قال فيه ابن قتيبة ، وما ألف فيه المتعصبون كالجرجاني وأبي القاسم بن بشر الآمدي وغيرهما" [٤].

ولعل أكثر ما بهر النقاد والشراح من توظيف البديع ، ما جاء في شعره من استعارات غريبة وبعيدة عما كان يجري منها في استعمالات العرب ؛ لأن الشعراء كانوا يجرون فيها على نهج قريب من الاقتصاد ، فيستعيرون الشيء فيما يقاربه ويدانيه ، ويناسبون بين اللفظ والمعنى الذي استعير له ، أما الطائي فلم يلتزم بهذه

---

(١) انظر : شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٢٤٩ .

(٢) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .

(٣) ابن المعتز : البديع ، ص ١ .

(٤) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ت : محيي الدين عبد الحميد ، ط : دار الجيل ، الخامسة ، بيروت ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ .

الحدود وأطلق لخياله العنان في استخراج أصعب وأبعد ما في ميادين الاستعارة ، حسب مقاييس النقاد في عصره ، من نحو قوله :

يا دهرُ قوّمْ من أَخْدَعَيْكَ فقــد   أضْجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكْ

وقوله :

كانُوا بُرُودَ زَمَانِهِمْ فتَصدَّعــوا   فكأنَّما لبِـسَ الزَّمَــانُ الصُّوفَا

وأيضًا :

رقيقُ حَواشِي الحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ   بكفَّيْكَ ما مَارَيْــتَ في أَنَّهُ بُرْدُ

فلم يستسغ بعض النقاد هذه الاستعارات وما شابهها[١]، واعتبروها مخالفة لكلام العرب ، وخارجة عن عمود الشعر العربي ، ووصفوها بالقبح والهجانة وبالبعد عن الصواب . وأفرد الآمدي في كتاب «الموازنة» بابًا جمع فيه «ما في شعر أبي تمام من قبيح الاستعارات»[٢] ، وشنّ النقاد المحافظون – وعلى رأسهم الآمدي – حملة انتهوا فيها إلى أن الطائي قد عدل في شعره عن مذاهب العرب المألوفة إلى الاستعارات البعيدة المخرجة إلى الخطأ والإحالة[٣] ، ولا شك أن في هذا الحكم ظلمًا للشاعر ولتجربته الشعرية ؛ لأن تقييد الشاعر بالمتداول والموروث من الأساليب الشعرية ، يحول بينه وبين تطوير فنه فيظل أسيرًا للأفكار والصيغ المألوفة ويظل حظه من تحقيق الابتكارات المناسبة لطبيعة الحياة ، أقل مما لو أتيح له استعمال بعض التقنيات الشعرية الجديدة ، والذي دفع بعضهم إلى التحفظ على تجربة أبي تمام هو استنادهم إلى القديم وحده في الحكم عليها، بحيث يقبلون ما وافقه ويرفضون ما خرج عنه ، ويصفونه بالخطأ والإحالة .

وكان موقف الشراح من بعض استعاراته أكثر مرونة من هؤلاء النقاد المحافظين. وسيتضح فيما بعد أن منهم من نوّه بها وعدها مما سبق إليه الطائي جميع الشعراء .

---

(١) انظر : أبو هلال العسكري : الصناعتين ، ت : علي البجاوي وأبو الفضل إبراهيم ، ط : المكتبة العصرية ، بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م ، ص ٣٠٣ .

(٢) انظر : الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ٢٦١ وما بعدها .

(٣) انظر : المصدر السباق ، جـ ١ ، ص ٥٢ .

كذلك كان لإسراف الطائي في توظيف الجناس والطباق أثر بارز في تشكيل مذهبه الشعري ، فالعرب لم تكن تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق ، وإنما يأتي منه على حسب ما يتفق للشاعر ويحضر في خاطره ، دون تعمد منه ، لكن أبا تمام أغرم به " وجعله غرضه ، وبنى أكثر شعره عليه " [١] . لذا نجد عنده عدداً من القصائد يكثر فيها الجناس والطباق كثرة مفرطة ، من ذلك اتكاؤه الواضح على الجناس في قصيدته الأولى التي في مطلع الديوان ، ومطلعها :

يا مُوضِعَ الشَّدَنيَّةِ الوَجَناءِ ومُصَارِعَ الإدلاجِ والإسْـــرَاءِ

وقصيدته التي مدح بها ابن الزيات :

متَى أَنْتَ عن ذُهْلِيَّة الحيِّ ذَاهِلُ وقلْبُكَ منها مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِـــلُ

وقد جمع الآمدي بعض الأبيات التي شاع فيها التجنيس ، ووضعها تحت باب «ما جاء في شعر أبي تمام من قبيح التجنيس» ، وذكر منها قوله :

فَاسْلَمْ سَلِمْتَ مِنَ الآفَاتِ ما سَلِمَتْ سِلامُ سَلْمى وَمَهْما أَوْرَقَ السَّـــلَمُ

وقوله :

قَرَّتْ بِقَرَّانَ عَيْنُ الدِّينِ وانْشتـــرَتْ بالأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ الشِّرْكِ فَاصْطُلِمَا

وقوله :

ذَهَبَتْ بِمَذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فَالْتـــوَتْ فيهِ الظُّنُونُ أَمَذْهَبٌ أَمْ مُذْهَـــبُ

كما جمع أبياتًا أخرى وعدها مما يستكره من المطابق في شعره ، وأشار إلى أن الطائي رأى ما جاء متفرقًا في أشعار الأوائل من هذا الفن فلم يقتصر على ما اتفق له من حلو اللفظ وصحيح المعنى ، وإنما توسع فيه واستكثر ، فكانت إساءته فيه أكثر من إحسانه[٢] .

وقد اختلف الباحثون حول تفسير ظاهرة الزخرفة البديعية في شعر الطائي ، فعدها بعضهم انعكاسًا لما في مجتمع العصر العباسي من ألوان حضارية وزخارف

---

(١) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ٢٨٤ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ .

هندسية وحلْي منتشر في الأثاث والقصور[١] . ومنهم من جعلها مرتبطة بشخصيته وأخلاقه ، من حيث إنّ الطائي كان مغرمًا بالجمع بين المتضادات ، والتصنع في شعره للفت الأنظار إليه[٢].

وهذه الاجتهادات - بغض النظر عن مدى صحتها - تدل على أن القدماء والمحدثين مجمعون على أن الطائي قد أفرط في استخدام الجناس والطباق بالقياس إلى الشعراء قبله ، قال أبو الفرج الأصفهاني : " وله مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه ، فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك في جميع طرقه" [٣] .

ولا بد أن نشير إلى أن مما زاد تعميق المشكلة في هذه الأنواع البديعية عند أبي تمام هو طريقته المعقدة التي كان يتبعها في رسم الصور الشعرية وتقديم المعاني البعيدة عبر وسائل البديع التي خرج بها على الاستعمال الشائع ، فاستغلقت المعاني على الأفهام أو كادت ، وسنرى - فيما بعد - مدى حيرة الشراح واختلافهم في تفسير شعره بسبب ما قدم من الصور الغريبة القائمة على الاستعارة والجناس والطباق ، التي تعد من أبرز خصائص مذهبه الشعري.

من هنا يتضح أن تجربة أبي تمام الشعرية كانت ولا تزال مجالاً لرؤى نقدية متعددة .. بل متناقضة أحْيانًا ؛ لأن «المورد العذب - كما يقولون - شديد الزحام» .

---

(١) انظر : عبده بدوي : أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، ط : الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص ١٧٥ .

(٢) انظر : شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٢ .

(٣) أبو فرج الأصفهاني : الأغاني ، ت : أبو الفضل إبراهيم وآخرون ، ط : دار إحياء التراث العربي ، مصورة عن ط : دار الكتب ، بيروت ، د : ت ، جـ ١٦ ، ص٣٨٣ .

الخصومة النقدية:

شهد القرن الثاني تيارات من التجديد الفنّي على أيدي شعراء مشهورين أمثال بشار ومسلم وأبي نواس ، كانت مدعاة إلى حوار نقدي ظهر فيه تعصب اللغويين للقديم وتقاليده الشعرية ، وعدم احتفالهم بأشعار المحدثين ؛ لأن " ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم" [١] ، وأنه ليس لأشعارهم مزية أو فضل إذا لم تكن جارية على الأسس والأصول الشعرية التي رسمها القدماء قبلهم .

ويذكر ابن رشيق أن " هذا مذهب أبي عمرو وأصحابه كالأصمعي وابن الأعرابي - يعني - أن كل واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب ، ويقدم من قبلهم"[٢] ، لكن الشعراء المحدثين لم يهتموا كثيراً بأحكام هؤلاء العلماء ، الذين شبّهوا أشعارهم بالرّيحان الذي يُشمُّ يومًا ويذوي فيرمى به[٣] ، واستمروا في محاولاتهم التجديدية بما يناسب روح العصر الذي يعيشون فيه ، ومهما كان من خلاف نقدي بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، فإن الخصومة لم تحتدم إلا حول أبي تمام ومذهبه الشعري ، الذي خالف به المألوف وخرج به على تقاليد «عمود الشعر العربي» ، فانقسم الناس حوله إلى أنصار مؤيدين له ، وخصوم معترضين عليه ، وزاد من حدة الخلاف ذيوع شعر البحتري وميله إلى المحافظة على التقاليد الفنية للشعر العربي القديم ، فنشأت خصومة بين مذهبين في الشعر نجد صداها على نحو ما صوره الآمدي في كتاب «الموازنة بين الطائيين» .

---

(١) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، جـ ١ ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٩١ .

(٣) المرزباني : الموشح ، مآخذ العلماء على الشعراء ، ت : علي محمد البجاوي ، ط : دار الفكر العربي ، القاهرة ، د : ت ، ص ٣١٠ .

أنصار أبي تمام:

يُعد **الصولي** أبرز أنصار أبي تمام والمدافعين عنه وعن شعره ضد خصومه ، حيث ألّف كتاب « أخبار أبي تمام » فكان في حقيقته " دفاعًا حادًا عنه تعصب له فيه كل التعصب ، وأفرط غاية الإفراط ، حتى لنراه يتغاضى له عن كل خطأ ، ويتسامح في كل زلة، وكتب فصلاً طويلاً عن وجه تفضيله ، وقدمه على كل سالف وخالف ، بل جعله المثل الأعلى للشعر والشعراء" [١].

وكان من مناصرة الصولي لأبي تمام أنه أول من جمع شعره وشرحه ، كما كتب رسالة في شعره ، ولا يخطىء نظر المتأمل لهذه المؤلفات أن يقع على عبارات الإعجاب المفرط بفن أبي تمام ، والهجوم المسرف في تقريع الخصوم ، يقول في معرض دفاعه : "وما أحسب شعر أبي تمام ، مع جودته وإجماع الناس عليه ، ينقص بطعن طاعن عليه في زماننا هذا ؛ لأني رأيت جماعة من العلماء المتقدمين ، ممن قدمت عذرهم في قلة المعرفة بالشعر ونقده وتمييزه ، وأُريتُ أن هذا ليس من صناعتهم ، وقد طعنوا على أبي تمام في زمانهم وزمانه ، ووضعوا عند أنفسهم منه ، فكانوا عند الناس بمنزلة من يهذي، وهو يأخذ بما طعنوا عليه الرغائب من علماء الملوك ورؤساء الكتاب .. حتى كان هو يعطي الشعراء في زمانه ويشفع لهم ، وكل محسن فهو غلام له ، وتابع أثره" [٢] .

وهذه الطريقة التي سلكها الصولي في دفاعه عن الطائي - كما يذكر مندور- أقرب إلى اللجاجة والإسراف من النقد الموضوعي الدقيق[٣] ، وربما كان إفراطه في التعصب سببًا في استثارة حفيظة بعض النقاد على شعر أبي تمام .

ومن أنصار أبي تمام **الحسن بن وهب**[٤] ، الذي كانت تربطه بأبي تمام علاقة ودّ

---

(١) شوقي ضيف : النقد ،
ط : دار المعارف ، الخامسة ، القاهرة ، د : ت ، ص ٧٨ .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٣) انظر : محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ،
ط : دار نهضة مصر ، القاهرة ، د : ت ، ص ٩٣ ،

(٤) هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الكاتب ، كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ، وكان شاعرًا بليغًا مترسلاً فصيحًا ، وأحد ظرفاء الكتاب ، وقد ولي ديوان الرسائل . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ١٣٦ - ١٧٧ .

وثيقة ، وبينهما مراسلات شعرية متبادلة ، حتى قال بعض معاصريه : " ما رأيت أحداً في نفس أحد أجل من أبي تمام في نفس الحسن بن وهب " [١]، وقد كتب الحسن رسالة نقدية ذكر فيها بلاغة أبي تمام ودافع عن شعره ، وانتصر له من بعض حساده ، وما وصل من هذه الرسالة يدل على شغف الحسن بن وهب بشعر الطائي وإعجابه به وإنكاره على كل من يعترضه بلوم أو عيب[٢] .

كذلك كان **محمد بن عبد الملك الزيات**[٣] معجبًا بشعر الطائي ، ويراه " يزيد حسنًا علي بهي الجواهر في أجياد الكواعب" [٤] . قال يومًا لجلسائه : أشعر الناس طُرًّا الذي يقول :

وما أُبَالي وخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُه حَقَنْتَ لي مَاءَ وَجْهِي أَوْ حَقَنْتَ دَمِي[٥]

وكان يتمنى ابن الزيات أن يكون الطائي شاعره الخاص ؛ لشدة تعلقه به وإكباره لصاحبه ، لكنه لم يظفر بذلك .

ومن أنصار الطائي فئة من الشعراء لم يخامر قلوبهم حسد لأبي تمام ، فاعترفوا له بالفضل ولشعره بالجودة ، وعلى رأسهم **أبو عبادة البحتري**[٦] ، الذي كان – على الرغم من مخالفة مذهبه لمذهب أبي تمام – تلميذًا وفيًا ، ومخلصًا في مودته له ، فدافع عن شعره واعترف بمحاسنه ، وحين قيل له : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام قال : " والله ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ،

---

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١١٤ .

(٢) انظر : الحصري : زهر الآداب .
ط : دار الجيل ، الرابعة ، بيروت ، ١٩٧٢ ، جـ ٣ ، ص ٨٩١ .

(٣) هو محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات ، الكاتب والأديب والشاعر ، وزر للمعتصم والواثق . وضعه المتوكل في التنور الذي أعده لتعذيب الناس فقتله سنة ٢٣٣ . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٩٤.

(٤) الحصري : زهر الآداب ، جـ ١ ، ص ٨٤ .

(٥) انظر : أبو فرج الأصفهاني : الأغاني ، جـ ١٦ ، ص ٣٨٤ .

(٦) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الله البحتري الطائي ، ولد بمنبج سنة ٢٠٦ ، وقد نشأ في البادية بين قبائل طيء ، وهو شاعر مشهور ، مدح المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، وهو أشهر من أن نترجم له في بضعة أسطر .

ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكني والله تابع له ، آخذ منه ، لائذ به ، نسيمي يركد عند هوائه ، وأرضي تنخفض عند سمائه" [١] ، ولم يقف إعجاب البحتري بشعر أبي تمام عند حدّ إطلاق عبارات الاستحسان ، والإشادة بتفوقه عليه في بعض الجوانب ، كقوله : "جيده خير من جيدي ، ورديئي خير من رديئه" وقوله : " كان أبو تمام أغوص على المعاني مني ، وأنا أقوم بعمود الشعر منه" [٢] ، وإنما حاول البحتري أن يحذو حذوه في بعض شعره ، ولا يرى بأسًا في اتباعه ، الأمر الذي جعل بعض المصنفين يؤلفون كتبًا خاصة في سرقات البحتري من أبي تمام .

ومن الشعراء الذين أثنوا على شعر أبي تمام الشاعر الأعرابي **عمارةبن عقيل**[٣]، الذي كان خبيرًا بصناعة الشعر ونقده ، وكان الناس يسألونه عن الشعر ويعرضونه عليه، وعندما أنشدوه قصيدة الطائي :

غَدَتْ تَسْتَجِيرُ الدَّمْعَ خَوْفَ نَوى غَدِ وعادَ قَتَادًا عِنْدَها كُلُّ مَرْقَدِ

قال : " كمل والله ، إن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعنى واطراد المراد واستواء الكلام فصاحبكم هذا أشعر الناس ، وإن كان بغيره فلا أدري"[٤] .

وكان عمارة مفتونًا بحسن معاني أبي تمام ومعجبًا بقدرته في إصابتها ، وكان يطلب من جلسائه أن يسمعوه رائية الطائي في هجاء الأفشين[٥] :

الحقُّ أَبْلَجُ والسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ العَرِينِ حَذَارِ

فشهد بأنه " وجد ما أضلته الشعراء ، حتى كأنه كان مخبوءًا له" [٦] .

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، جـ ١٨ ، ص ١٦٩ .

(٢) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ١٢ .

(٣) هو عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية الخطفي ، يكنى أبا عقيل ، شاعر فصيح ، كان يسكن بادية البصرة ، ويفد على الخلفاء في بغداد ، اتصل بعلماء البصرة فأخذوا عنه . انظر : الأغاني ، جـ ٢٠ ، ص ١٨٣ - ١٨٨ .

(٤) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٦١ .

(٥) هو خيذر بن كاوس ، أحد كبار قواد المعتصم ، وقد صلبه المعتصم سنة ٢٣٦ .

(٦) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٩٦ .

كذلك كان صديقه الشاعر **علي بن الجهم**[١] ، محبًا له ، ومعجبًا بفنه ، مدافعًا عنه وعن شعره ضد الخصوم ، وبخاصة دعبل الخزاعي ، الذي ذكر ابن الجهم أنه كان يكذب على أبي تمام ، ويضع عليه بعض الأخبار ويتهمه بالسرقة ، فنقده على بن الجهم وذبّ عن أبي تمام ومذهبه .

ويمكن أن يُعد من أنصاره أيضًا **عبد الله بن المعتز**[٢] ، الذي عرض لشعره في أربعة من مؤلفاته هي : كتاب « البديع » و « طبقات الشعراء » ، و«سرقات الشعراء » - وهو مفقود - و "رسالة في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه" [٣] ، فامتدح شعره وأثنى عليه في أماكن كثيرة من هذه المؤلفات ، وفضله على البحتري بقوله : ".. فأما أن يشق غبار الطائي في الحِذْقِ بالمعاني والمحاسن فهيهات ، بل يغرق في بحره ، على أن للبحتري المعاني الغزيرة ، ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام ومسروقٌ من شعره" [٤] .

ويؤكد مناصرته لأبي تمام مجادلته لإبراهيم بن المدبّر أحد المتعصبين على أبي تمام ، ومحاورته للمبرد حول شعر أبي تمام ، حتى استطاع أن ينتزع منهما الإقرار بفضل أبي تمام وإحسانه[٥] ، ومما تجدر الإشارة إليه أن إعجاب ابن المعتز بشعر الطائي لم يكن ليثنيه عن نقد بعض العبارات الرديئة في شعره ، كنقده لإغراقه في الجناس والطباق والاستعارة وغيرها ، وهذا لا يخرجه من دائرة الأنصار لالتزامه بالموضوعية في نقد المحاسن والمساوىء على السواء.

---

(١) هو أبو الحسن علي بن الجهم القرشي الشاعر المشهور ، كان فاضلاً متدينًا ، وله اختصاص بجعفر المتوكل ، بينه وبين أبي تمام مودة أكيدة ، توفي سنة ٢٤٩هـ . انظر : وفيات الأعيان : جـ ٣ ، ص ٣٥٥ .

(٢) هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل ، ولد سنة ٢٤٧ ، وقتل سنة ٢٩٦ ، تولى الخلافة يومًا واحداً فقط، كان شاعراً وأديبًا ناقداً ، له ديوان شعر و مجموعة من المؤلفات .

(٣) جمعها من مظانها وحققها عبد الكريم الحبيب ، ونشرها في مجلة المجمع الأردني ، العدد ٤٨ ، جمادى الأولى ، ١٤١٥هـ -١٩٩٥م ، ص ٢٨٧ - ٣٢١ .

(٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء المحدثين ، ت : عبد الستار فراج ، ط : دار المعارف ، الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٥) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٩٧ ، ٢٠٢ .

ويمكن أن يضاف إلى طائفة الأنصار عدد من الأدباء والكتاب والشعراء الذين ظهر في بعض أقوالهم ميل إلى أبي تمام ، أو استجادوا كثيراً من شعره ، كالمبرد[١] الذي استشهد في مؤلفاته بنماذج كثيرة من شعره ،[٢] واعترف بحذقه في بعضها ، ولم يمت - كما يقول ابن المعتز - إلا وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله من عيب فيه ومقر بفضله وإحسانه[٣] . ويُعد منهم أيضًا ، أبو مالك عون بن محمد الكندي ، ومحمد بن سعيد السيرافي ، ومحمد بن يعقوب الواسطي ، وإبراهيم بن العباس الصولي ، والشاعر علي بن العباس المشهور بابن الرُّومي ، وغيرهم ممن استمال شعر الطائي إعجابهم فنطقت ألسنتهم بتقريظه والثناء عليه .

خصوم أبي تمام :

يقابل هذه الطائفة من الأنصار جماعة كبيرة من الخصوم ، ناصبت الطائي العداء، وحاربت مذهبه ؛ لأسباب مختلفة ، يرتد بعضها - عند اللغويين والنحاة - إلى تمجيد القديم والتعصب له ، وتفضيله على سائر شعر المجيدين من المحدثين ، وبعضها يعود إلى عدم فهمهم للشعر المحدث وصعوبة استيعابهم له ، وقد علل الصولي ذلك بقوله : " أما ما حكي عن بعض العلماء في اجتناب شعره وعيبه ، .. فلا تنكر أن يقع ذلك منهم ؛ لأن أشعار الأوائل قد ذللت لهم ، وكثرت لها روايتهم ووجدوا أئمة قد ماشوها ، وراضوا معانيها ، فهم يقرأونها سالكين سبيل غيرهم في تفسيرها ، واستجادة جيدها وعيب رديئها ، وألفاظ القدماء وإن تفاضلت فإنها تتشابه ، وبعضها آخذ برقاب بعض ، فيستدلون بما عرفوه منها على ما أنكروه ، ويقوون على صعبها بما

---

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي ، إمام أهل العربية والنحو في زمانه، له مجموعة من المؤلفات ، أشهرها كتاب الكامل ، و لد بالبصرة سنة ٢١٠ وتوفي سنة ٢٨٥ . انظر: وفيات الأعيان ، ص ٦٩٤ - ٦٩٨ .

(٢) انظر : المبرد : الكامل في اللغة والأدب ، ت : نعيم زرزور وتغاريد بيضون ، ط : دار الكتب العلمية ، الأولى ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م ، جـ ١، ص ٤٦١ ، ٤٦٣ ، جـ٢ ، ص ٦٢ ، ١٨١ ، ٣١٣ .

(٣) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢٠٤ .

ذلّلوه ، ولم يجدوا في شعر المحدثين مذ عهد بشار أئمة كأئمتهم ، ولا رواة كرواتهم ، الذين تجتمع فيهم شرائطهم ، ولم يعرفوا ما كان يضبطه ويقوم به ، وقصّروا فيه فجهلوه ، فعادوه . وكما قيل الإنسان عدوّ ما يجهل ، ومن جهل شيئًا عاداه ، وفرّ العالم منهم من قوله إذا سئل أن يُقرأ عليه شعر بشار وأبي نواس ومسلم وأبي تمام وغيرهم ، من «لا أُحْسِن» إلى الطعن ، وخاصة على أبي تمام ؛ لأنه أقربهم عهدًا ، وأصعبهم شعرًا ، .." [١] .

من هذا المنطلق كان **ابن الأعرابي**[٢] من أشد علماء اللغة خصومة لأبي تمام ، وكان يقول عن شعره : "إن كان هذا شعرًا فما قالته العرب باطل" [٣] ، وتظهر حقيقة موقفه حين أسمعه أبو عمرو بن أبي الحسن الطوسي أرجوزة أبي تمام على أنها لبعض شعراء هذيل :

وعَاذِلٍ عَذَلْتُهُ في عَذْلِه فَظَنَّ أَنِّي جَاهِلٌ مِنْ جَهْلِه

فقال له : اكتب لي هذه ، فلما كتبها ، قال له : أحسنة هي؟ قال ابن الأعرابي : ما سمعت بأحسن منها ، فلما أخبره أنها لأبي تمام ، قال له : خرِّق خرِّق [٤]، وهذا الحكم الجائر – الذي لا يستند إلى مسوغ سوى العصبية المفرطة – مرفوض في ميدان النقد الموضوعي ، لذلك نجد ابن المعتز ينقد ابن الأعرابي في تصرفه ، فيقول : "هذا الفعل من العلماء مفرط القبح ؛ لأنه يجب ألا يدفع إحسان محسن عدوًا كان أو صديقًا " [٥].

---

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٤ – ١٥ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد ، ولد بالكوفة ، وكان مولى لبني هاشم ، وكان أحفظ الناس للغات والأيام والأنساب ، قالوا فيه : لم ير أحد في الشعر أغزر منه ، من مصنفاته كتاب الأمالي ، وأبيات المعاني ، والفاضل ، وكتاب النوادر ، توفي سنة ٢٣٠ أو ٢٣٢ . انظر : وفيات الأعيان ، ص٦٩٠ – ٦٩٢.

(٣) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢٤٤ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ص ١٧٥ – ١٧٦ .

(٥) انظر : نفسه ، ص ١٧٦ .

وقد سرت هذه الخصومة من ابن الأعرابي إلى تلميذه **أبي سعيد الضرير**[١] ، الذي لم يستطع أن يفهم قصيدة الطائي :

هُنَّ عَوادي يُوسُفٍ وصَوَاحِبُهْ فَعَزْمًا فَقِدْمًا أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهْ

فلم ير أنها ترقى إلى أن يمدح بها مثل عبد الله بن طاهر والي خراسان آنذاك ، فلما لقي أبا تمام قال له : يا أبا تمام لِمَ لا تقول من الشعر ما يُفهم ؟ فقال له أبو تمام : وأنت يا أبا سعيد لِمَ لا تفهم من الشعر ما يقال ؟ فأفحمه [٢] .

ومن الطاعنين على أبي تمام الذين لم يرق لهم مذهبه لعدم استيعاب معانيه ، **أبو العباس ثعلب** [٣]، لكنه كان يذهب إلى بني نوبخت فيختارون له بعض أشعار أبي تمام ويشرحونها له ، حتى تغير موقفه ، وتسامح عن بعض أبياته[٤] .

كذلك كان **أبو ذكوان**[٥] ساخطًا على مذهب أبي تمام متبرمًا منه ، لما يجد في نفسه من عجز عن فهم بعض شعره ، وقد عبر عن رأيه وموقفه المضطرب حينما سئل عن شعره ، بقوله : "فيه ما أستحسنه وفيه ما لا أعرفه ولم أسمع بمثله ، فإما أن يكون هذا الرجل أشعر الناس جميعًا ، وإما أن يكون الناس جميعًا أشعر منه " [٦] .

---

(١) هو أبو سعيد الضرير أحمد بن أبي خالد البغدادي ، أديب وعالم في اللغة ، استقدمه طاهر بن عبد الله إلى خراسان ، وأقام بنيسابور وأملى بها" المعاني والنوادر "، تلقى العلم عن ابن الأعرابي وغيره من العلماء . انظر : معجم الأدباء ، جـ ٣ ، ص ١٥ .

(٢) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٧٢ .

(٣) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني البغدادي المعروف بثعلب ، إمام مدرسة الكوفة في النحو واللغة في زمنه ، كان راوية للشعر ثقة ، عالمًا بغريب اللغة ، من مصنفاته : " الفصيح " ، و " قواعد الشعر" ، و "مجالس ثعلب" . انظر : مراتب النحويين ، ص ٩٢ – ٩٦ .

(٤) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٥ – ١٦ .

(٥) هو القاسم بن إسماعيل أبو ذكوان ، عاش في أيام المبرد ، كان عالمًا إخباريًا ، وله كتاب "معاني الشعر" . روى عنه ابن درستويه .

(٦) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢٤٥ .

ومن المتحاملين عليه أيضًا علي بن مهدي الكسروي[١] ، الذي نقل عنه المرزباني ذمه لمذهب الطائى ، وطعنه في شعره ، ومنهم أيضًا إبراهيم بن المدبّر[٢] الذي كان يسيء الرأي بأبي تمام ، ويحلف أنه لا يحسن شيئًا قط [٣]، وقد ألمحنا إلى مجادلة ابن المعتز له، التي أفحمه فيها بعد أن أسمعه أبياتًا جيدة ومشهورة من شعر الطائي[٤] .

أما الخصوم من الشعراء: فقد كانت خصومتهم صادرة عن حسد شخصي ؛ لأنه لم يكن " أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهمًا واحدًا في أيام أبي تمام ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه" [٥] . وهذا يدل على سيطرته على مملكة الشعر في زمانه واستئثاره بجوائز السلاطين والولاة وكبار القوم ، فأغفل بعض مشاهير الشعراء أمثال : **دعبل ، وابن المعذّل ، وديك الجنّ ، وعلي بن الجهم** ، وغيرهم من الشعراء المعاصرين له ، ومن الطبيعي أن يكون دعبل بن علي الخزاعي[٦] على رأس الخصوم الحاقدين على أبي تمام؛ لأنه رأى في بروز الطائي إيذانًا بأفول نجمه ، فناصبه العداء ، واتهمه بسرقة الأشعار ، ونفى عنه الشاعرية ، قال : "لم يكن أبو تمام شاعرًا ، وإنما كان خطيبًا ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر" [٧] . وبلغ حقده عليه أنه عندما ألف كتابًا في طبقات الشعراء، لم يدخل أبا تمام فيه [٨]، محاولاً الانتقاص من

---

(١) هو أبو الحسن علي بن مهدي الكسروي ، من علماء اللغة والنحو ، وكان أديبًا ظريفًا وراوية وشاعرًا ، كان بينه وبين ابن المعتز مكاتبات وأشعار ، له مؤلفات منها «كتاب الخصال» . انظر : معجم الأدباء، جـ ١٥ ، ص ٨٨ .

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر أبو إسحاق الكاتب ، وزر للمعتمد على الله ، حسده الكتاب على منزلته من السلطان ، فأغروه به حتى أخرجه إلى دمشق واليًا عليها ، مات سنة ٢٨٦ هـ وقيل ٢٧٠ . انظر : معجم الأدبا ، جـ ١ ، ص ٣٢٦ .

(٣) انظر : المسعودي : مروج الذهب ، نشره دي مينار ، ط : باريس ، ١٨٦١م ، جـ ٤ ، ص ٢٤ .

(٤) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٩٧ - ٩٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٦) هو دعبل بن علي الخزاعي ، شاعر هجّاء ، أصله من الكوفة ، وأقام ببغداد ، صنف كتابًا في "طبقات الشعراء "، قال عنه ابن خلكان : بذيء اللسان ، مولعًا بالهجو والحط من أقدار الناس ، توفي سنة ٢٤٦هـ في بلدة بين واسط وخراسان . انظر : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ١٧٨ .

(٧) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢٤٤ .

(٨) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

فضله وقدره الذي أقرّ به في بعض مجالسه حينما قال :" لم ندفع فضل هذا الرجل ، ولكنكم ترفعونه فوق قدره .. فأجابه عِصابة الجُرجُرائي[١] بقوله : تقدّمه في إحسانه صيّرك له عائبًا وعليه عاتبًا" [٢] .

ومن الذين حاربوا أبا تمام الشاعر البصري **عبد الصّمد بن المعذّل**[٣] ، الذي كتب أبياتًا يهجو فيها أبا تمام ليصده عن القدوم إلى البصرة ، وكان كثيرًا ما يسخر منه ومن بعض مجازاته ، وقد ذكر الرواة أنه عندما سمع قول أبي تمام :

لا تَسْقِني مَاءَ المَلامِ فإنَّني صَبٌّ قد استَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

أرسل إليه إناءً وطلب أن ينفذ إليه شيئًا من ماء الملام[٤] ، لكن ابن المعذّل - على الرغم من عداوته للطائي - كان يقلده في بعض أشعاره ، وقد ذكر المرزوقي أنه أخذ لفظ قوله :

أَتَرْضَى بأنْ أَرْضَى فَأَرْضَى تَتَبُّعًا لمرضَاتِكُم مِنكم بما لَيْسَ بالرِّضَا

من قول الطائي :-

فالمجْدُ لا يَرْضَى بأَنْ تَرَضَى بِـأَنْ يَرْضَى المُؤَمِّلُ مِنْكَ إلاَّ بِالرِّضَـــا[٥]

ومن الشعراء الذين حسدوا أبا تمام **أبو عبد الله بن الخثعمي**[٦] . وقد اجتمعا في بلاط ابن الزيات ، فخشي ابن الخثعمي على مكانته عند ابن الزيات فراح يثلبه وينظم القصيد في هجائه ، ويحاول أن يوقع بينه وبين ابن الزيات ، لكنه عندما لم يظفر بمراده أخذ يتتبع أخطاءه ويشهر بها .

---

(١) هو إبراهيم بن باذام ، صاحب حكايات وأخبار ، وله ديوان شعر ، روى عنه عون بن محمد الكندي .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٨٢ .

(٣) هو عبد الصمد بن المعذل بن غيلان بن الحكم ، بصري المولد والمنشأ ، كان شاعرًا فصيحًا ، هجّاءً خبيث اللسان . انظر : الأغاني ، جـ ١٣ ، ص ٢٢٦ .

(٤) انظر : ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة ،
ط : دار الكتب العلمية ، الأولى ، بيروت ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ١٤٠ .

(٥) انظر : المرزوقي : شرح مشكلات ديوان أبي تمام ، ت : عبد الله الجربوع ،
ط : دار المدني ، الأولى ، جدة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م ، ص ٣٥ .

(٦) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد الخثعمي الكوفي .

كذلك يدخل في إطار خصوم أبي تمام الشاعر **أبو هفان المهزمي**[١] ، بإنكاره لجيد أبي تمام ، وتهويله لأغاليطه وسقطاته ، وكان يزعم أن شعر أبي تمام لا يفهمه غير الطائي أحد ، قال : "مالك يا أبا تمام تعمد إلى دُرَّةٍ فتلقيها في بحر خُرْءٍ ، فمن يخرجها غيرك ؟ " [٢] ، ومثل أبي هفان ، القاسم بن مهرويه [٣] ، الذي كان يذم مذهب أبي تمام ويكره إغراقه في البديع ويصف شعره باليبوسة والفساد[٤] . وينضم إلى هؤلاء طائفة من الشعراء كشفوا عن حسدهم له بقصائد نظموها في هجائه كان من أبرزهم ، مخلّد بن بكار الموصلي ، وعتبة بن أبي عاصم ، ويوسف السراج ، ومحمد بن وهب الحميري ، وخالد الكاتب ، ومحمد بن يزيد ، ومحمد بن الحسن الشاعر ، وغيرهم.

ولقد استمرت المعركة النقدية بين الأنصار والخصوم ، غير أنه بتقدم الزمان وتطور النقد نحو المنهجية والموضوعية خفت حدة الخصوم وابتعد النقاد – في الغالب – عن الأحكام التأثرية الذاتية ، ونشأت فئة معتدلة اتسمت آراؤها بالدقة والموضوعية ، ومنهم بعض الشراح الذين أصدروا أحكامهم النقدية عليه بعد قراءة متأنية ، على أنه كان لاختلاف الأذواق وتنوع الثقافات وتعدد وجهات النظر – في مختلف العصور – أثر ظاهر على بعض نقاد أبي تمام ، لا يمكن إنكاره أو تجاهله ، فمن كان يستهويه المطبوع وما وافق مذاهب القدامى فإنه يناهض مذهب أبي تمام ويجتهد في إبراز مساوئه وأخطائه . ومن كان ينزع إلى التجديد ، والتصنيع فإنه يميل إلى الشعر المحدث، وشعر أبي تمام خاصة ، ويفضله في أحيان كثيرة على الشعر القديم ، وقد نسب إلى أبرز ناقدين في تاريخ النقد العربي وهما **أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني** ، أنهما تعصبا على أبي تمام واجتهدا في طمس محاسنه ، وقد أشار ياقوت الحموي في ترجمته للآمدي إلى ما نسب إليه فقال : " ولأبي القاسم تصانيف كثيرة .. ومنها كتاب الموازنة بين البحتري وأبي تمام .. وهو

---

(١) هو عبد الله بن أحمد بن حرب أبو هفان المهزمي ، من أهل البصرة ، وهو أحد غلمان أبي نواس ورواته ، من مؤلفاته : أخبار أبي نواس . انظر :الفهرست ، ص ١٤٤ .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢٤٥ .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم الخولاني ، صاحب كتاب « الخيل السوابق» . انظر : الفهرست ، ص ٨٠ .

(٤) انظر : الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ١٧ – ١٨ .

كتاب حسن ، وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه ، ونسب إلى الميل مع البحتري فيما أورده والتعصب على أبي تمام فيما ذكره .. فإنه جد واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مزدول البحتري ، ولعمري أن الأمر كذلك، وحسبك أنه بلغ في كتابه إلى قول أبي تمام : « أَصَمَّ بِكَ النَّاعي وإِنْ كانَ أَسْمَعَا » ، وشرع في إقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين ، فتارة يقول هو مسروق ، وتارة يقول هو مرذول .. إلى غير ذلك من تعصباته ، ولو أنصف وقال في كل واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من أبي تمام" [١] . هذا ، وسنرى فيما بعد ، أن ثلاثة من شراح شعر الطائي وهم الصولي والمرزوقي وابن المستوفي قد اتهموا الآمدي تصريحًا وتلميحًا بالتعصب على أبي تمام .

أما الجرجاني فكان يعد تصنع أبي تمام وتكلفه جريرة لا تغتفر ؛ لأنه أفسد شعره وحمّلَه كل غث وثقيل ، فصار إذا قرع - هذا الجنس من شعره - السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكد الخاطر ، فلا تهش النفس لاستماعه ، وفي كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» حاول الجرجاني تتبع أخطاء أبي تمام وسرقاته وعيوب مذهبه ليهوّن أمامها أخطاء المتنبي ويتلمس الأعذار لسقطاته ، وعندما لوحظ عليه تحامله على أبي تمام حاول أن يدافع عن نفسه ويقول : ".. لست أقول هذا غضًا من أبي تمام ، ولا تهجينًا لشعره ، ولا عصبية عليه لغيره ، فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه ، وأنتحل موالاته وتعظيمه" [٢] ، وسيأتي -لاحقًا- ردّ بعض الشراح على بعض انتقادات الجرجاني لشعر أبي تمام ، ذلك لأن الشراح لم يكونوا جميعًا في منأى عن المعركة النقدية حول الطائي ، وإذا كان الخارزنجي والتبريزي قد ابتعدا عن الولوج في الخصومة فإن بقية الشراح خاضوا مع النقاد في بعض مناحيها، وقد عرضنا بعضًا من مواقف الصولي التي تعصب فيها لأبي تمام ، وسنتبين من خلال دراسة الشروح - فيما بعد - بقية مواقفه و آرائه ، ومواقف الشراح الآخرين - التي غلب عليها الميل إلى أبي تمام وإلى مذهبه - ، وأثرها في رواية شعره وتوجيهه وتقويمه.

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،
ط : دار الفكر ، الثالثة ، دمشق ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، جـ ٣ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) انظر : الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ت : أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي ،
ط : المكتبة العصرية ، بيروت ، د : ت ، ص ١٩ .

ثانيـاً : شـــروح الديـــوان

نشأة الشـــروح في التراث العربي .

شــــروح ديـــوان أبي تمـــام .

ثانيـاً : شـــــروح الـديـــوان

نشأة الشروح وتطورها في التراث العربي :

كان العرب في العصر الجاهلي غير محتاجين إلى من يفسر الشعر ويبينه لهم ؛ لأن الشاعر ابن بيئتهم ، يعيش في زمنهم ، ويشترك معهم في اللغة ، والثقافة ، والمجتمع، فإذا صوّر الشاعر واقعهم البدوي لم تخف عليهم بواعث شعره ، وأغراضه ومعانيه ، ولم يكد يشذ عن مداركهم شيء من تعبيراته وألفاظه ، فهو ينطق بالسليقة ، ويعبّر عن الواقع المشترك ، وإذا ما طرأ عند بعض الشعراء لفظ غريب أو معنى مستغلق ، فإن السامع – في الغالب – يهرع إلى الشاعر نفسه ، ليبين له مقصوده من ذلك اللفظ أو تلك العبارة ، كالذي حدث من جَدَّة العجاج حين سألت امرأ القيس عن معنى استغلق عليها في قوله : «كرّكَ لأُمَيْنِ عَلى نَابِل» من بيته :

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى ومَخْلُوجةً كَرَّكَ لأُمَيْنِ عَلى نَابِلِ

فأجابها «مررت بنابل وصاحبه يناوله الريش لؤاماً وظهاراً ، فما رأيت أسرع منه ولا أحسن ، فشبّهت به» [١] .

وعبيد راوية الأعشى عندما استعصى عليه فهم قوله : «سَلَبْتُها جِرْيَالَهَا» سأل الأعشى ، ماذا أردت بقولك :

ومُدَامَةٍ مما تُعتِّقُ بَابِلٌ كَدَمِ الذَّبِيْحِ سَلَبتها جِريالَها

فقال له : شربتها حمراء ، وبلْتُها بيضاء» [٢] .

ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في الجاهلية وفي صدر الإسلام ، غير أنه لما أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ودخل الناس فيه أفواجًا ، واجتمعت فيه ألسنة

---

(١) انظر : أبو القاسم علي بن حمزة البصري : التنبيهات على أغاليط الرواة ، ت : عبد العزيز الميمني ، ط : دارالمعارف ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م ، ص ٨٩ .

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة : الشعر والشعراء ، ت : مفيد قميحة ، ط : دار الكتب العلمية ، الثانية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، جـ ١ ، ص ١٥٦ .

متفرقة ولغات مختلفة ، واحتاج الناس إلى فهم بعض تعبيرات القرآن الكريم ، عُنِيَ العلماء والرواة بجمع الشعر وتدوينه ، باعتباره المعين الأول لفهم لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهو «ديوان العرب» ومصدر لغتهم الفصحى ، يستقى منه الشاهد ، ويحتج به على الخطأ ، وتقاس به القاعدة ، وقد كان عبد الله بن عباس - حبر الأمة - يقول : "إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب" [١] ، ومما يذكر أن عمر بن الخطاب سأل عن معنى «التخوّف» في قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾[٢] ، فقام شيخ من هذيل يقول : هذه لغتي ، ومعنى التخوُف : التنقُّص ، فطلب منه عمر شاهداً على ذلك فأنشد :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِدًا كما تَخَوّفَ عُودَ النَّبعةِ السَّفَنُ

فرضي عمر بتفسيره [٣] .

هكذا كانت البداية الأولى في شرح الشعر ، عبارة عن تفسير لفظة مفردة ، أو توضيح اسم علم ، أو تحديد مكان ، أو بيان خبر يقوله الراوي في أثناء روايته للشعر ، على أنه جزء من الرواية غير مقصود لذاته ، واستمرت حركة الشروح تسير في هذا المسلك طوال القرن الأول الهجري - تقريبًا .

وفي القرن الثاني أخذت حركة الشروح تخطو إلى الأمام بفضل المحاولات الاجتهادية التي ظهرت على أيدي بعض العلماء المختصين في جمع الشعر وتدوينه ، وفي مقدمة هؤلاء العلماء الرواة : أبو عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) ، وحماد الرواية (١٥١هـ) ، وأبو الخطاب الأخفش (١٧٧هـ) ، والمفضّل الضبّي (١٦٨هـ) ، وخلف الأحمر (١٨٠هـ) . . . وغيرهم ، حيث توسعوا في تفسيراتهم ، بذكر معنى البيت أحيانًا ، أو ذكر بعض اللمحات التفسيرية التي تتصل بمقصد الشاعر أو مناسبة الشعر أو الأخبار التاريخية ، كما نجد في شروحهم - أحيانًا - بعض الإشارات النقدية المتعلقة بمعاني الشعر أو سيرة الشاعر .

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

(٢) سورة النحل ، آية ٤٧ .

(٣) انظر : عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي : تفسير البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ط : دار الكتب العلمية ، الأولى ، بيروت ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، جـ ١ ، ص ٥٤٥ - ٥٤٦ .

ومن النماذج التي تدل على جهودهم في عملية شرح الشعر ، ما قاله أبو عمرو ابن العلاء حين سأله أبو عبيدة عن معنى قول الحارث بن حلزة :

إِنَّ إِخْوانَنا الأَراقِـــمَ يَغْلُـــو نَ عَلَيْنَا و في قَوْلِهِمْ إِحْفَاءُ

زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْـ ـرَ مَوالٍ لَنَا وأَنَّا الـــوَلاءُ

قال : " ذهب والله الذين كانوا يحسنونه ، ولكنا نرى معناه :إن إخواننا يضيفون إلينا ذنب كل من أذنب إليهم ممن نزل الصحراء ، و ضرب عيراً ، ويجعلونهم موالي لنا " [١].

كما نجد اهتمامهم بتفسير بعض الإشارات التاريخية التي ترد في بعض الأشعار التي يروونها . من ذلك تفسير المفضل الضبي لما ورد في بيت قيس بن زهير :

أَطُوفُ ما أَطُوفُ ثُمَّ آوِي إِلى جَارٍ كَجَارِ أَبي دُوادِ

قال : "جار قيس بن زهير بن ربيعة بن قرط بن غيلان بن أبي بكر بن كلاب ، ويقال : جار أبي دواد : الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، وكان أبو دواد في جواره فخرج صبيان الحي يلعبون في غدير فغمسوا ابن أبي دواد فمات ، فخرج الحارث فقال : لا يبقى في الحي صبي إلا غرقته في الغدير ، فودي ابن أبي دواد لذلك عدة ديات .." [٢] .

وربما حاول بعض هؤلاء العلماء إصلاح ما قد يقع في بعض الشعر المروي من خطأ في المعنى أو في الصياغة ، فالأصمعي كان يقول : " قرأت على خلف شعر جرير فلما بلغت قوله :

فَيَالَكَ يَوْمًا خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّهِ تغيَّبَ وَاشِيْه وأَقْصَرَ عَاذِلُه

فقال : ويله ! وما ينفعه خير يؤول إلى شر ؟ قلت له : هكذا قرأته على أبي عمرو، فقال لي : صدقت ، وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح مشرّد الألفاظ ، وما كان

---

(١) ابن قتيبة الدينوري : كتاب المعاني الكبير ،
صححه المستشرق سالم الكرنكوي ، دار النهضة الحديثة ، بيروت ، ١٨٧٢هـ - ١٩٥٣م ، جـ ٢ ، ص ٨٥٥ .

(٢) المفضل بن محمد الضبي : أمثال العرب ، ت : إحسان عباس ،
ط : دار الرائد العربي ، الأولى ، بيروت ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، ص ٩١ .

أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع ، فقلت : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو قال : « فَيَالَكَ يَوْمًا خَيْرُه دُوْنَ شَرِّه » .

فارْوه هكذا ؛ فقد كانت الرواة قديمًا تصلح من أشعار القدماء ، فقلت : والله لا أرويه بعد هذا ألا هكذا" [١] .

ومصادر الأدب واللغة مليئة بالشواهد والأمثلة التي توضح حقيقة ما قدموه من جهود في مجال شرح النص الشعري القديم ، وما عرضوا له من عناصره كالرواية ، واللغة ، والمعنى ، والمناسبات والأحداث التاريخية المتعلقة به [٢] ، وغيرها .

وفي عصر هؤلاء العلماء برزت ظاهرة جديدة تمثل منعطفًا مهماً في تأريخ حركة الشروح وتطور مناهجها ، وهي تلك الطريقة التي سنها أبو الخطاب الأخفش في شرح الشعر ، حيث جعل شرح كل بيت تحته ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها جملة [٣] .

ويرى عبده عزام أنه لم يقصد إلى أن يكون للشعر شرح بمعناه المعروف ، وإنما فعل ذلك لغلبة ما يتناوله من قضايا اللغة والنحو ، فاضطر إلى أن يقطع الشعر بالوقوف عند كل بيت ، فاستمرت هذه عادة الشراح بعده[٤] .

وتلقى تلاميذ هؤلاء الرواة الثقات ما حققه شيوخهم من تفسيرات وشروح ، فجمعوا ما دونوه وسجلوا ما سمعوه منهم ، وساروا على نهجهم في تفسير الشعر ، ويقف على رأس العلماء من هذه الطبقة أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠هـ) ، وأبو زيد الأنصاري (٢١٥هـ) ، وعبد الملك بن قريب الأصمعي (٢١٦هـ) ، وابن الأعرابي (٢٣١هـ)، وغيرهم .

---

(١) المرزباني : الموشح ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) انظر في هذا كتاب : سنيّه أحمد محمد : النقد عند اللغويين في القرن الثاني ، ط : دار الرسالة ، بغداد ، ١٩٧٧م .

(٣) انظر عبد الرحمن جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، ط : دار الفكر ، دمشق ، د : ت ، جـ ٢ ، ص ٤٠٠ .

(٤) انظر : التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٣ .

وقد استطاعت هذه الفئة من العلماء بفضل ما لديها من ثقافة شمولية أن تضيف إلى ما قدمه الرعيل الأول بعض الاجتهادات في تأويل الشعر وتفسير عباراته وروايته وإعراب كلماته ، "إنما نفتي فيما استتر من معاني الشعر ، وأشكل من غريبه وإعرابه بفتوى سمعناها من غيرنا ، أو اجتهدنا فيها" [١] . لأنهم مع شدة اعتدادهم بشيوخهم واعتمادهم على أقوالهم لم يقفوا عند حدّ النقل عنهم ، بل أضافوا إلى أقوالهم بعض التوضيحات والشروح الخاصة . وقد يخالفونهم في بعض التفسيرات والتأويلات والروايات ، فالأصمعي - مثلاً - خالف أستاذه أبا عمرو بن العلاء في بيت ابن مقبل :

مَنَحْت نَصَارَى تَغْلبٍ إذ منحتها على نأيها جَدَّاء مانعة الغُبْر

قال أبو عمرو :«جدّاء : لا لبن بها ، فقال الأصمعي : هذا خطأ ؛ لأن الغُبْر : بقية اللبن ، وهي جَدَّاء ، فكيف تمنع بقية لبنها ، وإنما يجب أن تكون حَذَّاء ، وهي الخفيفة ، تسرع فيهم " [٢].

وأبو زيد الأنصاري يرى أن رواية أبي عمرو لبيت امرىء القيس :

تَأَوَّبني دَائِي القَدِيمُ فَغَلَّسَا أُحَاذِرُ أَنْ يَرْتَدَّ دائِي فأُنْكِسَا

فيه تصحيف ، والصحيح عنده «فعلَّسا» أي اشتد وبرح ؛ لأن المتأوب لا يكون مغلّسًا في حال واحدة ؛ لأن غلّس تعني أتى في آخر الليل ، وتأوب جاء في آخر النهار[٣] .

وإذا كان هؤلاء العلماء لا يجدون غضاضة في الاختلاف مع بعض أساتذتهم ، فإنه - نظرًا لاختلاف الثقافة وتنوع المشارب وتعدد المنازع - كان من الطبيعي أن يختلفوا فيما بينهم ؛ لأن كل عالم منهم يفسر الشعر بحسب ما أداه إليه علمه وتحصيله، لذلك كثرت التأويلات وتعددت الشروح ، وزاد الاهتمام بتوضيح معاني بعض

---

(١) القفطي : إنباه الرواة ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، ت : عبد العزيز أحمد ، ط : مكتبة البابي الحلبي ، الأولى ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م ، ص ٧٨ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

الأبيات ، وصار لكثير من الأبيات عدد من التفسيرات ، فعلى سبيل المثال ، نجد قول بشر بن أبي خازم :

وكَانوا كَذَاتِ القِدْرِ لَمْ تَدْرِ إِذْ غَلَتْ أَتَنْزِلُها مَذْمُومةً أَمْ تُذِيْبُها

فسره أبو عبيدة بقوله : تذيبها : تنهبها ، يقال : أذاب علينا بنو فلان إذابة شديدة ، إذا أغاروا عليهم فأخذوا أموالهم . وقال فيه ابن الأعرابي : هذه امرأة كانت تسلأ سمنًا ، فرأت ركبًا فكرهت أن تطعمهم من القدر وكرهت أن تنزلها مذمومة لم تحكمها ولم تصلحها » [١] .

وقول الفرزدق :

مَنَازِيلُ عن ظَهْرِ القَلِيْلِ كَثيرُنَا إِذَا ما دَعا في المَجْلِسِ المتردف

يقول الأصمعي : " يريد أن لنا نزلاً وإن كان قليلاً فهو خير من كثير غيرنا ، (وذكر) أبو عبيدة أنه يريد : نحن ، وإن كنا كثيرًا لنا عزٌّ ومنعة ، فننزل لذي القلة عن حقه ولا تمنعنا كثرتنا من إنصافه" [٢].

وتدل الشواهد والأمثلة التي اكتظت بها كتب الأدب واللغة على أنهم تركوا مادة ضخمة من الشروح الشعرية كانت أساسًا اعتمد عليه تلاميذهم أمثال ابن السكيت (٢٤٦هـ) ، وأبي حاتم السجستاني (٢٥٤هـ) ، والرياشي (٢٥٧هـ) ، وغيرهم ممن كان في طبقتهم الذين كانوا يتحلقون حول علماء اللغة والأدب يكتبون ما يُملى عليهم من شروح الشعر وتفاسيره . غير أن جل ما ورثوا من شروح كان يغلب عليها طابع اللغة والأخبار ؛ لأنهم أخذوا عن علماء اهتم كل منهم بناحية معينة من الشعر ، تخصص فيها وأخذ نفسه بتتبعها ، والتعمق فيها وتدريسها للطلاب ، وقد أشار الجاحظ إلى هذه النزعة التخصصية فقال : "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يحسن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا

---

(١) انظر : ابن قتيبة : كتاب المعاني الكبير ، جـ ٢ ، ص ٩٣٠ - ٩٣١ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٥٦ .

ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيّات" [١] .

وقد أسهم علماء هذه الطبقة ومن جاء بعدهم من علماء أواخر **القرن الثالث** في حركة شروح الشعر بجمع جهود السابقين وتنسيقها وتحليل بعض ما جاء فيها من أقوال وآراء ، فظهرت بعض الدواوين والمختارات الشعرية التي تحمل في طياتها عدداً من الشروح والروايات المختلفة ، المتميزة بإسناد الأقوال إلى ذويها من العلماء بكل أمانة ونزاهة ، ويعد ابن السكيت ، وأبو سعيد الحسن بن الحسين السكري (٢٧٥هـ) ، وأبو العباس ثعلب (٢٩١هـ) من أبرز العلماء الذين جمعوا بين رواية الشعر وشرحه على طريقة الأخفش ، لكننا نجد أن الاتجاه اللغوي هو السمة الظاهرة في أغلب شروحهم ، فأبو العباس ثعلب - على سبيل المثال - جمع وشرح ديوان الأعشى والنابغة الذبياني ، والنابغة الجعدي ، وزهير بن أبي سلمى[٢] ، وغيرها من الأشعار في أماليه وفي مجالسه، واعتمد فيها على أقوال وآراء النحاة واللغويين ، غير أن أغلب شروحه كانت أشبه بالمؤلفات اللغوية لكثرة ما حشد فيها من قضايا اللغة ومسائل النحو . ونسوق هذا المثال من شرحه لديوان زهير لنرى منحى الشرح عنده . قال زهير بن أبي سلمى في مطلع قصيدة هجا بها بني عُلَيم :

عَفَا مِنْ آلِ فَاطِمةَ ، الجِواءُ فَيُمنٌ فالقَوادِمُ فالحِسَاءُ

قال ثعلب : " الجِواءُ : أرضٌ ، وقال الأصمعي : الجواء من أراد به جمعًا فهو جمع جَوٍّ ، وقد يكون الجواء للواحد وللجميع ، والجِواءُ : ما انهبط ، وقال أبو عبيدة : كلما خرجت من مضيق إلى مُتَّسعٍ فهو جِواءُ . ويُمنٌ والقوادم : في بلاد غطفان ، والجِواءُ أيضًا : أن ينخرم حياءُ الناقة فيخاط ، فتلك الخياطة جواء ، والجياوة : غلاف البُرْمة ، قال أبو العباس : الناس كلهم يروون : «فيُمْنٌ» وحكى يعقوب عن بعض الأعراب «فيَمْنٌ» بالفتح" [٣] .

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ .

(٢) انظر : كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة : عبد الحليم النجار ، ط : دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨م ، جـ ١ ، ص ١٠٨ .

(٣) أبو العباس ثعلب : شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ت : حنا نصر الحتي ، ط : دار الكتاب العربي ، الأولى ، بيروت ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م ، ص ٦٩ - ٧١ .

ويتضح من هذا المثال أن ثعلب كان - في الغالب - يجمع أقوال العلماء ويضعها جنبًا إلى جنب مع بعض الاجتهادات الخاصة في تفسير الغريب وذكر الأخبار والمناسبات التاريخية المتعلقة بالشعر . ولا تختلف شروح أقرانه - من حيث طريقة الشرح - كثيراً عن شرحه ، وطريقته في الالتزام بأقوال وآراء السالفين من العلماء ، وإذا أردنا التحقق من ذلك فيمكن أن نرجع إلى بعض الشروح التي صنعها أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت ، مثل «شرح ديوان طرفة بن العبد» [١] ، و «شرح ديوان قيس بن الخطيم» [٢] . أو الرجوع إلى شروح أبي سعيد السكري ، مثل «شرح ديوان كعب بن زهير» [٣] ، و «شرح أشعار الهذليين» [٤] ، حيث نجد الاهتمام الواضح بالنواحي اللغوية والنحوية ، والعناية بالكلمات والجزئيات الصغيرة ، وقلة العناية بالمعنى العام للبيت المشروح ، والحرص الشديد على توثيق النقول ، وهذا هو الطابع السائد على شروح الشعر حتى نهاية القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع .

وفي القرن الرابع نشطت الحركة العلمية والثقافية في مختلف المجالات ، وانتشرت الحلقات التعليمية لشروح الشعر ومناقشة مسائله ، فكان على من يتصدى للشرح أن يستوعب هذه الثقافات ويفيد منها في شرح الشعر وتوضيحه لطلاب المعرفة، فحدث تطور في حركة الشروح الشعرية يتمثل في عناية الشراح بالنواحي الأدبية والنقدية والبلاغية في أثناء تحليلاتهم لمحتوى النص الشعري ، الأمر الذي جعل بلاشير يعد الظهور الحقيقي للشروح الشعرية إنما كان في مطلع القرن الرابع الهجري [٥] ؛ لأن الشروح في هذه الفترة لم تقف عند التفسير اللغوي والإعراب النحوي فحسب، بل تجاوزته إلى عرض الروايات المختلفة ، وشرح المعنى بصور متعددة،

---

(١) نشر بتحقيق : علي الجندي ، وطبع بمكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٨م .

(٢) حققه ناصر الدين الأسد ، ونشرته دار العروبة بالقاهرة سنة ١٩٦٢م .

(٣) نشرته الدار القومية بالقاهرة سنة ١٩٥٠م .

(٤) حققه عبد الستار أحمد فرّاج ، ونشرته مكتبة دار العروبة بالقاهرة .

(٥) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة : إبراهيم الكيلاني ، ط : دار الفكر ، دمشق ، ١٩٥٦م ، جـ ١ ، ص ١٢٣ .

واهتمت بتوضيح بعض الصور الشعرية ، مع بعض الإشارات النقدية ، والموازنات والمقارنات ، هذا بالإضافة إلى الطريقة المنهجية التي سلكها بعض الشراح في ترتيب القصائد المشروحة على حروف المعجم ، كما فعل الصولي فيما جمع من دواوين الشعراء .

أما الظاهرة البارزة التي أسهمت في تطور حركة الشروح في هذا القرن فقد دفعت إليها الخصومة النقدية حول الشعر الجديد ، حيث ظهرتْ عناية بعض الشراح بالشعر المحدث ، بأن جمعوا دواوينهم وتناولوها بالدرس والتحليل ، وحاولوا توضيحها للناس بشرح غامضها وفك بعض رموزها المستغلقة ، وقد اقتضى ذلك التعمق في مذاهب الشعراء المحدثين وفهم طرائقهم ووسائلهم في التعبير ، ومقارنتها بما عند الشعراء القدماء ؛ لاكتشاف مواطن التجديد والتقليد فيما أتوا به من معان وصور شعرية ، وإذا كان كثير من دواوين الشعراء المحدثين قد نال عناية الشراح ، فإن ديوان أبي تمام ، وديوان أبي الطيب المتنبي كانا أبرز الدواوين الشعرية حظوة ، وأكثرها عناية من قبل القدماء ، وقد أربت شروحهم على «ديوان المتنبي» على ستين شرحًا[١] ، افتتحها أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ) بكتابة «الفِسْر» [٢] ، ثم توالت بعد ذلك الشروح «حتى لم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام شُرِح هكذا مثل هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا تداول على ألسنة الأدباء في نظم أو نثر أكثر من شعر المتنبي» [٣] . أما ديوان أبي تمام ، فيعد أبو بكر الصولي (٣٣٥هـ) أول من جمعه وشرحه ، ويعتبر شرحه الحلقة الأولى في سلسلة الشروح الكثيرة التي أتت بعده ، كما سيتضح من خلال الثبت الذي سنقدمه في المبحث التالي . والحق أن اهتمام الشراح بشعر هذين الشاعرين يرتد إلى أسباب عدة أبرزها كما يذكر أبو البركات ابن المستوفي (٦٣٧هـ) ، في مقدمة كتابه «النظام في شرح شعر

---

(١) انظر : كوركيس وميخائيل عواد : رائد الدراسة عن المتنبي ، ط : دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٧٩ ، ص ٨١ .

(٢) يعنى بتحقيقه : صفاء خلوصي ، نشر الجزء الأول في مطبعة : دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٠م، والثاني في مطبعة الشعب ، سنة ١٩٧٨م .

(٣) يوسف البديعي : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ، ت : مصطفى السقا وآخرون ، ط : دار المعارف ، الثالثة ، ١٩٩٤م ، ص ٢٦٩ .

المتنبي وأبي تمام» استغلاق معانيهما واستبهام تراكيبهما ، وميلهما عن الطبع إلى التكلف وعدولهما عن العفو إلى المستكره [١] ، فهما مولعان بالمعاني الدقيقة والحكم اللطيفة الغامضة ، وقد نسب إلى المتنبي أنه قال : «أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري» [٢]، وفيه إشارة إلى امتزاج الدلالات العميقة في شعرهما بالفلسفة والحكمة ، حتى صار كثير من الأبيات لا يفهم من أول وهلة ، وإنما يتطلب فكراً ومعرفة واسعة كي يستخرج معناه ، ويكشف عن مكنونه ، وكان بعضها متعدد الدلالات بحيث لا يمكن القطع فيه بدلالة واحدة ، فاختلف الشراح في فهم مثل هذا النوع من الشعر وفي تقويمه ، وذهبوا فيه مذاهب مختلفة ، واشتدت خصومتهم حوله ، فتعاقبت فيه التآليف والشروح .

هذه نظرة موجزة عن حركة تطور شروح الشعر في التراث العربي تتبعناها حتى بداية ظهور النواة الأولى لشروح ديوان أبي تمام ، حاولنا أن نعرض فيها لأهم المنعطفات والتحولات التاريخية في مسيرة شرح الشعر وتفسيره ، حتى استقر على هيئته التي قدمها الصولي في شرحه لديوان الطائي ، ولا ريب أن حركة شرح الشعر لم تتوقف عند مرحلة محددة ، بل نراها تتطور مع تقدم الزمان ورقي الثقافة ، حتى اكتملت فيها صورة الشرح الأدبي الناضج ، الذي كان لشراح ديوان أبي تمام إسهام كبير فيه .

---

(١) انظر : أبو البركات المبارك بن أحمد بن المستوفي : النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام ، ت : خلف رشيد نعمان ،
ط : دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٩م ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

(٢) انظر : ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ت : محي الدين عبد الحميد ،
ط : المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، حـ٢ ، ص ٣٤٨ .

شروح ديوان أبي تمام :

لا يعد ما وصل إلينا من شعر أبي تمام ديواناً كبير الحجم مقارنة بدواوين غيره من الشعراء أمثال أبي نواس والبحتري وابن الرومي وغيرهم ، مع أنه كان من الشعراء المكثرين ، وأن شعره كان مدوناً ومتداولاً على نطاق واسع ومعروف بين العلماء والأدباء ، بل إن بعضه كان منقولاً عن قراطيس قد كتبها أبو تمام بخط يده على ما ذكر أبو علي القالي [١] . وهذا يدعو إلى الظّن في أن ديوانه المتداول بين الناس ناقص عن الأصل ، ولا يمثل كل ما قاله أبو تمام من شعر ، وأن جزءاً منه قد فُقد لسبب أو لآخر ، ويقوي هذا ما نجده في كتاب « طبقات الشعراء » لعبد الله بن المعتز من رواية تقول : " إن لأبي تمام ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة جيدة " [٢] أي ما مجموعه أربعمائة وألف قصيدة ومقطوعة ، بينما الموجود في ديوانه المطبوع وكذلك الشروح لا يصل إلى خمسمائة قصيدة ومقطوعة ، كما أن كثرة ما ورد له من الأبيات والمقاطع المختلفة ، المنثورة في المصنفات القديمة التي أُلّفت قريباً من سنة وفاته لتدل على غزارة شعره وكثرته في جميع الأغراض ، وعلى سبيل المثال نجد أبا بكر الأصفهاني في كتاب « الزَّهرة » [٣] – وهو كتاب في الحُبّ والغزل – يستشهد بأكثر من خمس وثلاثين ومائة مقطوعة من شعره في هذا الباب خاصة ، وإذا كان الطائي قد تناول هذه الأغراض التي هي أدنى فنونه مرتبة وأقلها حظاً بهذه الكثرة والسعة فما بالنا بما جادت به قريحته في الأغراض الأخرى التي أوقف أبو تمام معظم شعره عليها وسخر جلّ شاعريته وعبقريته لها ؛ إذ لا بد أنه ترك تراثاً شعرياً ضخماً يتناسب مع مكانة وشهرة الطائي الكبير ، ولعل ما ذكر من اختلاف الناس في شعره ، واضطراب روايتهم فيه ، وكثرة ما دار حول مذهبه من خصومات نقدية ، وشدة حسد الشعراء له ، . . . كانت من أظهر الأسباب التي شاركت في ضياع بعض شعر أبي تمام ، ولا يزال الأمل معقوداً في أن يستدل على بعض ما ضاع من شعره مع جملة ما يهتدى إليه من التراث العربي المفقود .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٣٩ .

(٢) عبد الله بن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٢٨٦ .

(٣) انظر : محمد بن داود الأصبهاني : الزهرة ، ت : إبراهيم السامرائي ونوري القيسي ، ط : مكتبة المنار ، الثانية ، الأردن ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م .

لقد كانت الإشارات والدلائل واضحة وصريحة بأن شعر الطائي كان مدوناً - في غير ترتيب - في عصر قريب من سنة وفاته ، كسائر دواوين الشعراء العباسيين ، ولا سيما المشهورين منهم ، أمثال بشار ، ومسلم ، وأبي نواس وغيرهم [١] ، يقول أحمد بن طاهر [٢] : " دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى . . . ، فإذا بحزمتين واحدة عن يمينه وواحدة عن شماله ، وهو منهمك ينظر فيهما ويميزهما من دون سائر الكتب . . . فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد صريع الغواني وعن يساره شعر أبي نواس " [٣] .

وشبيه بهذا ما ذكره الصولي في مقدمته لديوان أبي نواس من أن يوسف بن الرقاق قال : " كنا مع أبي تمام وبين يديه أشعار المحدثين يختار منها ، فلما بلغ إلى شعر ابن أبي عيينة قال : وهذا مختار كلُّه " [٤] ، ومن المعلوم أن ابن أبي عيينة كان من المعاصرين لأبي تمام ، وقد جمع العلماء والكتاب شعره مع أنه لم يبلغ شأو أبي تمام أو يقترب من منزلته ، لذلك لم يكن ليفتهم أن يجمعوا شعر الطائي ويقرأوه عليه ، ويتعرفوا على مقاصده ومعانيه . فأبو مالك عون بن محمد الكندي كتب كثيراً من شعر الطائي ، وقرأ عليه عشرين قصيدة منه ورواه عنه " [٥] ، ويذكر ابن الفرضي أن عثمان ابن المثنى القرطبي المتوفى سنة ٢٧٣هـ " رحل إلى المشرق وقرأ على حبيب بن أوس ديوان شعره ، وأدخله الأندلس رواية عنه " [٦] ، كذلك جاء في وصف نسخة الديوان التي كان يمتلكها أبو القاسم إبراهيم بن الإفليلي أنها منقولة من القراطيس التي اجتلبها أبو علي بن القاسم القالي ، وذكر أبو علي أنها بخط يد أبي تمام ، وقد قرأها

---

(١) انظر : عبد الله بن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٤٨ .

(٢) هو أحمد بن أبي طاهر طيفور ، كان أحد البلغاء الشعراء الرواة ، ومن أهل الفهم المذكورين بالعلم ، ذكر له ابن النديم خمسين مصنفاً أكثرها في الأدب والتاريخ والأخبار والنقد ، عاصر أبا تمام ونقل عنه أخباراً كثيرة ، توفي سنة ٢٨٠هـ . انظر : معجم الأدباء ، جـ ٣ ، من ٨٧ - ٩٨، والفهرست ، ص ٢١٥ .

(٣) عبد الله بن المعتز : طبقات الشعراء ، ص ٢٨٤ .

(٤) أبو نواس : الديوان ، برواية الصولي ، ت : بهجت عبد الغفور الحديثي ، ط : دار الرسالة للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٠م ، ص ٥٧ .

(٥) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٣١ .

(٦) ابن الفرضي محمد بن يوسف الأزدي : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، ط : القاهرة ، ١٣٧٣ - ١٩٥٤ ، جـ ١ ، ص ٣٤٦ .

القالي على أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه ، وأقرأه ذلك رواية عن علي بن مهدي الكسروي عن أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، ويوجد على رأس معظم قصائد هذه النسخة ، عبارة " صحت من خطه " أي خط أبي تمام ، أو " صحت من خط القرطاس " ، وليس لهذه النسخة ترتيب متبع على الحروف ، ولا على أبواب الشعر المعروفة [١] .

ومن النصوص التي تشير - أيضاً - إلى أن شعر الطائي كان مجموعاً في عصره أو بعد وفاته بسنين قلائل - حيث إنّ آثار الشاعر لا تتم عادة إلا بتمام حياته - ما روي من أن عبيد الله بن طاهر قال : " جاءني فضل اليزيدي (ت ٢٧٨ هـ) بشعر أبي تمام فجعل يقرأه عليّ ويعجّبني ممن جهل مقداره . . . " [٢] . . . إلى غير ذلك مما تحويه المصادر من النصوص والإشارات التي تدل على عناية أكثر من عالم وأديب بجمع شعره بطرق مختلفة ، أفضت إلى تعدد نسخ ديوانه وتفاوت أحجامها واختلاف رواياتها [٣] .

وفي مطلع القرن الرابع الهجري ظهرت -لأول مرة -طريقة ترتيب الدواوين على الحروف والقوافي على يد أبي بكر الصولي [٤] ، إذ يذكر ابن النديم في كلامه على أبي تمام ، " ولم يزل شعره غير مؤلف يكون مائتي ورقة إلى أيام الصولي ، فإنه عمله على الحروف في نحو ثلاثمائة ورقة ، ورتبه علي بن حمزة الأصفهاني على أغراض الشعر " [٥] ثم توالت بعد ذلك جهود العلماء والكتاب في جمع شعره وترتيبه حتى فاقت نسخ الديوان - فيما وصل إلينا - ثلاثين نسخة خطية ، كانت معتمد النقاد والباحثين فيما قدموه من دراسات وأبحاث وما أطلقوه من أحكام نقدية وتقويمية على شعر أبي تمام .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٠١ .

(٣) انظر : الصولي : أخبار البحتري ، ت : صالح الأشتر ، ط : دار الفكر ، دمشق ، ١٣٨٤هـ - ١٩٩٤م ، ، ص ٥٩ - ٦٠ .
وانظر : الآمدي : الموازنة بين الطائيين ، جـ ١ ، ص ٢١٦ .

(٤) فات د : عزة حسن أن الصولي (٢٥٥ - ٣٣٥هـ) قد رتب عدداً من الدووين على حروف المعجم ، عندما زعم أن ترتيب الدواوين على حروف المعجم لم يظهر إلا في القرن السادس الهجري .
انظر : ديوان بشر بن أبي خازم ، مقدمة المحقق ، ص ٣٧ .

(٥) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٦٥ .

ومن أهم نسخ الديوان المخطوطة :

نسخة الأسكوريال: الفهرس الثاني : ٢٩٠ - ٢٩١ ، بترتيب الصولي ، ومع زيادات لأبي علي القالي ، في ٤١٥ .

نسخة شيخ الإسلام: بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، (تذكرة النوادر للندوي ص ١٢٤) .

نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة: (فهرس الخديوية جـ ٤ ، ص ٢٣٧) (وفهرس دار الكتب جـ ٣ ، ص ١١٣) .

نسخة مدرسة يحيى باشا بالموصل: (مخطوطات الموصل ، ص ٢٢٨ ،الرقم٤).

نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق: ٣٣٦٣ (الشعر ٣١٢) .

نسخة المتحف البريطاني: (الفهرس الأول ، ص ٥٨١ - ٥٨٢) .

نسخة المكتبة الوطنية بباريس: برقم : ٣٠٨٥ .

نسخة أيا صوفيا باستانبول: تحت رقم : ٣٨٧٣ .

وللديوان طبعات كثيرة ، يحتوي بعضها على شروح مختصرة ، أو تفسيرات لبعض الكلمات ، قيدها المحققون في الهوامش ، ومن أهم طبعاته :

طبعة المطبعة الوهبية: القاهرة ١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م ، وفي هامشها شروح مختصرة ، وهي خالية من كثير من أشعار أبي تمام الموجودة في كتب الأدب .

طبعة المطبعة الأدبية: ضبطها وشرح بعض ألفاظها الأديب : شاهين عطية ، بيروت ، نشرت سنة ١٨٨٩م ، في حدود ٤٦٣ صفحة .

طبعة محمد جمال: فسر ألفاظها محيي الدين الخياط ، بيروت ، ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م ، في ٥١٦ صفحة ، وقد صنع المستشرق مرجليوث فهرساً لهذه الطبعة نشر في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن ، ١٩٠٥م ، ص ٧٦٣ - ٧٨٢ . ونشره اليازجي في مجلة المشرق ، عدد : ٨ ، ١٩٠٥م ، ص ١٠٥٨ - ١٠٥٩ .

طبعة مكتبة محمد علي صبيح: ، بتقديم عبد الحميد يونس ، القاهرة ، ١٩٤٢م .

حظي شعر أبي تمام بحفاوة كبيرة عبر العصور المختلفة ، فذاعت شهرته وانتشر صيته في أوساط ثقافية متعددة ، وتهافت متذوقو الشعر عليه ، وحاول كثير من العلماء والأدباء روايته وشرحه ، ومن لم يفعل منهم فليس أقل من أن يكثر من الاستشهاد بأبياته والتمثل بها في مؤلفاته ، حتى أصبحت كثير من المصنفات على اختلاف تخصصاتها الأدبية تزخر بكثير من أشعاره المشروحة ، ويمكن تقسيم شعره المشروح بحكم طرق التناول التي سلكها الشراح والأدباء والنقاد فيه ، إلى ثلاثة أصناف :

الأول : مجموع القصائد التي يضمها الديوان: وهي تمثل كامل الديوان ، وقد تناوله فئة من الشراح مرتبين أشعاره إما على أنواع الشعر وحروف المعجم كما سيأتي في كتابي الصولي والتبريزي ، وإما على قوافي الشعر من غير نظر إلى أغراضه ، كما سنلاحظه عند ابن المستوفي في كتاب « النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام » .

الثاني : الأبيات الغريبة والمشكلة المعاني من شعره: التي وضع لها شروح في مؤلفات خاصة بها ، بحيث يختار الشارح الأبيات الغامضة – غالباً – من كل قصيدة ، ثم يتصدى لها بالشرح والتحليل ، غير أنه من الأسف أن جميع ما ألف في هذا النوع من شعر الطائي مفقود ، ما عدا كتاب « شرح مشكلات أبي تمام » لأبي علي المرزوقي وما وجد من نقول في مؤلفات التبريزي وابن المستوفي عن كتاب « ذكرى حبيب » لأبي العلاء ا لمعري ، وكتاب أبي حامد الخارزنجي ، وسيأتي الحديث عن هذه الشروح في القسم الخاص بها .

الثالث : الأبيات المبثوثة في كتب النقد والأدب: التي استشهد بها المؤلفون في مصنفاتهم وتناولوا بعضها بالشرح من أجل نقدها وتقويمها أو مقارنتها بما يماثلها من أشعار الآخرين ، وهذا الصنف مهما بلغت كثرته في بعض المؤلفات ، فإنه لا يصح ضمه إلى شروح الديوان ، وإنما يستعان به في مقابلة بعض الشروح والأقوال الصادرة حول بعض الأبيات ؛ لأن غاية أصحاب هذه الشواهد تختلف عن غاية الشراح ووسائلهم في تحليل الشعر ، لذلك لا نعد كتاب « الموازنة بين الطائيين » لأبي القاسم

الحسن بن بشر الآمدي من شروح شعر أبي تمام الخاصة ، وإنما هو مؤلف في النقد التطبيقي ، يتوسل صاحبه بالتحليل الأدبي ليصل إلى أهداف نقدية بحتة . وللآمدي في شرح شعر أبي تمام جهد آخر في كتاب لم يصل إلينا عنوانه « تفسير معاني أبيات أبي تمام المفردة » أشار إليه في كتابه السابق [١] ، وذكره - أيضاً - ابن المستوفي في شرحه [٢] .

سبقت الإشارة إلى العناية المتميزة التي حظي بها شعر الطائي من قبل العلماء والأدباء وإلى المنزلة الكبيرة التي كان يحتلها في نفوسهم ، دل على ذلك أننا لا نجد ديوان شاعر قديم أو محدث ، - عدا المتنبي - توفر الشراح عليه مثلما توفروا على شرح ديوان أبي تمام ، وسيظهر ذلك جلياً من خلال الثبت الذي سنورد فيه ما ذكرته المصادر وكتب التراجم من شروح شعره ، وهي كما يلي :

شرح ديوان أبي تمام : لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ، وقد أجمعت الكتب والمصادر على أنه أول شرح على ديوان أبي تمام ، فلم يسبقه غيره، يقع في ثلاثة أجزاء ، نسخته الأصلية محفوظة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة تحت رقم : (٧٧ أدب) [٣] .

شرح مختصر في شعر أبي تمام : لأبي حامد أحمد بن محمد الخارزنجي المتوفى سنة ٣٤٨ هـ ، وهو شرح مختصر اقتصر فيه الخارزنجي على شرح المعنى وذكر الروايات في بعض الأبيات ، ولا يزال هذا الشرح مفقوداً ، وقد نقل التبريزي وابن المستوفي منه نقولاً لا بأس بها [٤] .

شرح شعر أبي تمام : لأبي العباس وليد الطبيخي المتوفى سنة ٣٥٢هـ ، ذكره

---

(١) انظر : الآمدي : الموازنة بين الطائيين ، جـ ٣ ، ص ٣٩٩ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ٥٣٧ ، جـ ٢ ، ق ١٨٧.

(٣) حققه خلف رشيد نعمان ، ونشرته وزارة الإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٧٨م .
انظر : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، ترجمة : عرفة مصطفى ،
ط : إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، جـ٤ ، ص ١٢٧ .

(٤) انظر : التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٤ .
وانظر : ابن المستوفي : النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ .

الزبيدي في طبقاته ، قال : " وله شرح في شعر أبي تمام قريب ومبسوط " ، وهو مفقود[١].

تفسير شعر أبي تمام : لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفى سنة ٣٧٠هـ ، ذكر ياقوت : أنه لم يتم ، وهو مفقود [٢] .

تفسير معاني أبيات أبي تمام المفردة : لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي المتوفى سنة ٣٧١هـ ، ورد ذكره في كتاب « الموازنة » وذكره ابن المستوفي في كتاب النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام ، وقد ضاع [٣] .

شرح شعر أبي تمام : لحسين بن محمد الرافقي المعروف بالخالع المتوفى سنة ٣٨٨هـ ، تناول بالشرح ديوان أبي تمام بشكل كامل ، وهو من الشروح الضائعة[٤].

شرح مشكلات ديوان أبي تمام : لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي المتوفى سنة ٤٢١هـ ، ذكره أبو علي المرزوقي في موضعين من كتاب « الانتصار من ظلمة أبي تمام » باسم « تفسير المشكلات » ، وكان هذا الكتاب أحد المصادر التي اعتمد عليها بعض شراح شعر أبي تمام ، وفي مقدمتهم التبريزي وابن المستوفي ، حققه عبد الله الجربوع ، ثم حققه خلف رشيد نعمان تحت عنوان « شرح مشكل أبيات

---

(١) انظر : أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : دار السعادة ، مصر ، ١٩٥٤م ، ص ٣٢٨ .
وانظر : ابن الفرضي محمد بن يوسف الأزدي : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، جـ ٢ ، ص١٥٩.

(٢) انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جـ ١٧ ، ص ١٦٥
و : حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص ٧٧١ .
ط : المكتبة الإسلامية ، طهران ، ١٣٨٧هـ .
و : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ ٤ ، ص ١٢٦ .

(٣) انظر : الآمدي : الموازنة بين الطائيين ، جـ ٣ ، ص ٣٩٩ .
و : ابن المستوفي : النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام ، جـ ١ ، ق ٥٣٧ .
و : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ ٤ ، ص ١٢٥ .

(٤) انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٠ ، ص ١٥٥.
و : حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص ٧٧١
و : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ ٤ ، ص ١٢٦ .

أبي تمام المفردة » في ١٤٠٧هـ [١] .

الانتصار من ظلمة أبي تمام: لأبي علي المرزوقي ، وهو شرح لبعض الأبيات المشكلة من شعر أبي تمام ، وثمة نقول منه في شرحي ابن المستوفي والتبريزي ، ولم يعثر على هذا الكتاب حتى اليوم ، وما ذكره بروكلمان من أن الكتاب محفوظ في مخطوط برلين رقم (٧٥٣٩) خطأ مرده إلى ملاحظة لالورد على برلين ٥/٧٥٣٧ [٢] .

شرح شعر أبي تمام : لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي المتوفى سنة ٤٤٠هـ ، ذكره ياقوت في إرشاد الأريب ، وقد ضاع [٣] .

ذكرى حبيب : لأبي العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩هـ ، قال عنه ياقوت : هو مختصر في غريب شعر أبي تمام ، عوّل عليه التبريزي في شرحه لديوان أبي تمام ، ونقل عنه ابن المستوفي في كتابه ، وهذا الشرح مفقود [٤] .

شرح ديوان أبي تمام : لأبي الحجاج يوسف بن سليمان الملقب بالأعلم الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦هـ ، روى القاضي عياض هذا الشرح عن أبي الحسن علي ابن الأخضر الإشبيلي تلميذ الأعلم وذكره من مروياته عنه في فهرسته المعروفة بالغنية ، ونرجح أن هذا الشرح هو النسخة التي رواها وعلق عليها أبو علي القالي وأكملها من شرح الصولي تلميذه ابن الإفليلي ، ولا يزال هذا الشرح مفقوداً [٥] .

شرح ديوان أبي تمام : لأبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي المتوفى سنة

---

(١) انظر : بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، جـ ٢ ، ص ٧٦ .
وانظر : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ ٤ ، ص ١٢٨ .

(٢) انظر : بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، جـ ٢ ، ص ٧٤ .
و : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، الشعر ، المجلد الثاني ، جـ ٤ ، ص ١٢٥ .

(٣) انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جـ ١٧ ، ص ١٨٥
و : حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص ٧٧١ .
و : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ ٤ ، ص ١٢٦ .

(٤) انظر : ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ٣ ، ص ١٦٥
و : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ ٤ ، ص ١٢٦ .

(٥) انظر : جلال الدين السيوطي : بغية الوعاة ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٤ - ١٩٦٥ ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ .

٥٠٢هـ ، نقل فيه كثيراً من الشروح السابقة ، وبخاصة شروح المعري والصولي والمرزوقي [١] .

شرح شعر أبي تمام : لأبي الحسن علي بن زيد البيهقي المتوفى سنة ٥٦٥هـ، في كتاب يضم معه شرح شعر البحتري ، وكان هذا الكتاب موجوداً في حدود القرن السابع الهجري في إحدى خزائن الكتب بحلب ، وقد ذكره ياقوت في معجمه [٢] .

النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام : لأبي البركات المبارك بن أحمد الإربلي ، المعروف بابن المستوفي ، المتوفى سنة ٦٣٧هـ ، كان أصله في عشرة مجلدات، نقل فيه كثيراً عن كتب : أبي العلاء المعري ، والمرزوقي ، والصولي ، والخارزنجي ، والتبريزي ، وغيرهم ، ويقع مخطوط الكتاب في ثلاثة أقسام ، وجد منها الأول والثاني ، أما الثالث فلا يزال مفقوداً " [٣] .

وفي العصر الحديث : عني الكثيرون بشعر أبي تمام فوضعوا عليه بعض التفسيرات والشروح المبسطة ، ومن أشهرها « بدرالتمام في شرح ديوان أبي تمام » : لملحم إبراهيم الأسود ، ولم يصدر منه إلا جزء واحد ، يحتوي على مقدمة ترجم فيها المؤلف لحياة أبي تمام وأخباره ، يليها شرح لباب المديح من شعر الطائي ، وقد اعتمد الأسود في شرحه على أعمال الشراح القدامى ، ولم يأت بجديد يضاف إلى أعمالهم ، يقول : " إني قد اعتمدت في شرح هذا الديوان على شرح الصولي لشعر أبي تمام ، وهو أعظم الثقات فيه . . . وعلى شرح أبي العلاء المعري الموسوم بـ « ذكرى حبيب » ثم على شروح عدة وانتقادات مسهبة ، ومَنْ حكم له وعليه أمثال : المرزوقي ، والخارزنجي ، والتبريزي ، والمبارك بن أحمد ، والآمدي ، وغيرهم " [٤] .

وترجع أهمية دراسة هذه الشروح إلى أهمية التعرف على أساليب القدماء في التعامل

---

(١) حققه محمد عبده عزام في أربعة مجلدات ، ونشرته دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٤م .

(٢) انظر : ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٣ ، ص ٢٢٨ .
و : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ ٤ ، ص ١٢٧ .

(٣) انظر : حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص ٧٧١ .
و : بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، جـ ٢ ، ص ٧٦ .
و : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، جـ ٤ ، ص ١٢٩ .

(٤) ملحم إبراهيم الأسود : بدر التمام في شرح ديوان أبي تمام ،
ط : قوزما ، بيروت ، ١٣٤٧ - ١٩٢٨ ، جـ ١ ، ص ١٩ - ٢٠ .

مع شعر أبي تمام ، الذي كان - عبر أزمنة مديدة - مضماراً لاشتباك الأقوال وتنازع الخصوم ، وإلى التعرف على محاولاتهم واجتهاداتهم الخاصة في ما قدموه من تحليلات وإضاءات تنير النص وتساعد على فهم معناه . وإن إمعان النظر في مواد هذه المصنفات وما تحتويه من مناهج ومفاهيم أدبية ونقدية ، يفصح عن أن بينها من التباين ما له - في كثير من الأحيان - بالغ الأثر في تحديد رواية الشعر ، وشرح المعنى ، والاقتراب من مراد الشاعر . فبالمقارنة يمكن كشف كثير مما لحق شعر الطائي من تصحيف أو تحريف ، ومعرفة مصدر التبديل وبعض أسبابه أحياناً ، يقول الصاحب : "سمعت الأستاذ الرئيس (يعني الشريف الرضي) ينشد أبيات أبي تمام التي أولها :

أمّا وَقَدْ أَلْحَقَتْنِي بالمَوْكِبِ وَمَدَدْتَ مِنْ ضَبْعِي إِلَيْكَ ومَنْكِبِي

وينشد :

أَبْرَزْتَ لي عَنْ صَفْحَةِ المَاءِ الذي قَدْ كُنْتُ أَعهدُهُ كَثِيرَ الطُّحْلُبِ

فقلت : زين سيدنا هذا الشعر بإقامة « الصفحة » مقام « الجلدة » فقال : كذا يلزم لمثل أبي تمام إذا أمكن إصلاح بيت وتهذيب قصيدة بكلمة " (١) .

واختلاف الروايات يجعل الشروح تختلف وتتعدد ، فتكون مقابلة الشروح فرصة سانحة لمحاولة الاختيار والترجيح ، من أجل اعتماد الصحيح وإغفال ما قد يعتسفه بعض الشراح من الروايات والتأويلات ، التي ربما أن بعضها لم يخطر ببال الشاعر ، كالذي قيل في بيت الطائي :

وعاودَها جَرَبٌ لَمْ يَزَلْ يُعَاوِدُ أَسعَافَها بالهِنَاءِ

حيث ورد فيه : « أسعافها » : بفتح الهمزة جمع سعفة ، والسَّعف : داء يصيب البعير في رأسه فيتمعط منه وبره ، وقال الجوهري : « السعف » : داء يأخذ أفواه الإبل بالجرب ، فيتمعط منه خرطومها وشعر عينيها ، وهي رواية التبريزي .

ويروى : « إسعافها » بكسر الهمزة والسين المهملة ، مصدر من أسعفت فلاناً بحاجته إذا قضيتها له . وهي رواية المعري .

ويروى : « أشعلها » : يقال أشعل إبله بالقطران إذا طلاها به .

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام ، جـ ٣ ، ص ٥٣ .
وانظر : التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٦١ .

ويروى : « أشعرها » : والأشعر ما أحاط بالحافر ، والهناء القطران أي يداوي به جرب الأشعر .

ويروى : أشعافها » : أي أعاليها ، جمع شَعَف ، والشُّعُف جمع شُعفة ، وهي أعلى الجبل ، وهي رواية الصولي وابن المستوفي (١) .

وقد يكون لهذا البيت روايات أخرى ، لم تصل إلينا ، تنعطف بالمعنى إلى غير هذه المعاني التي ذكرها الشراح ، بينما رواية البيت في أصل حقيقتها ليست إلا على وجه واحد ، هو الذي رواه أبو تمام .

كذلك حتى لو لم تتعدد الروايات فإن فهمهم للمعنى قد يأتي متبايناً ومختلفاً ، بسبب المعاني العميقة والمواضع المشكلة التي يعسر فهمها على من لا يستأنس بطريقة الطائي ومذهبه ، لذا نجد الشراح وبعض العالمين بالشعر القديم والخبراء به يقفون أمام بعض أبياته موقف الحائر ، ولقد حدّث علي بن سليمان الأخفش فقال : " كنت يوماً بحضرة ثعلب فأسرعت القيام قبل انقضاء المجلس فقال : إلى أين ؟ ما أراك تصبر عن مجلس الخلدي – يعني المبرد – فقلت له : لي حاجة ، فقال لي : إني أراه يقدم البحتري على أبي تمام فإذا أتيته فقل له ما معنى قول أبي تمام :

أَآلِفَةَ النَّحيبِ كَم افْتِراقٍ ... أَظَلَّ فَكَانَ دَاعِيَةَ اجْتِماعِ

قال أبو الحسن : فلما صرت إلى أبي العباس المبرد سألته عنه ، فقال : معنى هذا أن المتحابين العاشقين قد يتصارمان ويتهاجران إدلالاً لا عزماً على القطيعة ، فإذا حان الرحيل وأحسّا بالفراق تراجعا إلى الود وتلاقيا خوف الفراق وأن يطول العهد بالالتقاء بعده فيكون الفراق حينئذٍ سبباً للاجتماع . . . قال : فلما عدت إلى ثعلب سألني عنه فأعدت عليه الجواب والأبيات فقال : ما أشد تمويهه ، ما صنع شيئاً إنما معنى البيت : أن الإنسان قد يفارق محبوبه رجاء أن يغنم في سفره فيعود إلى محبوبه مستغنياً عن التصرف فيطول اجتماعه . . . " (٢) .

كذلك كان حال الشراح من حيث التنافس في تحليل شعره واستنباط معانيه

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٣٠٠ .
وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٣٤ – ٣٥ .
وانظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٤٢ .

(٢) انظر : ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ٥ ، ص ١٣٢ – ١٣٤ .

والوقوف على الظواهر الأسلوبية والدلالات الجديدة التي استحدثها الطائي في شعره ، فتعددت الشروح والأقوال وتضاربت بعض الآراء ، لذلك فإن البحث سيقوم بدراسة استقرائية تحليلية لما في هذه الشروح من مواد ومناهج ومفاهيم أدبية ونقدية ، محاولاً - ما أمكن - تقويم بعض النماذج فيها ومقارنتها بغيرها مقارنة تأمل أن تكشف عن مدى إسهام كل شرح - وكذلك الشروح مجتمعة - في خدمة ديوان هذا الشاعر الخالد الذي كان علامة بارزة من علامات الشعر في تاريخ الأمة العربية .

وسيدور البحث - إن شاء الله تعالى - حول ما وصل إلينا ، وصحت نسبته من شروح شعر أبي تمام ، في الفترة : من أوائل القرن الرابع حتى منتصف القرن السابع الهجري ، وهي بالتحديد ستة شروح تندرج تحت الصنفين الأول والثاني من تقسيمنا - السابق - لشروح شعر الطائي .

ويشمل الصنف الأول: الشروح الكاملة للديوان: وهي شروح كل من : أبي بكر الصولي ، وأبي زكريا التبريزي ، والمبارك بن أحمد المعروف بابن المستوفي .

ويتضمن الصنف الثاني، الشروح الخاصة: التي تناولت أبياتاً مخصوصة من الديوان ، ويضم مؤلفات : أبي العلاء المعري ، وأبي علي المرزوقي ، وأبي حامد الخارزنجي .

القسم الأول

الشروح الكاملة

الفصل الأول : شرح الصولي

الفصل الثاني : شرح التبريزي

الفصل الثالث : شرح ابن المستوفي

الفصل الأول

شرح الصولي

تقديم :

أول من تصدى لشرح ديوان أبي تمام ، هو أبو بكر محمد بن يحيى ابن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين المعروف بالصولي[١] . ولم تذكر المصادر القديمة - التي طالعناها - تاريخ مولده ، إلاّ أن هناك نصًا مكتوبًا في هامش الصفحة الأخيرة من ديوان إبراهيم بن العباس الصولي يشير إلى أن ولادته كانت سنة ٢٤٣ هـ[٢] ، بينما يذكر السيد محسن العاملي أنه ولد في حدود سنة ٢٥٥هـ [٣]. والأمر الذي تجدر معرفته أنه ولد في عصر يتسم بالثقافة الموسوعية التي لا تركن إلى التخصص في علم من العلوم ، وتؤمن بالأخذ من كل علم بطرف ، وقد نشأ الصولي في بيت علم وأدب ، فدرس علوم القرآن والحديث وعلوم اللغة والأدب ، واهتم برواية الأشعار وجمع الأخبار ، تردّد في شبابه على حلقات العلماء ، فأخذ عن السجستاني ، والمبرد ، وثعلب ، وعون الكندي ، وكانت له مع ابن المعتز صداقة أدبية متينة ، كان من أثرها أن روى معظم ما جاء في كتاب « أخبار أبي تمام » عنه ، وقد أشتهر عنه حب اقتناء الكتب ، حيث جمع مكتبة ضخمة تزخر بمصنفات كثيرة ، تشمل معظم فروع ثقافة عصره ، وثقافة العصور السابقة ، فأسهم ذلك في أن تكون له ثقافة موسوعية متنوعة ، تحوي إلى جانب الثقافة العربية الأصيلة فيضًا غزيراً من الثقافات الأجنبية الوافدة ، وانعكس ذلك على طريقة تفكيره ، وأسلوبه ، فدعا إلى التجديد ، وناصر الشعراء المحدثين ، وجاءت بعض كتبه تنزع إلى رؤية تجديدية في بعض قضايا الشعر .

وقد ترك الصولي مجموعة كبيرة من المؤلفات في موضوعات مختلفة ، تشمل الأدب، واللغة ، والتاريخ ، وعلوم الدين ، وغيرها ، لكن اهتمامه - في المقام الأول - كان منصبًا على جمع الأشعار ، وأخبار الشعراء وبخاصة أشعار بعض المحدثين وأخبارهم، أمثال : أبي نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، وعلي بن الجهم

---

(١) انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جـ١ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .
وانظر : القفطي : إنباه الرواة على أنباء النحاة ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : دار الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٥٠م ، جـ ٣ ، ص ٢٣٣ .
وانظر : بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، جـ ٣ ، ص ٥١ .

(٢) انظر : إبراهيم بن العباس الصولي : الديوان ، مخطوط مكتبة المتحف العراقي ، ورقة : ٥٤ .

(٣) انظر : محسن العاملي : أعيان الشيعة : ت : حسن الأمين ، ط : الإنصاف ، بيروت ، ١٩٥٠م ، جـ ١٩ ، ص ١٤٧ .

والبحتري ، وابن الرومي ، وغيرهم ، كما أفرد بعض مؤلفاته في جمع مختارات من أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو الجزء الثالث من كتابه «الأوراق » الذي عنى بنشره المستشرق هيورث سنة ١٩٣٦م ، كذلك جمع مختارات شعرية لبعض المقلّين من الشعراء المحدثين ، أمثال ، أشجع السلمي ، وإبان بن عبد الحميد ، وأحمد بن سلمة، ليبرهن على أن للمحدثين قصائد جيدة تفوق أحيانًا بعض أشعار القدماء ، وليؤكد أن جودة الشعر ورداءته لا تقاس بمعيار الزمان والمكان ، وإن سبقه إلى هذا المعيار ابن قتيبة ، الذي أكد " أن الحَسَن من القول لا يضعه تأخر قائله ، وأن الرديء لا يرفعه تقدم صاحبه ..."[١] . أيضًا ، له من المؤلفات ، « أدب الكتّاب » ، و« شعراء مصر » ، و « أخبار أبي عمرو بن العلاء » ، و « أخبار جرير » ، و « كتاب الأنواع» ، و «الشامل في علوم القرآن » ، و « الأخبار المنثورة » ، و « الأمالي » ، و « النوادر » . . وغيرها.

وقد حرص الصولي في مؤلفاته على توضيح المنهج الذي سيسلكه ، وعلى بيان الغاية التي من أجلها يؤلف ، ثم يعرض ما يدور بخاطره ، ويسجل أفكاره في أسلوب مشرق وعبارات – في الغالب – غير متكلفة ، وكان منهجه في صنع الدواوين جزءًا من منهجه العام من ناحية الترتيب والتنظيم ، فابتكر طريقة جديدة ، صنف فيها الدواوين الشعرية إلى فنون ، ثم رتب الفنون على أحرف المعجم ، ثم أضاف إلى ذلك عملاً مهمًا ، يبدو في تمييز بعض المنحول من الشعر ، وبيان الروايات الصحيحة ، مما امتدت إليه يد العبث والانتحال – أحيانًا .

كان لهذه المؤلفات الكثيرة ، والأعمال الجليلة صدى واسع الانتشار ، آنذاك . فقصده الطلاب ليدرسوا عليه بعض كتبه ، وكان من أبرز تلاميذه : أبو الفرج الأصفهاني ، ومحمد بن عمران المرزباني ، والدارقطني ، وابن قرعة . ودفعت به هذه المنزلة العلمية إلى مكانة اجتماعية مرموقة في قصور الخلفاء والوزراء ، حيث دعاه بعض خلفاء بني العباس – المكتفي ، والمقتدر ، والراضي – إلى مجالسهم ، نديمًا ومعلمًا ، ومؤدبًا . وقد مات في شهر رمضان من عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة النبوية الشريفة .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، جـ ١ ، ص ٦٢ .

دوافع الشرح وأهميته:

يبدو أن الصولي عقد العزم على استحداث منهج منظم يطور به عملية جمع الشعر ، فعمد إلى بعض الدواوين الشعرية التي كانت مرتبة من قبل بحسب الأغراض، فصنف قصائدها إلى أغراض وفنون ، ثم رتبها على أحرف المعجم .

وقد أفصح عن منهجه هذا في مقدمات بعض الدواوين التي جمعها ، ففي تقديمه لديوان أبي تمام يقول : " . . . شعره وهو ثمانية [١] أصناف : مديح ، وهجاء، ومعاتبات ، وأوصاف ، وفخر ، وغزل ، ومراثٍ ، وأجلّها وأكثرها المديح . . . وأنا مبتديء بالمديح على قافية الألف ، ثم على توالي الحروف" [٢].

وتبرز أهمية هذا المنهج حين ندرك غزارة الشعر العربي ، وكثرة ما اعتراه من عبث وانتحال ، وتعدد نسخ الدواوين الشعرية ، واضطراب بعض رواياتها ، الأمر الذي سوّغ للصولي أن يفخر بمؤلفاته ، ويعتد بمنهجه وطريقته فيقول : " وليس يجب - أعزك اللّه - أن تنظر إلى اختلاف الناس في أبي تمام ، واضطراب روايتهم لشعره، فإنهم بعد إتمام هذه النسخة يجتمعون عليها ويسقطون غيرها ، كما كانوا مختلفين في شعر أبي نواس وأخباره ، ثم قد اجتمعوا عليه ، بعد فراغي منه ، حتى إن النسخة من شعره من غير ما عملته لتباع بدراهم ، وقد كانت قبل ذلك تباع بعددها دنانير ، ولعلها بعد قليل تُفقد فلا تُرى وتُسقط فلا تُراد" [٣] .

من هذا النص يتضح أن هناك نسخًا عديدة لديوان أبي تمام قبل الصولي ، وأنها كانت مختلفة وغير مرتبة ، وفي رواياتها بعض الاضطراب مما اضطر الصولي -الذي ولد بعد وفاة أبي تمام بثلاث عشرة سنة تقريبًا -إلى أن يهرع إلى أبي مالك عون بن محمد الكندي الذي عاصر أبا تمام ، فيقرأ عليه شعر أبي تمام ، ويروي عنه قصائد كان أبو مالك قرأها على أبي تمام .

---

(١) ورد في المخطوطة الأصلية «ثمانية» وفي غيرها «سبعة» والأصناف المذكورة في المقدمة سبعة ، حيث سقط ذكر «الزهد» إلا أنه في جـ٣، ص ٦٦ ورد ذكره من ضمن الأغراض ، وقد ذكر الصولي قصائد لأبي تمام في باب الزهد على حروف : الباء ، والراء ، والسين ، والعين ، والياء .

(٢) الصولي : شرح الديوان ، ت : خلف رشيد نعمان ،
ط : مطبوعات وزارة الإعلام ، الأولى ، بغداد ، ١٩٨٢م ، جـ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٥٦ .

وهو يذكر في هذا السياق : " حدثني أبو مالك عون بن محمد الكندي كاتب حجر بن أحمد . وما رأيت أعلم بشعر أبي تمام منه ، وكان قد قرأ على أبي تمام عشرين قصيدة من شعره وقرأتها عليه سنة خمس وثمانين ومائتين ..." [١] .

إن الحرص على سند الرواية يفضي إلى سلامة المتن مما كان تحري الصحة فيه هاجسًا لدى الصولي ، فكثيرًا ما كان يورد في شرحه عبارات يوثق بها شعر أبي تمام ممن عاصره وقرأ عليه فيقول – مثلاً – : " وسألت أبا مالك " أو " كذا أقرأنيها أبو مالك . . . " فيسند الرواية ، أو الشرح ، أو تفسير غريب الألفاظ إلى أبي مالك عون بن محمد الكندي راوية أبي تمام ، ويطمئن إلى روايته .

وقد رثى أبو تمام أبناء عبد الله بن طاهر فقال في بعض أبيات مرثيته :

لَوْ يَنْشَآنِ لكانَ هَذا غَارِبًا لِلْمُكْرَمَاتِ وكانَ هَذا كَاهِلاً

قال الصولي : " كذا ينشد الناس ، والذي أقرأنيه أبو مالك عون بن محمد الكندي « لو ينسآن » أي لو يؤخران ، وهذا الأجود عندي" [٢] .

والذي يجب أن ننوّه به أن قرب زمن الشارح من الشاعر واتصاله براويته يُعدّ أهم ميزة يمتاز بها شرح الصولي عن غيره من الشروح الأخرى ، إذ تحقق بقرب الزمن أكبر فائدة في فهم شعره وشرح ألفاظه ، وتحقق عن طريق الاتصال بالراوية توثيق الرواية وتمحيصها .

ولم تذكر المصادر –التي وقفنا عليها – أحدًا من المهتمين بالأدب سبق الصولي إلى شرح ديوان أبي تمام ، فبعد أن ألّف كتابه المشهور « أخبار أبي تمام» – الذي قدم له برسالة نقدية وجّهها إلى مزاحم بن فاتك –راودته الرغبة في شرح ديوان أبي تمام ، وتوضيح ما غمض من معانيه ، ليكتمل بذلك عمله في شعر أبي تمام ، وهو يخاطب في رسالته من أهدى إليه مؤلفه فيذكر :" فسألتك إبانته،

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ١ ، ص ١٦٦ .
وانظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٣١ .

(٢) الصولي : شرح الديوان ، جـ١ ، ص ٣٣٣ .
وانظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢١٧ .

وتكليفي جميع ما تريد منه ، فعرفتني أن تكميل ذلك لك وبلوغي فيه أقصى إرادتك اتباعي أخباره بعمل شعره كله معربًا مفسرًا ، حتى لا يشذ منه حرف ، ولا يغمض منه معنى ، ولا ينبو عنه فهم ، ولا يمجه سمع ، فأسرعت بذلك إجابتي ، وعملته بالفكر نيتي ، وتضمنت عمل شعره لك بعد أخباره " [١] .

ولم يقف اهتمام الصولي بأبي تمام عند حدّ شرح الديوان فحسب ، بل تعداه إلى تناول حماسته بالشرح والتحليل ، بيد أن هذا الشرح يقع في إطار بعض كتبه المفقودة [٢]، ويرجع سرّ هذا الاهتمام والشغف بأبي تمام إلى أن الصولي كان يَعدُّ أبا تمام رأسًا في الشعر ، ويرى أن مذهبه يمثل قمة المذاهب الشعرية في عصره، وأن كل محسن بعده لائذ به ، ومنتسب إليه . وهذا يؤكد مدى ثقافة الصولي . . وموقفه الأدبي الذي يتميّز - هنا - بأمرين :

الأول : إنصافه لشاعر كان يعاصره .. ونفي فكرة أن المعاصرة حجاب .

الآخر : إنه كان ينصر الرأي المعارض ، ويقف في صف الجديد الذي جاء به أبو تمام .

من خلال النصوص السابقة وغيرها تتضح الدوافع التي دعت الصولي إلى أن يؤلف باكورة الشروح على شعر أبي تمام ، ومن أهمها ما ذكره من أن الناس الذين طالما اختلفوا على شعره واضطربوا في روايته ، ولم يميزوا بين الثابت والمنحول منه سيجتمعون على ما سيقدمه من شعره حتى لا يشذ منه حرف ، ولا يلتبس عليهم منه لفظ . ومنها اعتقاده بأنه من أعلم الناس بشعر أبي تمام ، وأن لديه القدرة على فك كثير من رموز شعر أبي تمام ، وشرح معانيه الغامضة ، وألفاظه الغريبة ، وبيان كنوزه الفنية ، لذلك فهو ينصّب نفسه إمامًا في شعر أبي تمام ، يروّض معانيه ، ويذلّل ألفاظه ، ويطالب المنصفين من القرّاء بتقدير عمله هذا الذي لا يقوى على تحمله - في ظنّه - غيره : " ولو أنصف من يقرأ هذا وأشباهه من تفسيرنا ، علم أن أحدًا لم

---

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٥ - ٦ .

(٢) انظر : ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٩ ، ص ١٠٩ .
وانظر : حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص ٦٩٢ .

يستقل بمثله ، ولا علم حقيقة الكلام كما علمناه ، إلاّ أن يتعلمه من هذه الجهة متعلم ذكي فيبلغ فيه" (١) .

وتارة يذهب الصولي إلى أنه ينفرد بمعرفة بعض القصص والأخبار التي لها علاقة بشعر أبي تمام ، والتي لا يمكن أن يُفهم شعره بمعزل عنها ، فهناك قصائد كاملة ، أو بعض أبيات يتوقف فهمها على معرفة الأحداث والأخبار والملابسات التي دارت حولها ، أو على معرفة الدوافع التي حركت عواطف الشاعر ، والظروف التي كتبت فيها القصيدة .

قال أبو تمام قصيدة يمدح فيها ابن أبي دؤاد ويسترضيه بعد أن غضب عليه ، مطلعها :

أرأيتَ أيَّ سوَالفٍ وخُدُودِ   عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَى فَزَرُوْدِ

أورد الصولي خبر هذه القصيدة في معرض افتخاره بمعرفة أسرار شعر أبي تمام دون الآخرين فقال : " وطال غضب ابن أبي دؤاد على أبي تمام ، فما رضي عنه حتى شفع فيه خالد بن يزيد الشيباني ، فعمل قصيدة يمدح ابن أبي دؤاد ويذكر شفاعة خالد بن يزيد إليه ، وأغمض مواضع منها في اعتذاره فما فسّرها أحد قط ، وإنّما سنح لي استخراجها لحفظي للأخبار التي أومأ إليها . فأما من لا يحفظ الأخبار فإنها لا تقع له" (٢) . ومع التسليم بأهمية معرفة بعض الحوادث ، والأخبار التاريخية التي تتكيء عليها بعض الأبيات في فهم النص أحيانًا ، غير أن هذا لا يمكن أن يعول عليه باطراد في جميع القصائد ، الأمر الذي جعل الصولي وإن طال اشتغاله بأشعار المحدثين وجمعه لأخبارهم ، يتنحّى أحيانًا عن ذكر مناسبات القصائد ، ويؤكد أن صعوبة شعر أبي تمام ، واستغلاق معانيه حتى على بعض العلماء الذين أنكروا شعر المحدثين واجتنبوه، إنما تقع من جهة أن أشعار المحدثين لم تكن مألوفة عندهم ، كما هو الحال بالنسبة لأشعار الأوائل التي وجدت أئمة ذلّلوها لهم ، فهم يقرؤنها سالكين

---

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٣١ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

وانظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١، ص ٣٨٨ .

سبيل غيرهم في تفاسيرهم واستجادة جيدها وعيب رديئها . . . فإذا ما سئل العالم من أن يقرأ عليه من شعر أبي نواس ، ومسلم ، وأبي تمام وغيرهم فرّ - على حدّ زعمه - من أن يقول «لا أُحْسِن» إلى الطعن عليه ، وخاصة على أبي تمام ، لأنه أقربهم عهداً وأصعبهم شعراً [١] .

ومن دواعي الشرح عند الصولي أيضًا رغبته في الرد على بعض الخصوم ، وتقريع العائبين على شعر أبي تمام ، ودفع حجج المتعصبين عليه ، وهم - كما وصفهم - إمّا جهلة يصعب عليهم فهم شعره ، وإمّا أناس يصحّفون شعره ثم يعيبونه ، ليتخذوا من الطعن عليه طريقًا إلى الشهرة ، وإمّا أدعياء لا يعرفون جيداً ، ولا ينكرون رديئًا ، إلا بالادعاء والتقليد ، لذلك نراه يعرّض في حديثه بطائفة منهم : " وليت أبا تمام مُنِيَ بعيب من يجلُّ في علم الشعر قدره ، أو يحسن به علمه ، ولكنه مُنِيَ بمن لا يعرف جيداً ولا ينكر رديئًا إلا بالادّعاء . . . " [٢] .

ولم يكتف الصولي في رده على خصوم أبي تمام بإطلاق مثل هذه العبارات فحسب ، بل جاء رده عليهم تطبيقًا أيضًا ، حيث شرح بعض الأبيات المشكلة ، ووضح بعض المعاني الغامضة ، والألفاظ الغريبة . وقدّم عدداً من الأشباه ، والنظائر من أشعار القدماء ، ودعم ذلك بما أمكن من الشواهد من المنظوم والمنثور ، بل إنه قد تصيّد بعض أخطاء الشعراء القدماء ليقيس عليها ويبرر بعض أخطاء أبي تمام ، فإذا أخطأ أبو تمام أو قصر ، فإن ذلك لا يبطل إحسانه ، كما أن العلماء قد عابوا على امرىء القيس ومن دونه من الشعراء القدماء والمحدثين أشياء كثيرة أخطأوا الوصف فيها فما سقطت بذلك مراتبهم [٣] .

وقد وظّف الصولي ثقافته العربية ومخزونه من الموروث الأدبي في الرد على من أنكر على أبي تمام « ماء المَلام » في قوله :

لا تَسْقِني مَاءَ الملامِ فإنَّني صَبٌّ قَدِ استَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

---

(١) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٨ .

(٣) انظر : نفسه ، ص ٣٢ .

عند شرحه لهذا البيت في الديوان قال : " وهذا مما عيب عليه ، وقد أحكمنا تفسيره وذكرناه في الرسالة " ، يقصد رسالته النقدية التي بعث بها إلى مزاحم بن فاتك ، وقد صدّر تفسيره باستفهام إنكاري فقال : " كيف ينكرون ذلك وهم يقولون : كلام كثير الماء ، وما أكثر ماء شعر الأخطل . قاله يونس بن حبيب ، ويقولون ماء الصبابة ، وماء الهوى يريدون الدمع " [١] ، ثم أشار إلى أن عبد الصمد بن المعذل وهو محسن عند من يطعن على أبي تمام قال :

أَيُّ مَاءٍ لَمَاءِ وَجْهِكَ يَبْقَى بَعْدَ ذُلِّ الهَوَى وذُلِّ السُّؤالِ ؟

كما ذكر أن العرب قد تحمل اللفظ على اللفظ ، فيما لا يستوي معناه ، قال الله جلّ وعز : ﴿ وجَزَاء سَيِّئة سَيِّئةٌ مِثْلُهَا ﴾[٢] ، والسيئة الثانية ليست بسيئة لأنها مجازاة ، . . . وقال الله عز وجل : ﴿ واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾[٣] فهذا أجلُّ استعارة وأحسنها ، وكلام العرب جارٍ عليها . . . وإن أرادوا نظائر من الشعر العربي يقيسون عليها فهذا قول ذي الرُّمة :

أَأَنْ تَرَسَّمْتَ مِنْ خَرْقَاء مَنْزِلَةً ماءُ الصبابةِ مِنْ عينيكَ مسْجُوم ؟

وقال العتابي :

أُكَاتِمُ لَوْعَاتِ الهَوَى ويُبينُها تَخَلُّلُ مَاءِ الشَّوْقِ بيْنَ جُفونِي

فما يكون أن استعار أبو تمام من هذا كله حرفًا ، فجاء به في صدر بيته [٤] ، فالصولي يسوّغ لأبي تمام ويجري شعره على مثل ما قال المتقدمون فيما كان فيه مقصرًا ، أو مخلاً ، وهذا لا يصح لما فيه من فساد الطريقة وضعف الحجة ، إذ لا وجه لقياس الخطأ على مثله ، ولا يضر عدالة النقاد ما ظنّه بهم ، حين اعتقد أنهم لو عرفوا "ما أنكره الناس على الشعراء الحذاق من القدماء والمحدثين لكثر ، حتى قل

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١، ص ١٧٨ .

(٢) سورة : الشورى : آية : ٤٠ .

(٣) سورة : الإسراء : آية ٢٤ .

(٤) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٣٣ - ٣٧ .

عندهم ما عابوه على أبي تمام ، إذا اعتقدوا الإنصاف ونظروا بعينه " [١] .

نستطيع القول بأن الصولي اعتنق المذهب الشعري الجديد في عصره ، الذي يمثله شعر أبي تمام أصدق تمثيل ، ودعا الناس إلى قراءة شعره ، ومناصرة مذهبه ، الذي ينزع إلى الابتكار ، ويمثل حياة الناس وواقعهم الثقافي ، ويعبّر عن احتياجاتهم الأدبية . جاء في معرض تنويهه بالشعراء المحدثين : " وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها . ومعاني أومأوا إليها . فأتى بها هؤلاء وأحسنوا فيها ، وشعرهم ، مع ذلك أشبه بالزمان ، والناس له أكثر استعمالاً في مجالسهم ، وكتبهم وتمثلهم ، ومطالبهم " [٢] . وبدأ في تحقيق ما يدعو إليه من قبول المذهب الجديد بالممارسة الفعلية والدراسة التطبيقية على شعر أبي تمام ، بتحليله وشرح بعض النواحي الجمالية فيه ، والإفصاح عن بعض الأساليب ، والتشبيهات الجديدة ، والكشف عن بعض المعاني الغامضة ، والألفاظ الغريبة ، ومقارنتها بمعاني الشعراء السابقين وألفاظهم .

---

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦ - ١٧ .

رؤيـــــة وصفيـة :

عندما صنف الصولي شرحه لديوان أبي تمام جعله في قسمين كبيرين ، انتهى القسم الأول عند قافية حرف الكاف من باب المديح . والجزء الثاني احتوى على ما تبقى من شعر أبي تمام في باب المديح وبقية الأغراض الأخرى . هذا هو تقسيم المخطوطة الأصلية عند التحقيق [١] ، لكن ثمة نسخة أخرى أشارت إلى أن الصولي جعل شرحه في ثلاثة أجزاء ، إذ نجد في نهاية قافية النون من باب المديح العبارة التالية : «انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث بعون الله» [٢] . ولعل هذا التقسيم هو الذي أوحى إلى المحقق بأن يجعله في ثلاثة أجزاء [٣] ، وقد اعتمد في تحقيقه على ثلاث نسخ خطية ، منها واحدة لم يقطع بصحة نسبتها إلى الصولي[٤] ، خاصة إذا علمنا أن عبده عزام – محقق شرح التبريزي – ذكر في كتابه " أن للخطيب التبريزي شرحًا مختصرًا على ديوان أبي تمام ، نقل فيه كثيرًا من شرح الصولي ، فنقلوا مقدمة الصولي إليه . . . " [٥] واستشهد على صحة ما ذهب إليه بما أثبته صاحب كشف الظنون من أن للخطيب مختصرًا على ديوان أبي تمام ، أوله : " الحمد لله الذي جعل معرفة العارفين عن شكره . . . " [٦] ، وهذه مقدمة الصولي كما جاءت في أول كتابه .

فهل حدث اللبس – لدى المتأخرين – في نسبة الشرح إلى صاحبه ، بسبب مقدمته ، أم لأسباب أخرى ؟ يقول أحمد كمال زكي : " وينبغي ألاّ نهمل شرحًا ثانيًا للتبريزي بعنوان « شرح مختصر على ديوان أبي تمام » وقد روى فيه كثيرًا عن الصولي ، حتى ظنّ نفر أنه له ، ومن ثَمَّ وقع بعض الناسخين في الخطأ ، فنقلوا مقدمة الصولي إليه . . . " [٧] .

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ٢، ص ١٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٤٩ .

(٣) حققه : خلف رشيد نعمان ، وطبعه في بغداد سنة ١٩٧٧ .

(٤) هي النسخة التيمورية ، محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤ .

(٥) التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٧ .

(٦) حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص ٧٧١ .

(٧) أحمد كمال زكي : ديوان أبي تمام ، مجلة : سلسلة تراث الإنسانية ، المجلد الخامس ، دار الكاتب العربي ، عدد ١ ، ص ٧٣٧ .

طابق كلامه ما ذكره عزام آنفًا ، والذي يبدو أن إفراط التبريزي في الأخذ عن بعض الشراح ، وطريقته في مداخلة النصوص ، وعدم عزو الأقوال إلى أصحابها ، عرّض بعض كتبه إلى أن تنسب إلى غيره ، وأغلب الظن أن خلف نعمان قد اعتمد في تحقيقه لشرح الصولي على نسخة من مختصره ، على أنها واحدة من نسخ شرح

منهج الشـــــــرح :

قدّم الصولي لشرحه بمقدمة مختصرة بيّن فيها بعض الدوافع التي حفزته على تأليفه ، وأبان عن عزمه على أن يجعله أحسن الشروح وأولاها بالتقدمة ، لينال بذلك شكر صاحبه ، الذي سأله عن شعر أبي تمام بعد أن وفّى بما وعده به من جمع أخباره ، وبيان فضله في شعره ، " أما بعد ، فقد وفيت - أسعدك الله تعالى - وأسعد بك ، بما وعدتك من عمل « أخبار أبي تمام» وتبين فضله في شعره والاحتجاج له . . . ، وبقي شعره الذي سألتني عنه بعد انقضاء أخباره . . . ، وإنما نشطني - أعزك الله - لعمل أخباره وشعره ، وَحَدَاني عليه وجذبني إليه ، علمك بأن كل متسع يضيق عنه ، وكل كثير يقل معه ، وكل كبير يصغر عنده ، فوهبت أخذ من لا يستحقه ، ولا يقرّ بالفائدة لي فيه ، ومن يستفيد مما أورده ، ويدعي أنه قد كان يعلّمه لك - أعزك الله - ولن يشكرني عليه ، ويُقرَّ بالفضل لي فيه ، ويعلم أن أحداً قطُّ ما تضمن القيام بقصائد منه ، فضلاً عن جميعه" [١] .

ومهما يكن من استجابته ونزوله عند رغبة صاحبه - وقد يكون صاحباً متخيلاً - في عمل الشرح ، فإن الدافع الحقيقي يبدو في ميله الشديد إلى الشعراء المحدثين وبصورة خاصة إلى أبي تمام ، محاولاً الإشادة به وبشعره ، والدفاع عنه ، والرد على خصومه والعائبين على شعره . كذلك أراد أن يثبت مقدرته على دراسة الشعر الجديد وفهمه له من خلال تحليل شعر الطائي ، أشده غموضاً وأكثره إشكالاً ، كما كان معنياً بالرد على بعض من كانت له خلافات شخصية معه من معاصريه ، الذين عرّض بهم في شرحه ولم يصرح بأسمائهم ، مثل أبي موسى الحامض ، الذي كان يكثر من التشنيع على الصولي ويثلبه ويطعن في سائر أماليه [٢] ، ذلك لأن الصولي كان مزهواً بعمله ، ومعتداً بنفسه مما أثار عليه حفيظة بعض النقاد قديماً وحديثاً ، ففي القديم تعقبه الآمدي ، وكذلك المرزوقي الذي كان يفنّد أقواله ويخطّئه في مواضع من شرحه ، وفي العصر الحديث ذكر الأستاذ أحمد أمين أنه كان يتعصب لأبي تمام تعصباً

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٦٥.

(٢) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٠ -١١ .

سافراً ، ويدافع عن شعره بطريقة خاطئة [١] ، وردّد محمد مندور هذا الكلام ، ووصف الصولي بقصور النظر ، وعدم التوفيق فيما يدّعي ، ورأى " أن مناصرته لأبي تمام كانت أقرب إلى اللجاجة والإسراف منها إلى النقد الموضوعي الدقيق ، ويزيد الحكم عليه قسوة إفراطه في الغرور والتبجح بعلمه . . . " [٢] .

وإذا كنا نتفق مع مندور على أن الصولي كان منحازاً إلى أبي تمام في الخصومة النقدية التي دارت حول شعره ، فإنّا لا نقره على وصف منهجه في النقد بفساد الذوق والسطحية واللجاجة العقلية [٣] ، ولا نقبل هذا التعميم على إطلاقه ، حيث وجد للصولي مواقف نقدية كثيرة تدل على ذوقه النقدي ، وامتلاكه لبعض الأدوات النقدية التي استخدمها في منهجه ، ظهر معظمها في عرضه ، وتحليله لشعر أبي تمام ، وما تناوله من شعر البحتري ، دلّ بعضها على أنه كان بصيراً بالنقد عالمًا بالشعر وفنونه ، وأنه كان موفقًا في بعض تحليلاته وتعليلاته وأحكامه .

وقد أشار في مقدمة شرحه بإيجاز إلى المنهج الذي سيسلكه في جمع شعر الطائي وعرضه ، " وأنا مبتدىء بالمديح على قافية الألف ثم على توالي الحروف . . . " [٤] . فبدأ بباب المديح ، لأنه أهم الأغراض الشعرية عند أبي تمام ، وأغزرها مادة، وأكثرها شهرة ، وجعله مرتبًا على حروف المعجم ، ثم توالت بعد ذلك قصائد الديوان مرتبة بحسب الغرض الشعري على النحو التالي : الهجاء ، فالمراثي ، فالغزل، فالمعاتبات فالأوصاف ، فالفخر ، وأخيراً باب الزهد الذي لم يرد منه إلا بعض قصائد على قوافي : الباء ، والراء ، والسين ، والعين ، والياء . ومن الواضح أن هذا الترتيب - بحسب الكم الشعري - يدل على وعي نقدي ورؤية منهجية صائبة في التنظيم والشرح .

---

(١) انظر : أحمد أمين : النقد الأدبي ،
ط : دار الكتاب العربي ، الرابعة ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م ، جـ٢ ، ص ٤٨١ .

(٢) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، ص ٩٣ .

(٣) انظر : المصدر السابق : ص ٩٨ .

(٤) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٦٦ .

كذلك يظهر في منهجه بعض ما عرفه خلال دراسته للحديث وطريق روايته ، فنلاحظ حرصه أحيانًا على تسلسل بعض الأسانيد ، من ذلك ما أعلنه في مقدمة شرح الديوان ، قال : " قرأت على أبي مالك عون بن محمد الكندي ، قال : قرأت على أبي تمام عشرين قصيدة من شعره . . . " [١] وذكر أن فاتحة الديوان ، القصيدة التي مطلعها :

يا مُوضِعَ الشَدَنِيّة الوَجْناء ومُصَارِعَ الإدْلاجِ والإسْرَاءِ

مما قرأه على أبي مالك راوية أبي تمام .

هذا غالبًا ما نجده في مجال تمحيصه لرواية الشعر ، التي كان كثيرًا ما يتكىء فيها على أبي مالك الكندي [٢] ، أما إذا أراد أن يختصر الشرح ويبتعد عن الإطالة ، فإنه يستغني عن الأسانيد ، ولا يذكرها إلا حين يراها مهمة في بيان مناسبة القصيدة أو غرضها .

ومن اللافت للانتباه - في شروح الدواوين عمومًا ، وفي شرح الصولي لديوان أبي تمام خاصة - العناية الفائقة بالقصائد الأولى ، أو الأجزاء الأولى في الدواوين ، وقلة ذلك في آخر الديوان ، فالصولي اهتم بالقسم الأول من الديوان اهتمامًا بالغًا ، وكاد يخلي القسم الثاني من الشرح ، إلا من بعض الأشياء اليسيرة ، كتفسير لفظة غريبة ، أو ذكر رواية ، أو توضيح معنى غامض مستغلق ، ونحو ذلك ، وقد حظيت بعض الأبيات في القسم الأول من شرحه بما لم تحظ به قصائد كاملة في آخر الديوان ، ومما لوحظ أن اهتمامه بالشرح كان يتناقص عندما يتوغل في قصائد الديوان ، وأن عدد الأبيات التي يتناولها يقل تدريجيًا حين يتقدم إلى الأمام ، فثمة أبيات كثيرة سكت عنها ، وأعرض عن تفسير أي شيء منها ، بل إن هناك قصائد كاملة أخلاها من الشرح ، برغم أنه سرد في كتابه كل أبياتها . وعلى سبيل المثال لا نجد له في قصائد « باب الزهد » أي شرح أو تعليق [٣] ، ويمكن أن نرد صمت

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) انظر : المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٢٣٤ ، ٢٤٤ ، ٤٥٦ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦٣٩ وما بعدها .

الصولي وإعراضه عن بعض الأبيات إلى عدد من الأسباب منها : أن قربه من عصر الشاعر جعل كثيراً من الأبيات تبدو سهلة بالنسبة له سواء في ألفاظها أو معانيها ، وإذا وضح معنى البيت ، وخلت ألفاظه من الغريب والطريف ، فلا حاجة إلى تناوله بالشرح ، لكن هذا السبب ، لم يكن مطرداً لديه ، إذ إن هناك أبياتًا غامضة ذات معانٍ مستغلقة ، وألفاظ غريبة ، وغير واضحة في عصره ، قابلها بالصمت وعدم الاهتمام . كذلك يمكن أن يعلل إغفاله لبعض الأبيات - خاصة في آخر الديوان - بما كان سائداً من الاعتقاد بأن شرح الجزء المهم من شعر الشاعر ، قد يغني عن شرح المتداول المعروف منه ، من حيث إنّ الشعر يفسر بعضه بعضاً ، وإن الشاعر يستعمل - أحيانًا - ألفاظًا متقاربة ويكرر معاني متطابقة ، فيسهل على من قرأ معظم أول الديوان أن يفهم آخره .

أيضًا يمكن أن يرتدّ إهماله لبعض الأبيات التي قصر فيها أبو تمام وعُدّت من معائبه إلى أنه لم يشأ أن يلفت انتباه الخصوم إليها لكي لا يتخذوها دليلاً على تقصيره وضعف شاعريته ، أما إذا كان البيت مهمًا جداً ، فإنه - أحيانًا - يكتفي بالإشارة البسيطة المجردة ، كالذي فعله في قول الطائي :

رَقِيقُ حَوَاشي الحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ بِكَفَّيْكَ ما مَارَيْتَ في أَنَّهُ بُرْدُ

فسره بقوله : " هو رقيق الحلم حسن الأخلاق لأوليائه " [1] .

وهذا شرح مبتسر ليس فيه تحليل ولا تعليل ، لبيت كثر اختلاف النقاد والشراح حوله ، وطالت مناقشاتهم فيه ، حيث رأى بعضهم فيه مخالفة للتقاليد العربية بوصف الحِلْم بالبُرْد ورقة الحواشي، بينما وصفه الشعراء قبله برزانة الجبال .

ولا يعد الصولي الشارح الوحيد الذي ترك أبياتًا عديدة ، أو قصائد من ديوان الطائي دون شرح أو تفسير ، بل نجد هذا النقص لدى الشُرَّاح جميعهم من غير استثناء ، ولم تكن الأبيات التي تركوها ضعيفة كلها، أو قريبة المعنى ، أو مما لا يعتد به ولا ينتفع بشرحه ، كما أن معظمها ليس من الأبيات التي لا فضل لصاحبها فيها

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٤٧١ .

إلا إقامة الوزن ، وانتظام القافية ، فيسوغ إغفالهم لها ، وانصرافهم عنها .

وتجدر الإشارة إلى أن الصولي قد تناول بالشرح نحو ألف وخمسمائة وواحدٍ وعشرين بيتًا من مجموع أبيات ديوان أبي تمام ، تراوح شرحه لها بين توضيح المعنى، وتفسير الغريب ، ونقد اللغة ، وإعراب بعض الجمل والألفاظ ، والإشارة إلى بعض اللمحات البلاغية ، وذكر بعض الروايات ، وتقديم بعض الأخبار التاريخية . . . وغيرها مما قد يعين على فهم الشعر وبيان مراد الشاعر . وكان مثل كثير من الشراح المتقدمين ، ينظر إلى البيت الشعري باعتباره وحدة مستقلة عن بقية الأبيات الأخرى في القصيدة – غالبًا ، ولم تكن الوحدة الفنية في القصيدة تشغل باله كثيراً ، فدرس الأبيات منفصلة عن بعضها ، ولم يربطها بسياقها العام إلا نادرًا .

ولكي نتبين منهجه في الشرح يجب أن نذكر أنه لم تطرد في تناوله للأبيات خطة واحدة ، إذ كان تارة يبدأ بتفسير الغريب ، ثم يذكر بعده عناصر الشرح الأخرى ويختم بشرح معنى البيت ، وتارة أخرى ، يبدأ بشرح المعنى وبيان قصد الشاعر ، ثم يعقب ببقية الملاحظات ، وثالثة ، نراه يقدم ويؤخر في العناصر على غير ترتيب مطرد، ونعتقد أنه كان يبدأ بالعنصر الذي يراه أكثر أهمية من غيره في البيت الذي يتناوله، أو أنه يبدأ بالأكثر احتياجًا إلى الشرح والتفسير ، وأحيانًا يقتصر على ما يسترعي اهتمامه فيتحدث عن جزئية معينة في البيت ، ويغفل بقية العناصر ، من ذلك أنه لم يقف عند هذا البيت :

لَوْلاَ العُيُونُ وتُفَّاحُ الخُدُودِ إذًا مَا كَانَ يَحْسُدُ أَعْمَى مَنْ لَهُ بَصَرُ

إلا على إعراب بعض الألفاظ ، " مَنْ : في موضع نصب ، وأعمى : مرفوع لأنه الذي يحسد " [1] .

ولا شك أنه أعرب اللفظين ليمنع وقوع اللبس الذي قد يحصل بسبب اختفاء

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٥٣٢ .

الحركة الإعرابية في الأول من أجل البناء ، وفي الثاني من أجل التعذر فلا يعرف الحاسد من المحسود ، والشعر يكثر فيه التقديم والتأخير ، أما النحويون فقد حسموا المسألة في مثل هذا الإشكال ، بحيث إذا لم يدل المعنى على الفاعل من المفعول فإن الحكم للرتبة . فيكون المتقدم فاعلاً والمتأخر رتبة مفعولاً .

ولا ينبغي أن نغادر الحديث عن منهجه قبل أن نورد نموذجًا من شرحه حاول أن يستوفي فيه بعض عناصر الشرح والتحليل ، لنرى عمله ، ونلاحظ طريقته في الانتقال من عنصر إلى آخر ، مؤجلين مناقشة هذه العناصر في منظوراتها الخاصة بها في موضعها من هذا الفصل .

بدأ الصولي شرحه لمطلع القصيدة الثانية في الديوان ، بذكر مناسبة القصيدة وسند روايتها ، " وقال يمدح محمد بن حسان الضبي ، وكان مدح بهذه القصيدة يحيى بن ثابت ، ثم صيرها في مدح محمد بن حسان ، وقرأتها على أبي مالك ، وهو أخبرني بذلك " .

قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ في الغُلَوَاءِ كَمْ تَعْذِلُونَ وأَنْتُم سُجَرائي ؟

اهتم أولاً بتفسير الألفاظ الغريبة في البيت ، فمعنى قَدْك : حسبك ، واتئب : استح ، ولكي يبرهن على صحة تفسيره للفظة «اتّئب» ساق كلامًا لأبي عمرو الشيباني جاء فيه " أكل عندي أعرابي فقلت له : ازدد، فقال : ما طعامك بطعام تؤبةٍ ، أي بطعامٍ يستحى منه " .

ثم عاد إلى تفسير ألفاظ البيت ، وذكر بعض معانيها في سياقات مختلفة ، أَرْبَيْتَ : زدت ، في الغُلَوَاء : في الارتفاع في عذلي ، والغالي في الشيء الزائد فيه المرتفع ، وغلا السعر : ارتفع ، والسُّجَراء : الأصحاب ، والسجير : الصاحب والصديق ، وقيل : هو المملوء محبة لصاحبه ، « والبحر المسجور » المملوء ، فأما الشجير : بالشين ، فهو الغريب .

بعد ذلك لخّص المعنى الشعري للبيت ، فذكر أن الشاعر يقول : " كم تعذلون وأنتم تحبون كما أُحب "، وقوله : " قدك اتّئب أربيت» كلام مختلف المعنى يريد به ، أرفق ؛ أستح ".

ثم عقب برأي نقدي دَعَّمَهُ ببعض التفسيرات النحوية ، قال : وقد عابه قوم ولم يدروا أن العرب ربما كررت الشيء تريد التوكيد ، والمعنى واحد ، واستشهد على رأيه بقول الراجز :

«مَهْلاً رُوَيْدًا قد مَلأتُ بَطْني»

وهو كقولهم : اذهب ، عَجِّل ، أسرع ، ولا يكون هذا عندهم عيبًا فكيف يعاب أبو تمام وإنما كرر معاني مختلفة [١] .

هكذا كان يسير الصولي في شرحه لأبيات الطائي ، يجزّىء النص إلى عناصر ، ووحدات صغيرة ، ثم يفسرها على طريقة المعاجم ، في الكشف عن معنى اللفظة في استعمالات مختلفة ، ثم يشرح المعنى ، ويبين مراد الشاعر ، ويدافع عن الشعر أحيانًا ، مدعمًا بعض آرائه بالأدلة والشواهد المختلفة من المنظوم والمنثور .

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

مصادر الشـــــرح:

كانت مصادر الصولي في شرحه ، واستشهاداته على شعر أبي تمام متعددة ومتنوعة ، وقد وقف بشواهده عند شرط معظم علماء اللغة من مراعاة حدود الاحتجاج اللغوي الزمانية والمكانية ، فلم يستشهد إلا بمن يصح الاحتجاج بكلامه . وكان **القرآن الكريم** – أعلى مثال يحتذى في نظمه وألفاظه ومعانيه – أهم المصادر التي استقى منها شواهده ، خاصة فيما يتعلق بتفسير الألفاظ وبيان دلالتها [(١)] ، مثال ذلك حين أراد توضيح دلالة كلمة « كَدَرَ » من هذا البيت :

نَبَذْتُ إليه هِمَّتي فكأَنَّما كَدَرْتُ به نَجْمًا على الدَّهْرِ ثَاقِبَا

ذكر أن " كَدَرْتُ : أي قضضت به نجمًا ، أي أسقطت ، من قوله تعالى ﴿وإِذَا النُّجومُ انْكَدَرَتْ﴾ [(٢)] ، أي : انقضت " [(٣)] .

كذلك استشهد بآي الذكر الحكيم في تفسير لفظة « السَّبَبُ » بمعنى الحبل [(٤)]، في قول أبي تمام :

تَقَطَّعتِ الأَسْبَابُ إِنْ لَمْ تُغرِلْهَا قُوَى ويَصِلُهَا مِنْ يَمِينكَ وَاصِلُ

قال : " والسَّببُ : الحبل ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلْيَمْدُدْ بسببٍ إلى السَّمَاءِ﴾[(٥)]" .

أما المواضع التي استشهد فيها **بالحديث النبوي الشريف** ، فقد كانت أقل بكثير من المواضع التي استشهد فيها بالقرآن الكريم أو الشعر ، ولم يظهر لدراسته الحديث – مدة غير يسيرة من عمره – أثر بارز في شواهده ، وأظهر ما وجد له استشهاده بما رُوي " أنه جيء بأبي قحافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم كأن رأسه

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥٩ ، ٣٢٠ ، وجـ ٢ ، ص ٣٣٩ ، ٤٢٢ ، و جـ ٣ ، ص ٢٩٢ .

(٢) سورة : التكوير : آية ٢ .

(٣) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

(٤) انظر : المصدر السابق : جـ ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٥) سورة : الحج : آية ١٥ .

ثغامة " مستدلاً على أن المراد « بالثَّغَام » في بيت الطائي :

يا نَسِيبَ الثَّغَامِ ذَنْبُكَ أَبْقَى حَسَنَاتِي عِنْدَ الحِسَانِ ذُنُوبًا

الشيب ، والثَّغَام ، نبت أبيض يشبّه الشيب به ، ومنه الحديث السابق[١] .

كذلك احتج بالحديث على صحة استخدام أبي تمام لبعض الأدوات والتراكيب على غير المشهور فيها ، من ذلك مجيء «لمّا» بمعنى « لم » في قوله :

وَجَدَاكَ مَحْمُودًا فَلَمَّا يألُوَا لَكَ في مُفَاوَضَةٍ ولا تَقْدِيمِ

فذكر أنه أراد : فلم يألوا ، واستدل بحديث " المرءُ يَحُثُّ القومَ ولَمَّا يَلْحَقْ بهم" أي ولم يلحق بهم [٢] .

ولم يقتصر الصولي على الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وبعض ما جاء من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل نجده أحيانًا **يستشهد ببعض أقوال الصحابة ، أو التابعين ، وغيرهم من فصحاء العرب** ، وقد استدل على أن « النُّطْفة » يمكن أن تطلق على القليل والكثير ، بقول علي بن أبي طالب ، يوم النهروان ، في الخوارج ، " واللّهِ ما جَاوزوا النُّطْفَةَ " ، أراد أن عددهم قليل ، وذكر قولاً لمعقل بن خويلد الهذلي ، دلت لفظة « النُّطْفة » على الكثرة [٣] .

ويلاحظ أنه في المواضع التي يستشهد فيها ، غالبًا ما يكتفي بذكر الشواهد ، فلا يعقب ، أو يعلق ، أو يربط الشاهد بالقضية المطروحة ، وكان من حق بعض الشواهد ، والأبيات أن يفصح عما فيها من جمال فني وسرٍّ لغوي يميز الاستشهاد بها دون غيرها .

كما استند في بعض المواضع من شرحه على ما سمع من فصيح لغة العرب ، وصحيح كلامهم ، واتكأ في هذا المجال كثيرًا على ما أخذه من شيخه أبي مالك عون الكندي ، فردد عبارات مثل « كذا قاله أبو مالك » ، أو « كذا تقول العرب » ونحوها ،

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٤٢ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

وعندما وقف على عبارة الطائي « مجنون العباب » في بيته الذي مدح به محمد بن الهيثم بن شبانة :

يَمِينُ مُحَمَّدٍ بَحْرٌ خِضَمٌّ طُمُوحُ المَوْجِ مَجْنُونُ العُبابِ

أشار إلى أن العرب تقول " جُنَّ النبات إذا تكاثف وحَسُن . . . وكذلك يقولون في كل شيء حَسَنٍ مفرط ، فأراد أن العباب – وهو أرفع مواضع الماء – متزايد" [١] .

وبالرغم من اعتماده على طريقة العرب في الكلام ، فإن المرزوقي رأى في تفسيره هذا اعتسافًا وبعدًا عن الصواب ، وذهب إلى أن معنى الجنون – هنا –هو : اهتياج البحر ، واضطراب الماء ، وارتفاع الأمواج لا غير ، لكنّ ابن المستوفي – الشارح المتأخر عنهما – أنصف الصولي منه وردّ عليه قائلاً : «" تفسير الصولي صحيح ، وكذلك في تفسير العباب ، ولم يجمع الصولي في تفسيره بين أن قال : أن عبابه متكاثف ، وأنه حسن ، ولو قال ذلك لجاز . . ولا يلحقه ما يعيبه أبو علي عليه" [٢]

أما ما استشهد به الصولي من الشعر واحتج به في شرحه ، فقد كان أكثر من أي مجال آخر ؛ لأنه كان يحاول أن يؤصّل لشعر أبي تمام بالبحث عن الشبيه والنظير في الموروث الشعري القديم ، فذكر أشعارًا للنابغة ، وعلقمة ، ولبيد ، وطرفة ، والأعشى ، وعبيد بن الأبرص ، وامرىء القيس ، وعمرو بن كلثوم ، والمتنخّل ، وحسّان، والأخطل ، وجرير ، وذي الرُّمة ، وأبي ذؤيب ، والقطامي ، وغيرهم ، كما استشهد أيضًا بشعر كثير لا يعرف قائلوه ، أو أنه تعمد عدم ذكر أسمائهم ، مثل استشهاده على تعدد الدلالة في لفظة « الشَّجا » في قول الطائي :

أَضْحى الشَّجَا مُسْتَطِيلاً في حُلُوقِهِم مِنْ بَعْدِ مَا جَاذَبُوهُ وَهْوَ مُعْتَرِضُ

حيث ذكر أن «الشَّجا : العظم الذي يشجى به الإنسان إذا اعترض في حلقه ، وكذلك العود ، قال الشاعر : «كَعُودِ الشَّجَا أَعْيَى الطَّبِيْبَ المُدَاوِيَا» [٣]

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ .

(٢) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ٢٥١ .

(٣) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٥٩٣ .

وينسب هذا البيت لمجنون ليلى ، وربما كان سكوت الصولي عنه علامة شك في مصدره ؛ لأن كثيراً من شعر المجنون منحول عليه .

ومما يلاحظ على الصولي أحياناً أنه يستطرد في شرح الشاهد من غير حاجة إلى ذلك ، ولا يقف به عند حدود الاستشهاد والاحتجاج ، بل يذهب أحياناً إلى استحضار الشواهد على ما في الشاهد من غريب ، من ذلك أنه عندما وقف على بيت أبي تمام :

وَهْوَ إِذَا مَا أَعَرْتَ غُرَّتَهُ عَيْنَيْكَ لاَحَتْ كَأَنَّها بِرْسُ

قال : " وروى الناس «عُذْرته» ، وروى أبو مالك : « غُرّته » ، ويروى « كفيك لانت» ثم ذكر أن « العذرة » هي : ما خلف الناصية من الشعر المجتمع ، وهو موضع العذرة ، واستشهد على ذلك ببيت العجاج :

يَنْفُضْنَ أَفْنَانَ السَّبِيْبِ والعُذَرْ شُعْرًا ومُلْطًا مَا تَكسَّيْنَ الشَّعَرْ

ثم أخذ في تفسير غريب بيت العجاج ، واستحضر من شعر ذي الرُّمة شاهداً عليه ، وانساق في شرح بيت ذي الرُّمة ، واستدل برأي الأصمعي على صحة ما ذهب إليه في معنى بيت ذي الرُّمة ، وفي تفسير لفظة « السبيب » وأنها شعر الناصية ، استشهد بقول عبيد بن الأبرص :

مُضَبَّرٌ خَلْقُها تَضْبِيرَا يَنْشَقُّ عَنْ وَجْهِها السَّبِيْبُ

ثم عاد أخيراً بعد أن طوف في كتب اللغة والأدب إلى بيت أبي تمام وشرح معناه ، وبين مراد الشاعر فيه [١].

ويبدو أن الصولي يتخذ - أحياناً - من بعض ألفاظ شواهده ومعانيها ذريعة لعرض مقدرته اللغوية ، وثقافته الشعرية ، فيحشد الشواهد ، ويتوقف عند إشكالاتها، مغفلاً البيت الذي من أجله سيقت هذه الأدلة والشواهد ، فيحدث بذلك فجوة في ذهن القارىء بين البيت وشرحه ، وفي هذا جنوح عن القصد ، ومخالفة له ، من حيث كانت

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٥٦٠ .

غاية عمله من شرح الأبيات ، تفسير الألفاظ ، وتوضيح المعاني ، وتقريبها من فهم الآخرين .

كذلك استعان الصولي بآراء عدد من علماء اللغة ، فنراه ينقل في مواضع متفرقة من كتابه عن الأصمعي ، وأبي عمرو الشيباني ، وأبي عبيدة ، والسجستاني ، وابن السكيت ، والكسائي . . . وغيرهم ، وكان استدلاله بأقوالهم واستئناسه بآرائهم في أثناء معالجته للغة ، وبيان دلالة الألفاظ ، وكيفية استعمالها ، فإذا أراد أن يعزز رأيه ويطمئن القارىء على صحة ما ذهب إليه ، أورد قول أحد العلماء الأوائل ، وأحيانًا يذكر في المسألة الواحدة أكثر من رأي ، فعلى سبيل المثال ، استند إلى الأصمعي ، وأبي عبيد ، وابن السكيت في بيان دلالة « أَبْرَحْتَ » من قول الطائي في مدح محمد بن يوسف :

لَوْ عَايناكَ لقَالاَ بَهْجَةً جَذَلاً أَبْرَحْتَ أَيْسَرُ مَا فِي العِرْق أَنْ يَشِجَا

فسر « أبرحت » بأي أفرطت في الكرم ، ثم ذكر أن الأصمعي قال : أبرحت لومًا ، وأبرحت كرمًا ، أي جئت بأمرٍ مفرط ، ومنه ضربه ضربًا مبرحًا ، أي مفرطًا ، ونقل عن أبي عبيد قوله : أبرحت ، أي : أكرمت ، وقال ابن السكيت : أبرحت : أجبت، ثم أشار إلى أن كل ذلك سواء [١] . ولا شك أن مجيء هذه الأقوال والشواهد في شرحه تدل على سعة ثقافته اللغوية والأدبية ، وكثرة محفوظه من المنظوم والمنثور على حدٍّ سواء ، وهذا الثراء اللغوي والأدبي يزيد شرحه أهمية ، وقيمة تنضَاف إلى مزاياه وخصائصه الأخرى ، التي شهد بها عدد من النقاد و الشُرَّاح المتأخرين .

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٣٦١ .

زوايـــا الرؤيـــة في شـــرح الصـــولي

أولاً : الموقف من روايـــة الشـــعر

ثانياً : المنظـــور اللغوي والنحوي

ثالثاً : المنظـــور البلاغي والنقدي

رابعاً : المنظـــــور الدلالي

أولاً : الموقـــف من روايـــة الشـــعـــر :

كان لتشابه بعض ألفاظ أبي تمام في رسمها ومعانيها - نظراً لاهتمامه بالجناس والمشاكلة اللفظية - أثرٌ ظاهر في تصحيف بعض شعره واضطراب رواية بعض الرواة فيه . وزاد الأمر سوءاً ما أحدثه الضَّعفة من بعض الرواة والجهلة من بعض الناسخين الذين غيّروا بعض حروف شعره وحركاته ، فَحَدَثَ تبعاً لذلك تغيّر في المعنى « فأنشبوا الفَطِن في الحبالة » على حد تعبير أبي العلاء المعري [١] - ووقع بذلك قدر من الخلل ، عبّر عنه الصولي : " باختلاف الناس فيه، واضطراب روايتهم لشعره " [٢] ، بل إنه يتهم قوماً اتخذوا صناعة نسخ الدواوين تجارة يتكسبون بها ، فيزيدون في النسخ ما ليس منها ، ويبيعونها ممن لا يفهم الشعر ولا يميزه [٣] . وقد وعد الصولي بأنه سيذكر كل ما صحفه الجهلة من شعر أبي تمام وأن يصنع لشعر أبي تمام نسخة يجتمع الناس حولها ويسقطون ما عداها ، ووعد أيضاً بأنه سيذكر كل ما صحفه الجهلة - على حدّ قوله - ويبينه في موضعه من شرحه للديوان ، فهل استطاع أن يفي بما وعد به ؟ هذا ما سنحاول إيضاحه من خلال بيان موقفه من رواية شعر أبي تمام .

تجدر الإشارة إلى أن رواية الشعر قد حظيت لدى الصولي باهتمام بالغ ، بل إنها تعد أول اهتماماته بعد توضيح المعنى ، وقد بدأ بها قبل أي عنصر آخر من عناصر الشرح في مواطن عديدة من شرحه ، وقد لا يذكر سوى الرواية شيئاً آخر في تناوله لبعض الأبيات .

وتتضح أهم سمات منهج الصولي في معالجته الرواية في جانبين هما :

الأول : قبول الروايات والمفاضلة بينها : ذكر الصولي عدداً من الروايات في أثناء شرحه لبعض شعر أبي تمام ، وفاضل بينها معتمداً على بعض المعايير التي

---

(١) التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١ .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٥٥ .

(٣) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٨٨ .

تعينه على تحقيق الرواية الصحيحة أو القريبة منها ، ومن تلك المعايير التي اعتمدها : الجودة ، والبلاغة ، والوجاهة ، والإصابة ، والملاحة ، والطبع ، وغيرها . غير أنه في مفاضلته بين الروايات وفق هذه المعايير قد يعلل حكمه الذي يصدره في الرواية ، وقد لا يعلل ذلك . ومن الأحكام التي أصدرها دون أن يعلل وجه تفضيل الرواية التي اختارها ، قوله : " وقد أثبت رواية بيت أبي تمام على هذا النحو :

إيهِ فَدَتْكَ مَغارِسِي وَمَنَابتي اطْرَحْ غَنَاءَكَ في نُحُورِ عَنَائِي

قال : " ويروى : اقذف غناءك في نحور غنائي . قال : والذي قرأته على أبي مالك : اطرح غناءك في بحور عنائي ، وهو جيد ، ولذلك وجه قوي " [١] ، ولم يعلل تجويده للرواية ولم يفصح عن السبب الذي يقوي هذه الرواية على غيرها ، ولعله يقصد ما كان من موقف الشاعر إزاء الممدوح ، إذ هو في موقف الترقب وانتظار العطيّة ، حتى أصبح هذا الوعد معلقًا في القلب يدور عليه الرجاء كما تحوم الطير على الماء . وفي الطرح راحة للمدوح من إنفاذ وعده ، وفيه كذلك راحة للمعتفي من عناء السؤال والطلب .

ومثل ذلك ما قاله في رواية البيت التالي :

خَدِينُ العُلى أبْقى له البَذْلُ والتُّقى عَوَاقِبَ مِنْ عُرْفٍ كَفَتْه العَواقِبَا

قال : " ويروى : « أبقى له الدين والنّدى » وهو أجود " [٢] .

وهو هنا قد فَضَّل رواية غير الرواية التي أثبتها في الديوان ، ولم يعلل سبب الجودة في ذلك ، مع أن في الروايتين ترادفًا ظاهرًا . ولعله يرى أن الدين مقدم على البذل في كسب الثناء والحمد ، ولذا يجب أن يوصف به الممدوح أولاً ، إلا أن جرس الحروف في ألفاظ البيت قد يرجّح الرواية الأولى التي هي رواية الديوان ، فجرس حرف القاف ينتظم في أبْقى ، التُّقى ، عَواقِب ، العواقب ، وقد حرص أبو تمام على

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٤٠ .

جرس الحروف في بعض شعره ، ومنه هذه القصيدة ، وقد أخذ الصولي أحيانًا بهذا المنهج في تصويب بعض الروايات من ملاحظة ما قد يتكرر في القصيدة من الحروف أو الكلمات، واعتماده عاملاً مرجحًا لرواية على أخرى ، ففي قول أبي تمام :

حتَّى إِذَا أَخَذَ الفِرَاقُ بِقِسْطِه مِنْهُمْ وشَطَّ بِهِمْ عن الأَحْبَابِ

قال : يروى : " الأَجْبَاب : وهو موضع ، ويقال الحاء تصحيف . . . ولولا الرواية ما رويت هذا البيت إلاّ « وشَطَّ بِهِمْ عن الأَجْبَابِ » لما يجيء بعدُ وهي مواضع " [١] ، فهو يذكر أن الرواية الثانية أصوب ، وإن لم يثبتها في المتن ، وعزز رأيه بما ورد في القصيدة من ذكرٍ للمواضع والبلدان ، ومنها الأجباب الموضع الذي سكن فيه بنو كِلاب وبنو ضُبينة .

لكن الصولي في مواضع كثيرة من شرحه يعلل تفضيله للرواية التي اختارها وفق أسس علمية وفنية ، من أمثلة ذلك ، اختياره في بيت الطائي لهذه الرواية :

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

قال : " ويروى : من أيد طوال ، إلا أن أبا تمام قابل اللفظ فقال : «عواصٍ» ، ثم قال : «قواضٍ» فكان هذا أحب إليّ من طوال " [٢]

فذكر أنه برواية « أيد عواص » تتم المقابلة بين « عواصٍ » ، و « قواضٍ » في الشطر الثاني ، وبهذا يكون الصولي قد اعتمد في تحقيق الرواية على المُحَسِّن اللفظي القائم في « عواص عواصم » ، ومقابلتهما بلفظي « قواضٍ قواضب » في الشطر الثاني .

وقد يعتمد الصولي على بعض ألفاظ البيت الذي وردت فيه الرواية فيتخذه سببًا في جودة الرواية ، وهنا تظهر مقدرته الفنية في الكشف - أحيانًا - عن الرواية الأفضل من ألفاظ البيت نفسه . ومن ذلك ما أثبته من رواية لبيت أبي تمام :

فَمَرَّ ونارُ الكربِ تَلفَحُ قلبَه وما الرَّوحُ إلاّ أَنْ يُخامرَه الكَرْبُ

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢١٣ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨٢ .

قال : " وروى الناس « تلفح وجهه » وقلبه أجود لقوله لا يخامره " [١].

ومع أن الصولي لم يفصح عن العلاقة بين رواية « قلبه » ولفظة « يخامره » التي منحت روايته الجودة ، فإن هناك دلالة على أنه تنبّه إلى أن معنى البيت مبنيٌ على المجاز لا على الحقيقة ، إذ إن لفح نار الكرب حرقة في القلب ، والمخامرة معناها المخالطة ، واختلاط الروح والكرب ، وهما وصفان معنويان في القلب وليس في الوجه.

ومما علله الصولي على نحْو جيد من أحكامه التي أطلقها على الرواية ، كون الرواية التي أثبتها أكثر وجاهة من الأخرى ، بل يذكر أن قومًا يعدّونها تصحيفًا ، والرواية الصحيحة كما أثبتها هي كما جاءت في بيت أبي تمام التالي :

أيُّ مَرعى عَينٍ ووادي نَسيبٍ لَحَبَتْه الأيَّامُ في مَلْحُوبِ

قال : ويرويه قوم « أي مرعى عِين » . . . والعَين عندي وجيه [٢] .

وعلة الوجاهة عنده تكمن في أن اللفظة « عَين » ينبني عليها مراد الشاعر ، إذ جعل نظرها إلى الحسان رعيًا لها ، بينما يكون المعنى بالرواية الثانية مختلفًا عن الأول ، ويفسر بالمكان ،أو الرَّبْع الذي ترعى فيه المها ذات العيون الواسعة ، التي يكنّى بها عن النساء الحسان .

ولا يعني ما تقدم ذكْره أن الصولي كان يفاضل بين جميع الروايات التي ذكرها في شرحه ، فقد أورد روايات عديدة لزم حيالها الصمت ، فلم يستحسنها أو يستقبحها ، ولم يطلق فيها أي حكم ، بل إنه في بعض مواضع من شرحه قد يتزيّد في سرد الروايات ، ففي روايته لبيت أبي تمام :

دَعيني على أخلاقي الصُّم للتي هي الوفر أو سرب تُرِنُّ نوادبه

يذكر خمس روايات : روي " « كليني إلى أخلاقي الصم للتي » وروي « دعيني إلى أخلاقي الصّمل التي » ، ويروى «الغرر التي» ، و «الغرّ للتي» ، ويروى «الصمْل للتي» [٣] .

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .

(٣) نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ .

ولا ريب أن كل رواية من هذه الروايات لها معنى مختلف ، ومن المؤكد أن الشاعر لم يُرد إلا معنى واحداً ، وأن اعتماد غير الرواية الصحيحة يفضي إلى شرح وحكم على الشعر غير صحيح ، لذلك نجد المرزوقي ينبه على أن الرواية الصحيحة هي : « ذريني على أخلاقي الصّم للتي » .

ويتعجب من الصولي في روايته وبعض تفسيراته [١].

ونستطيع أن نفسر هذه الكثرة في الروايات التي وردت عند الصولي بشدة حرصه على استقصاء جميع الروايات المسموعة أو المحتملة ليضعها بين يدي القارئ ليختار منها ما يشاء ، وهذا يدل على معرفة الصولي الواسعة بروايات شعر أبي تمام، كما يدل على قدرته في فهم الروايات المختلفة .

الثاني : نقد الرواية : يبرز الموقف الحقيقي للصولي من الرواية في شعر أبي تمام في مجال نقده للرواية سلبًا أو إيجابًا ؛ لأنه في هذا الجانب قد تخلّص من ربقة الرواية المنقولة من بعض النسخ القديمة ، والتي كان يقف منها– أحيانًا – موقف المسلِّم ، حين يقول : "والصواب عندي كذا . . . ولولا الرواية ما رويت إلا هذا . . ." [٢] . غير أنه هنا غيّر من نظرته ، وأعمل فكره في تمحيص بعض الروايات ، محاولاً إثبات الرواية الصحيحة . ففي شرحه لقول أبي تمام :

وظَلّ بالظَّفَرِ الأفشِين مُرْتديًا   وباتَ بَابَكُها بالذلِّ مُلتحِفَا

قال : " سمعت بعض من يدعي العلم بالشعر يرويه :

فَبَاتَ بالظَّفَرِ الأفْشِينَ مُرْتديًا   وظَلَّ بابَكها بالذُّلِّ مُلتحِفَا

فقلت له : كان يجب أن يكون على غير هذا – وما سمعته قبل ذلك الوقت – كأنه « فظل بالظفر وبات بابكها » فدعا بنسخة ، فكانت كما قلت .

فقال : "ومن أين قلت هذا ؟ قلت : من جهات : منها إن « الالتحاف بالذل »

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ – ٢٩١ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٣ .

«بيات» أشبه منه « بظلّ » لأن « ظلّ » يفعل كذا إذا فعل بالنهار ، و « بات » إذا كان بالليل . وأخرى : إن الليل أولى بهَمِّ المحزون من النهار ، إلى غير ذلك مما لم أقله ، وكان يقول إنه أعلم الناس بنقد الشعر وتمييزه فقال قولاً أكره إعادته" [١] ، ومع أن استنتاجاته لايمكن أن تكون دائماً دقيقة بالقدر الذي يقطع بالرواية الصحيحة إلا أن فيها دليلاً على أنه قد أعمل عقله ، وحرّك فكره ، مستخدمًا ثقافته اللغوية وحسّه النقدي وخبرته في تفسير الشعر .

وقد اعتمد الصولي على جملة من المقومات التي أعانته على تحقيق الرواية الصحيحة ، ومنها اعتماده على مذهب الشاعر في الصنعة ، والنظر إلى اتفاق الرواية مع إعراب البيت ونحوه ، ومناسبة الرواية للمعنى الذي يقصده الشاعر ، كذلك الاعتماد على السياق العام للقصيدة ، ومراعاة لغة العرب وطريقتهم في الكلام أحياناً، ومدى مطابقة الرواية لها ، وتدقيق النظر فيما حدث في الرواية من تصحيف أو تحريف .

ومن أمثلة اعتماده على مذهب أبي تمام في تمحيص الرواية ما أخذه من شيخه أبي مالك الذي يراه الصولي : أعلم الناس بشعر أبي تمام ، وأعرفهم بمذهبه" [٢] روى :

مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّحْوُ مِنه وَبَعدَه صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ النَّضَارَةِ يُمطِرُ

يقول : قلت لأبي مالك : إن قومًا يروونه : « يذوب الضحو » فقال : هذا تصحيف ؛ لأن كلام أبي تمام على خلاف ذلك في شعره كله يردد الكلام ، فذكر الصحو في البيت مرتين [٣] .

يتضح هنا أن الصولي وافق أستاذه في تصحيح الرواية بالاعتماد على أسلوب الشاعر وطريقته في صياغة الشعر . وهذا منهج مقبول في تحقيق الرواية الشعرية إذا اضطربت وليس هناك ما يقطع بصحتها .

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام : جـ٢ ، ص ٦٧ .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٣١ .

(٣) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٥٣٦ - ٥٣٧ .

وفي نقده للرواية اهتم الصولي بمعنى الشعر ، واتخذه ركيزة نقدية في تصويب الرواية ، ومن أمثلة ذلك روايته لقول أبي تمام :

ويغدو يَستثيبُ بلا نَوَالٍ وأنت فَقَدْ تُنيلُ بلا ثَوَابِ

ويرويه قوم : « وأكثر ما تنيل بلا ثواب » وعلى هذه الرواية يكون المعنى أن الأكثر كذا بغير ثواب ، وقد ينيل لثواب وهو قليل ، وهذا عند الصولي خطأ ؛ إذْ يرى أن الرواية الصحيحة ما أثبته ، لانسجامها مع المعنى الذي قصده الشاعر [١] .

ومع أن الصولي قد خطّأ رواية ، وصحّح أخرى بالاعتماد على المعنى ، فإن الذي يظهر هنا أن معنى الروايتين متطابق ؛ إذ إن أبا تمام فضّل الممدوح ، وهو محمد بن الهيثم على حاسده أبي صالح بن يزداد ، بأن جعل الأول ينيل كثيراً دون طلب للثواب ، والعرب تستعمل الكثرة وتريد الدوام ، وجعل الآخر يطلب الثواب والحمد بلا نوال ، والمعنى عينه يُفهم من كلتا الروايتين . وقد لاحظ المرزوقي هذا فعقب قائلاً : " إن الذي يزعمه هرب منه في رواية من يروي « وأكثر ما تنيل بلا ثواب » وهو حاصل في روايته نفسه . . . " [٢] .

ومن أمثلة اعتماده – في اختيار الرواية – على لغة العرب وما درج في كلامهم روايته بيت أبي تمام على النحو التالي :

أنا الحسامُ أنا الموتُ الزؤَامُ أنا الـ ـنّارُ الضّرامُ أنا الضرغامة العَبِدُ

قال : " يرويه أبو مالك : «العَبِد » أي الأنِفُ . والناس يروونه «العَنِد» وهو تصحيف لأنه ما قيل قط : أسد صلب " [٣] ، وإذا كان ليس في كلام العرب ، أو لم يدرج الشعراء في نظمهم وصف الأسد بالصلابة والتحجر ، وإنما يوصف بالشجاعة والأنفة ، والغضب ، وغيرها ، فإن الرواية الصحيحة لدى الصولي ، هي ما رواه أبو مالك عن أبي تمام .

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٣٣٢ .

(٢) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ٢٥١ .

(٣) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ٣ ، ص ١١٤ .

كما استعان الصولي - أيضاً - بعلم النحو وقواعده أداة لإثبات الرواية التي تنسجم مع المعنى الذي يفسر الشعر به ، فهو يختار رواية « شوكَ القتاد » بالنصب في بيت أبي تمام .

كان شوكَ السّيال حسنًا فأمسى دونه للفراق شوكَ القتاد

بدلاً من الرفع ؛ لأنه يذهب إلى أن الشاعر أراد تشبيه ثغر المحبوبة بعدما فارقته بشوك القتاد [١] . ولم يوافقه المرزوقي على رواية النصب وقال : " إنما الرواية برفع « الشَّوْك » على أن يكون اسم « أمسى » ، و « دونه » في موضع الخبر" [٢] .

ويبدو أن المرزوقي أكثر صواباً ؛ لأن مراد الشاعر من شوك القتاد هنا بيان المشقة وتعذر الوصول إلى ذلك الثغر ، وليس المقصود التشبيه فحسب ، كما ذهب إليه الصولي في شرحه .

وأكثر ما ردّ الصولي من الروايات المروية تلك التي قال عنها إنّها مُصحّفة ، ومن أمثلة الروايات التي ردّها بسبب التصحيف الرواية الثانية لقول أبي تمام :

غَدَا يُصرِّفُ بالأموالِ جَرْيَتَها فعَزَّهُ البحرُ ذو التّيار والحَدَبِ

يقول : " وسمعت من لا يفهم شيئًا ويدعي كل شيء ولا أسمّيه ، يقول : جزيتها بالزاي ، يذهب إلى أنه أراد أن يعطي الجزية ، وهذا تصحيف قبيح ؛ لأنه لو بذل الجزية لأخذت منه ، إنما بذل مالاً لاعلى سبيل الجزية " [٣] . وقد نُسبت هذه الرواية إلى أبي علي البغدادي [٤] ، لكن الصولي يقصد بكلامه أبا موسى الحامض الذي كان في عداوة دائمة معه ، والذي يوحي به معنى البيت أن توفلس لمّا رأى استعداد المعتصم للحرب بذل أموالاً كثيرة على سبيل الهدايا والاستلطاف لكسر حدة غضب المعتصم وإغرائه ، كي يعدل عن الحرب . ولم تكن هذه الأموال جِزْية مأخوذة ولم يكن للمعتصم أن يختار غير الحرب في رأي الشاعر ، ولذلك قال : " ولو أجبتَ

---

(١) انظر: الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٣٧٤ .

(٢) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ٣٢ه .

(٣) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ .

(٤) انظر : التبريزي ، شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٦٥ .

بغير السيف لم تُجبِ " [١] . ويكفي هذا المثال مما نسبه الصولي إلى التصحيف ، بيد أن الصولي نفسه اتهم من قِبَل الشُرَّاح بالتصحيف - أحيانًا - في شعر الطائي ، وحين عرض لقول أبي تمام :

رفدوك في يوم الكلابِ وشققوا فيه المزادَ بجحفلٍ غَلاّبِ

قال : " ويروى : كلاّب وهو جيد ، وكلاب : شديد الجرأة على أعدائه" [٢] ، لكنّ المرزوقي ذكر أنه بدَّل الرواية ثم أخطأ في تفسير المبدل ، ويرى أن الرواية الصحيحة: « بجحفل كاللاب » جمع لابة .

وتبدو رواية المرزوقي أقرب إلى الصواب ؛ لأن اللاب هي الحجارة السوداء المنتشرة في الحرّة ، أو الهضاب السوداء في أعالي الجبال والذي يعنيه الشاعر هو تشبيه صورة الجيش المحمل بالسلاح بصورة هذه الحجارة والهضاب السوداء المنتشرة في الحرات والجبال . وهذا التشبيه مما جرت به عادة العرب[٣] . والآمدي يذكر أنه رجع إلى نسخ قديمة لديوان أبي تمام عند تحقيق رواية :

دَار أجلُّ الهَوَى عَنْ أَنْ أُلمّ بِهَا فِي الرَّكْبِ إلاّ وعَيني مِنْ مَنَائِحِهَا

فوجد أن " هذا لفظ محال عن وجهه ؛ لأن «إلاّ» هنا تحقيق وإيجاب ، فكيف يجوز أن تكون عينه من منائحها إذا لم يلمّ بها ؟ وإنما وجه الكلام : « وليس عيني من منائحها » ، ثم قال : وقد كنت أظنّ أن أبا تمام لا على هذا نَظم الشعر ، وأن غلطًا وقع عليه في نقل البيت ، حتى رجعت إلى النسخة العتيقة التي لم تقع في يد الصولي وأضرابه فوجدت البيت في غير نسخة مثبتًا على هذا الخطأ " [٤] .

وبصرف النظر عن مدى صدق دعوى الآمدي في امتلاكه للنسخ التي يفخر بها على الصولي أو عدم صدقها ، فإن في كلام الآمدي اتهامًا ضمنيًا للصولي ، وتشكيكًا في النسخ التي اعتمد عليها في شرحه .

ويبدو أن الصولي قد بالغ في الاعتماد على أبي مالك في إثبات بعض الروايات أو إنكارها ، دون تمحيص أحيانًا ، إذ نجده في مواضع من شرحه يكتفي

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٠ .

(٣) نفسه ، جـ ١ ، ص ٢١١ .

(٤) الآمدي : الموازنة بين الطائيين ، جـ ١ ص ١١٥ - ١١٦ .

بالرواية التي أثبتها أبو مالك ، ويعرض عن جميع الروايات الأخرى ، فلا يذكرها ، ويذهب - أحيانًا - إلى أن بعضها غير صحيح ، فكان هدفًا في كثير من المواضع لانتقادات بعض الشُرَّاح المتأخرين . في بيت أبي تمام :

ما السَّبْقُ إلا سَبْقٌ يُحازُ على جَوَادِ قَومٍ لم يَجْرِ في طَلَقِكْ

قال : " كذا رواه أبو مالك ، وأنكر سائر الروايات " [١] ، ثم ذكر تفسير أبي مالك للبيت ، دون أي تعليق على الرواية ، وقد أنكر المرزوقي هذه الرواية التي رواها أبو مالك ، وذكر أن الرواية الصحيحة هي « ما الستر إلا ستر يحاز على » [٢] ، فتسليم الصولي هنا بما يرويه أبو مالك أوقعه في الزلل ؛ لأن معناه حينئذٍ أن السبق سبق جواد غير تابع للمدوح في الجود ، وهذا مخالف لما كان يرمي إليه الشاعر في مدح ابن الهيثم .

لكن هذا لا يعني أن الصولي قد فقد شخصيته أمام رواية أبي مالك؛ إذ نراه في مواضع كثيرة من شرحه لا يقبل بعض رواياته ، ويختار عليها غيرها . ومن ذلك ما روى في :

يَسْتَنزِلُ الأملَ المنيعَ ببشرِه بِشْرَ الخميلةِ بالربيعِ المُغْدِقِ

كذا رواه أبو مالك «الخميلة » وغيره يرويه « المخيلة » قال الصولي : والذي رواه أبو مالك « الخميلة » وهي القطعة من الرمل ، وأنا لا أختار ما رواه أبو مالك في هذا البيت[٣] ، ولم يكشف سبب ردّه لرواية أبي مالك واختياره غيرها ، ويبدو أن الذي يتطلبه المعنى هو رواية أبي مالك ، لا ما اختاره الصولي ؛ وذلك لأن الربيع المغدق هنا المقصود به المطر الذي يجيء بالماء الكثير ، فتستبشر به «الخميلة» التي هي الأرض السهلة ، وقد فضَّل الخارزنجي ، والمعري ، والتبريزي هذه الرواية على غيرها[٤] .

كما انفرد الصولي برواية « حُجَّة » بضم الحاء في قوله :

مَا سَرّني بِخِدَاجِها مِنْ حُجّة ما بَيْنَ أَنْدلُسٍ إلى صَنْعَاءِ

جاء في تفسيره أي : ما سرني بنقصان حُجَّة خصمك أنك ما ذكرته ، وقد

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٥ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٤ .

(٤) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ١٨٩ .

أورد في شرح الأبيات التي بعده قصة طويلة ذكر فيها غضب المعتصم على خالد بن يزيد الشيباني ، وكل ذلك محاولة منه في تعزيز روايته التي أثبتها ، والصواب فيها أنها حَجة « بفتح الحاء » ، ذلك أن خالداً قد استأذن الخليفة في الحج لما غضب عليه، فأذن له ، ثم رضي عنه ، وردّه إلى منزله ومنعه من الحج[١] . وقد أورد الصولي القصتين في شرحه ، ولا نجد سبباً وجيهاً لهذه الرواية ، إلا ما ذكره ابن المستوفي من أنه إنما فعل ذلك ليصح قوله في تفسير البيت الذي يلي البيت السابق . « لو سرت إلى البلد الذي أرادوا نفيك إليه » وأشار إلى أن هذه الرواية مما صحف فيه الصولي ، وأن الصواب «حَجَّة» بفتح الحاء ، ولاعلاقة لقصة خالد مع خصمه بهذا البيت .[٢]

من خلال ما تقدم يمكن القول بأن الصولي قد بذل جهداً ملحوظاً في رواية شعر أبي تمام ، سواءً كان ذلك في مجال المفاضلة بين الروايات ، أم في مجال نقد الرواية وردّها . وقد أبان في كثير من المواضع عن إدراكه لمختلف الروايات ، ومعرفته بأساليب شعر أبي تمام ، وفهمه العميق للمعاني ، والأغراض التي كان يرمي إليها الشاعر . فإذا فضّل رواية على أخرى فإنه يحكِّم انسجام الرواية مع المعنى الشعري، ويختار ما يكون ملائماً لفظاً ومعنى مع أسلوب أبي تمام في كثير من الأحيان ، وهو في نقده للرواية يعتمد على معايير أساسية تؤيد قبول هذه الرواية ، أو ردّ تلك ، ويُعَدُّ التصحيف من أقوى الأسباب الفنية في ردّ الرواية عنده ؛ وذلك لما فيه من الانحراف بالشعر عن وجهته ، والتغيير في مراد الشاعر وقصده ، على أن رواية الصولي لمجمل شعر أبي تمام ليست كلها مستقيمة وخالية من الأخطاء ، وقد خطّأه بعض الشُرَّاح في بعض الروايات التي أوردها في شرحه ، وموقف الصولي من رواية الشعر يدلّ على أنه قد بذل جهداً محموداً - في هذا المجال - في عصر لم تستقر فيه قواعد الخط والإملاء ، خاصة بالنسبة لكتابة شعر شاعر مثل أبي تمام يتعمد المشاكلة اللفظية ، وانحراف الأسلوب عما كان سائداً في القرن الثالث الهجري .

---

(١) انظر: الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ١٣ .

ثانيًا : المنظـــور اللغـــوي والنحـــوي :

كان الصـــولي يتمتع بثقافة لغويـة ونحوية عميقة ، برزت بوضـــوح في كتابـه « أدب الكتاب » [(١)] ، حيث تحدث عن آرائه في اللغة ، والنحو ، والصرف ، وقد تجلّت بعض جوانب هذه الثقافة في استعانته باللغة والنحو في شرحه لديوان أبي تمام ، وهذا المنظور اللغوي مدخل مهم لفهم الشعر ، وتوضيح معانيه ؛ لأن الشعر فن لغوي في المقام الأول .

المنظـــور اللغـــوي : عالج الصولي في شرحه لشعر أبي تمام قضايا لغوية كثيرة ، منها ما يتصل بغريب الألفاظ ، ومسائل الاشتقاق ، والترادف ، والمشترك اللفظي ، والمعرّب ، ولغات بعض القبائل ، وغيرها ، مما يعين على شرح لغة أبي تمام ، ويزيل الغموض عنها ، وقد استشهد في شرحه بأقوال بعض اللغويين السابقين ، الذين ذكرنا بعضهم عندما تحدثنا عن مصادره ، ومما استدل به من أقوالهم في شرحه للغة أبي تمام ، قول الأصمعي في أن الشَّنَبَ : هو برودة ماء الأسنان وعذوبته ، فالصولي في شرح بيت أبي تمام الآتي :

من شَكلِهِ الدُّرُّ في رَصْفِ النِّظَامِ ومن صِفَاتِهِ الفِتْنَتَانِ : الظَّلْمُ والشَّنَبُ

قال : " صفة خلق أسنانها كالدر في صفائه ، واتساق نظمه ، وصفتها أنها باردة الريق والظَّلْم " [(٢)] ، ثم ذكر مع رأي الأصمعي رأيًا آخر يفسر الشنب بحدة الثغر ولم ينسبه إلى أحد ، وممن فسره بذلك ابن الأعرابي والجرمي[(٣)] .

وفي تفسيره للفظة « عائر » الواردة في قول أبي تمام :

قَومٌ إذا أعيُنُ الآمالِ جِئنهُمُ رَجَعْنَ مُكتحِلاتٍ عائِرَ الرَّمَدِ

---

(١) انظر : الصولي : أدب الكتّاب ، ت : محمد بهجة الأثري ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، د : ت ، ص ١٣١ ، ١٧٥ ، ٢٠٥ ، ٢٥٥ .

(٢) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٣٠١ .

(٣) انظر : جمال الدين بن منظور : لسان العرب ، ط : دار صادر ، بيروت ، د : ت ، مادة شنب .

ذكر أنه من رمد العين ، ثم استعان بتفسير أبي حاتم السجستاني في وصفه الذي قال فيه : " هو لحم يقطع من الأجفان فلا تنطبق" [١] ، وفسره ابن المستوفي بأنه « هو الذي يحسُّ به الإنسان كالوخز في العين » [٢] ، ولفظة « عائر » تدل على مجيء الشيء فجأة سريعًا ، ومنه قولهم سهم عائر أي لا يدرى من الذي رمى به .

ومن أهم القضايا اللغوية التي اشتغل بها الصولي في شرحه « **تفسيرغريب ألفاظ أبي تمام** » ، وقد تأثر بطريقة المعاجم اللغوية ، فنقل كثيرًا من مادتها وأثبته في شرح المبهم والغريب من الألفاظ ، وساق عليها عددًا من الشواهد التي استمدها من بعض مصنفات الغريب ، ومعاجم اللغة ، حتى ليخيل إلى المتأمل في شرحه أنه يقرأ في معجم لغوي ، وما ذلك إلا لأن الشاعر نفسه : " إذا أراد أن يجري على سجيته جاءت ألفاظ شعره فصيحة مألوفة ، فإذا قصد التكلف كثرت في شعره تلك الألفاظ الغريبة " [٣] .

ولم يسلك الصولي في تفسيره للغريب طريقة موحّدة ، فهو ينتزع الكلمة - أحيانًا - من السياق ويذكر معناها المعجمي ، ثم يذكر الكلمة في عدد من الاستعمالات المختلفة ، تُعطي معاني متعددة ، ثم يذكر دلالة الكلمة في شعر أبي تمام وقد يعبِّر عن ذلك بقوله : ومعناها هنا كذا .. ، أو هي ها هنا كذا . . .

وربما عكس ذلك ، فيبدأ بشرح الكلمة في البيت ، ثم يقدم المعاني المعجمية الأخرى ، ومن ذلك تفسيره لهذا البيت :

تَعْلَمْ كَمِ افْتَرَعَتْ صُدُورُ رِمَاحه وَسُيُوفه من بلدة عذراء

يقول : " كم افتتح من مدينة لم تُفتح قبله ، ثم قال : أصل الافتراع إخراج الدم ، ومنه الحديث « لافرعة ولا عتيرة » والفرعة ذبيحة كانوا يذبحونها لآلهتهم نذرًا

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام : جـ ٣ ، ص ١٠٩ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٧١١ .

(٣) علي بن عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ٧١ .

عليهم أول بطن تلد الناقة ، وأفرعت دمه : صبّيته . . . وقيل افترعها : علاها" [١] .

وكان يكفي أن يقف بشرحه عند حدود معنى افترع بمعنى افتتح ؛ لأن الشاعر إنما شبه البلدة بالفتاة ، ووصفها بالعذراء ؛ لأنه أول من دخلها . لكن الصولي لم يكتف بهذا ، وإنما استطرد في تتبع المعنى المعجمي للكلمة .

كما شرح الصولي بعض غريب أبي تمام بما يرادفه ، والترادف في اللغة أن يختلف اللفظان في الحروف لكن المعنى واحد . واستخدام اللفظ المرادف الذي هو أكثر شهرة واستعمالاً يوضح معنى اللفظ الغريب الذي أهمل وترك استعماله ، فلفظتي «مهايع» و « محّت » في قول أبي تمام :

أرى الناسَ مِنْهاجَ الندَى بعدَما عَفَتْ مَهَايعُهُ المُثْلَى ومَحّتْ لَوَاحِبُهْ

يفسرهما الصولي بقوله : ومهايع : جمع مهيع وهو الطريق الواسع ، . . . ومحّت : درست وأخلقت [٢] . وفي الاستعمال المشهور طريق واسع بدلاً من مهيع ، وأخلقت ودرست توضح معنى محّت لأنها أكثر استعمالاً ، وإن كان الشرح بالمرادف قد يكون تقريبياً ولا يؤدي المعنى نفسه ، ذلك لما بين بعض الألفاظ المترادفة من فروق.

على أن الصولي اهتم في شرحه للألفاظ بالمشترك اللفظي أكثر من غيره ؛ لأن الألفاظ التي لها دلالات متعددة ، أو معان مشتركة قد توهم بالاشتباه في المعنى المقصود ، فلا بد للشارح من أن يدفع التوهم بإيضاح معنى اللفظ في النص . من ذلك كلمة « العهد » التي كررها أبو تمام في قوله :

لَيالينَا بالرَّقْمَتَيْنِ وأَهلِهَا سَقَى العَهْدَ منك العَهْدُ والعَهْدُ والعَهْدُ

جاء في كتاب الصولي : " قد عاب هذا على أبي تمام من لم يعرف الشعر ، ولا يعرف اللغة ، وأبو تمام شاعر قوي في علم اللغة ، وأيام العرب ، وأخبارها، وأمثالها . وهو يستعمل هذا كثيراً في شعره ، ويقصده ، ويطلبه ، ويعرف فيه" [٣] .

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام : جـ ١ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .

(٣) نفسه ، جـ ١ ، ص ٤٦٩ .

ثم يأتي على شرح اللفظة فيقول : قوله : سقى العهد منك ، فهذا العهد يعني به سقى الوقت الذي عهدناك فيه بالرقمتين . وقوله : «العهد والعهد والعهد» يقول : سقى هذا العهد سائر ما يقع عليه هذا الاسم ، قال : وأنا مفسر ذلك : فالعهد : الحفاظ ، ومنه قولهم : ما لفلان عهد ، والعهد : الوصية ، من قولهم : عَهِدَ إليّ وعهدت إليه ، أي أوصاني وأوصيته ، والعهد : المطر ، وجمعه : عهاد ، وهو الذي قفى به ؛ لأنه وصفه في البيت الذي يليه فقال : « سَحَابٌ مَتَى يَسْحَب على النَّبْتِ ذَيْلَهُ» . والعهد : ما عهد عليه غيره من وصال ، وشباب وَوِدّ . والعهد : الأمان ، قال الله تعالى : ﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمين ﴾ [١] ، أي أماني ، والعهد اليمين ومنه قولهم : عليّ عَهْدُ اللّه . وهذا كله عن أهل اللغة ، وقد ذكره أبو عبيدة في كتاب « غريب الحديث » ، والعهد من غير أبي عبيدة الملح ، ولم أسمعه إلاّ من جهةٍ واحدة ، حدثني إبراهيم بن المعلّي قال : سمعت محمد بن الحسن أبا العباس الأحول يقول : العهد المِلْح ، ومنه قولهم : مِلْحُ فُلانٍ على ركبته ، أي عهده غير محفوظ عنده ، ويقرر الصولي في نهاية شرحه للبيت أن أبا تمام يقصد : « سقى أيامنا التي اجتمعنا فيها الوصل الذي عهدتك عليه ، والعهد : اليمين التي حلفنا بها ، والعهد : المطر » [٢] .

لقد بدأ الصولي تفسيره لكلمة العهد بالتعميم ، ثم استغرق في تخريج بقية المعاني من كتب اللغة ومصنفات الغريب ، ولا حاجة مثلاً إلى ذكر الأمان والملح وغيرهما ، لكن فكرة تتبع المعاجم وطريقتها في السرد والاستشهاد سيطرتْ عليه في معظم شروحه لغريب الألفاظ ، وقد لاحظ ابن المستوفي ارتباك الصولي في شرحه هنا فعقَّب عليه " إن قوله سقى هذا العهد سائر ما يقع عليه هذا الاسم ، فيه اضطراب ؛ لأنه ذكر جملةً مما يقع عليه هذا الاسم ، ثم اقتصر على عهد الوصال وعهد اليمين ، وعهد المطر " [٣] . كذلك أنكر الآمدي على الصولي تفسيره واستطراده فقال : " قد فسر قوم «يقصد الصولي» هذا البيت بأعجب تفسير وأبعده عن الصواب ، فذكروا وجوه العهد على كم ينصرف ، وجعلوا معنى كل واحد مخالفًا لمعنى الآخر ، والرجل

---

(١) سورة : البقرة : الآية ١٢٤ .

(٢) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٣) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ٦٩٧ .

إنما أراد بالعهد الأول : الوقت الذي عهد أحبابه في هذه المنازل فدعا لذلك العهد بسقيا العهاد التي هي الأمطار المتتابعة ، أي سقى العهد منك أول العهاد وآخرها ووسطها ، فلذلك قال «العهد والعهد والعهد» " [١] . أما المعري ، والمرزوقي فلم ينقدا شرح الصولي في هذا الموضع ، كما وهم بعض الدارسين [٢] ، وإنما ذكرا معاني مختلفة قد تحْتملها لفظة «العهد» ، وكل ما صدر من الشُرَّاح في تفسير العهد احتمالات لا تدل على أنهم ظفروا بما أراد الشاعر . والراجح أن ما ذهب إليه الآمدي في تفسير العهد بأنه تتابع المطر هو الأقرب إلى الصحيح ، يقوي ذلك قوله في البيت الذي بعده « سَحَابٌ مَتَى يَسْحَبْ على النَّبْتِ ذَيْلَهُ» ومطر يسحب ذيله يدل على التكرار ، وأن المطر في إثر المطر ، حتى لا يقوى على النمو في مهابطه لا نبت صغير ولا كبير . كذلك إسناده هذه الأسماء إلى الفعل «سقى» يشير إلى أنه دعا بما تستعمل فيه السقيا ، ولا يكون إلا الماء من غيث ومطر .

وأبو تمام يكثر من تكرار بعض الألفاظ والصيغ في شعره ، التي تختلف في معانيها باختلاف السياق الذي وردت فيه ، ولكن الصولي كثيراً ما يشرح تلك الألفاظ ويفسرها تفسيراً معجمياً متطابقًا في أغلب المواضع ، فيحدث بذلك تكراراً غير مفيد، لا يخدم السياق الذي جاءت فيه [٣] . كما أنه أحيانًا يتزيّد في تفسيره للكلمة ، فيأتي – مثلاً – بمثلث الكلمة ويشرح معناها على الأوجه الثلاثة ، مثلما فعل في تفسير كلمة « شِكْل » التي وردت في قول أبي تمام :

كَوَاعِبُ أَتْرَابٌ لِغَيْدَاءَ أَصْبَحَتْ وليسَ لَهَا في الحُسْنِ شِكْلٌ ولا تِرْبُ

قال الصولي : " والشَّكْلُ : المثل ، والشِّكْل : الدل . والشُّكل : لونان مختلفان" [٤]. واستشهد على ذلك بقول جرير :

---

(١) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ١٦٣ .

(٢) انظر : محمود الربداوي : الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام ، ط : دار الفكر ، د : ت ، ص ١٦٥ .

(٣) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ .

(٤) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ .

فما زَالَتْ القَتْلى تَمُجُّ دِمَاءَهَا بِدِجْلَةَ حَتَّى مَاءُ دِجْلَةَ أَشْكَلُ [١]

إن الصولي يهدف من وراء هذا الإسهاب والتفنن في استخراج المعاني إلى تقديم مادة لغوية دسمة بين يدي القارىء ليختار منها ما يراه مناسبًا لمعنى البيت المشروح ، ويعرض ما يدل على اتساع مجال ثقافته اللغوية ، كذلك استعان الصولي في شرحه لألفاظ أبي تمام بلغة العرب وما صح من كلامهم ، واهتم بذكر لغات بعض القبائل أحيانًا كتميم ، وقيس ، وطيء ، لكنه في الغالب يذكر أنها وردت في كلام العرب دون تحديد للقبيلة . ومن أمثلة ذلك استدلاله على صحة وصف أبي تمام للدهر بالحمار في هذا البيت :

لَعَدَّلَ قِسْمَةَ الأَيَّامِ فِينَا وَلَكِنْ دَهْرُنَا هَذا حِمَارُ

قال : " قد عاب من لا يدري عليه قوله « وَلَكِنْ دَهْرُنَا هَذا حِمَارُ » وأشعار الناس ليس كلها جيدة ، ولكن منها الجيد النادر ومنها الوسط ، ومنها الدون ، فما جاز فليس بمعيب على أحد ، ومن كلام العرب : دهر عثور وكاب ، وزمان جذع وقارح ، وزمان مائق ، فقال أبو تمام : « وَلَكِنْ دَهْرُنَا هَذا حِمَارُ » وهذا وإن لم يكن جيدًا نادرًا فليس بخطأ ولا معيب . . . وقالوا دهرنا أعوج وبليد ، وقيل : الدهر إذا لجّ كالبغل الحرون والجمل الهائج . . . " [٢] . فالصولي هنا وفي غيره من المواضع تسيطر عليه النزعة المعجمية التي تنظر إلى أن الألفاظ مستعملة على الحقيقة ، بينما يستخدم أبو تمام بعض الألفاظ استخدامًا مجازيًا ، لا يستطيع المعجم وحده أن ينهض بتفسيره ، إنما يكون معجمه من النصّ نفسه ، وتكون دلالة اللفظة محكومة بعلاقتها مع اللفظة المجاورة لها كما في العبارات التالية :

ماء الدهر ، أحول الأخلاق ، نفس فضاء ، ظلال مشرقات ، طعنة نجلاء ، لهيبٌ رواء ، نهار مقمر ، سمين الحسب ، عرض مستريح ، ونحوها .

---

(١) ديوان جرير - ت - محمد أمين عطية ، ط : دار المعارف - مصر ، د : ت ، ص ٣٦٧ .

(٢) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٥١٢ .

لكن الصولي لاحظ أن الطائى أحيانًا يترك الأجود من الناحية اللغوية ، في بعض الألفاظ ، من ذلك ، الفعل « أكسبه » في قوله :

لَهُ جَلَالٌ إِذَا تَسَرْبَلَهُ أَكْسَبَهُ البَأْوَ غَيْرَ مُكْتَسِبِهْ

ذكر أن الأجود أن يكون « كَسَبه البَأْوَ » ، ويقال كسبته المال ، وهو المختار ، وأبو مُحَلِّم [١] لا يجيز غير هذا ، وغيره من العلماء يقول : كسبته وأكسبته [٢] .

كما لاحظ عليه كذلك تركه للهمز في « أومأت » من قوله :

وماذَا عَلَيْها لَوْ أَشَارَتْ فوَدَّعَتْ إلينا بِأَطْرافِ البَنَانِ وَأَوْمَتِ

قال : ترك الهمزة في « أومت » وحقه « أومأت »غير أنه ذكر أن الشعراء قبله قد فعلوا هذا ، واستشهد على ذلك بشعر لعمر بن أبي ربيعة ترك فيه همز « أومأت » وكذلك كثيّر في تركه الهمز في « لم ترأمْ » [٣] .

أما وقوفه عند قضية الاشتقاق في الألفاظ وبيان ما يمكن أن يشتق منها من أفعال ، وأسماء ، ومصادر ، فأمثلته كثيرة ومتعددة ، وهذا يؤكد قدراته اللغوية الواسعة ، من ذلك ما أورده في « الوُسّج » ، و « الرّواتك » في قول أبي تمام :

ما عَلَى الوُسَّجِ الرَّواتِكِ من عَتْـ ـبٍ إِذَا مَا أَتَتْ أَبَا أَيُّوبِ

" وسجت الناقة ، الناقة تسج ، وسجًا ، و وسيجًا ، و وسجانًا ، وعسجت تعسج ، إذا سارت سيرًا سريعًا ، ورتكت : ترتك ، وترتك ، رتكًا ، و رتكانًا ، إذا اضطربت ، وتنقلب من سير إلى سير " [٤] ، كما أشار في موضع آخر إلى أن : الهيجاء : تمد وتقصر ، والهيجاء : الحرب : اسم مشتق من الهيج [٥] . ولا نستطيع

---

(١) هو محمد بن سعد ، ولد في السنة التي حج فيها المنصور ، وتوفي سنة ٣٤٨ ، كان عالمًا بالشعر واللغة ، وله من الكتب كتاب الأنواء ، وكتاب الخيل ، وكتاب خلق الإنسان . انظر : ابن النديم ، الفهرست ، ص ٤٦ .

(٢) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٣٢١ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٤٤ .

(٤) نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ١٦٨ .

إحصاء ما جاء في هذا الباب لأنه يكاد يكون ظاهرة واضحة في معظم شرحه .. والإحاطة بكل ما جاء فيها أمر غير ميسور .

كذلك تنبه في تفسيره لبعض الألفاظ إلى تطور معنى اللفظة ، وتنقلها في الاستعمال من الأصل إلى الفرع ، وهو ما يعرف حديثًا « بالتطور الدلالي » للكلمة . ومما وقف عنده كلمة « الحَفَضُ » من قول أبي تمام :

أَقرِمْ بَكْرٍ تُبَاهي أَيُّها الحَفَضُ وَنَجْمَها أُيُّهذَا الهَالِكُ الحَرَضُ

ذكر أن "الحَفَض : أصله متاع البيت ، ثم صُيِّر الجمل الذي يحمله حَفَضًا ، ثم قيل للذي لا يحسن العلم : إنك لحَفَضٌ يُهزأ به" [١] . ويلاحظ أن كلمة « الحَفَض» كانت في الأصل تطلق على البيت ، ثم تنقلت الدلالة ، وتغير الاستعمال ، وما إطلاقهم على الذي لا يحسن العلم حَفَضاً إلا تشبيهًا له بالصغير والضعيف من الإبل [٢] .

اتضح من خلال هذه النماذج أن الصولي قَد قَدَّم جهدًا لغويًا متميزًا فيما عالجه من قضايا لغوية متنوعة ، وما تطرق إليه من مسائل خاصة في لغة أبي تمام ، كما برزت طريقة تعامله – من خلال المنظور اللغوي – مع ألفاظ الشاعر ، من شرح معجمي أو تفسير ، بلفظة مرادفة ، أو مضادة [٣] ، أو بجملة يسيرة [٤] ، ونحو ذلك ، كذلك كشف الصولي عن أهمية السياق الشعري ، والتراث اللغوي العام في تناول هذا العنصر المهمّ من عناصر شرح الشعر .

❁ ❁ ❁

المنظور النحوي : اتضح كيف كان الصولي يسهب في تناوله للقضايا اللغوية في شرحه لكنه في مجال علم النحو وما يتعلق به من مسائل ، كان على العكس من ذلك إلى حد كبير ، وكانت غايته تقديم ما يخدم المعنى الشعري فحسب . إن النحو هو الذي يفصح عن أصول المقاصد من التركيب ، فيعرف مثلاً المبتدأ والخبر ، والفاعل

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٥٩٢ .

(٢) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة : حفض .

(٣) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٤٥٠ ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٦٩ ، جـ ٢ ، ص ١٢١ .

والمفعول ، والعمدة والفضلة وغيرها ، فمراتب هذه المصطلحات النحوية وإعرابها يعين على فهم وظائفها الدلالية ، فيبرز المعنى ويتضح القصد ، ويهدف الشارح إلى أن يكون الإعراب موافقًا للمعنى ، فإن اختلف فإنه غالبًا ما يفضي إلى اختلاف في جهة المعنى ، وإذا ما جوّز الشارح أحد الوجهين فإن لاختيار أحدهما قصداً في حسن نظم الكلام ، وهو ما تعلّق هدف الصولي به في إعرابه لـ«الثأي» في قول أبي تمام :

أَقُولُ لأَهْلِ الثَّغْرِ قَدْ رَأَبَ الثَّأي وأُسْبِغَتِ النَّعْمَاءُ والْتَأَمَ الشَّعْبُ

فكلمة «الثأي» عنده في موضع رفع ، كأنه هو الذي فعل ، ومنه قولهم : دلع لسانُه ، ودلع لسانَه ، ويعلل الصولي اختياره للرفع بقوله " وإنما قلت هذا لأن الثأي ، إذا كان بلا ضمير لخالد « الممدوح » في « رَأَبَ » ينصبه كان الكلام أحسن انتظامًا[1] . بينما المرزوقي يعربه مفعولاً ويرفعه ؛ لأن الفعل قبله مبني للمجهول ، والرواية الصحيحة عنده « رُئِب الثأْيُ » [2] . ويظهر أن اختيار الصولي أقرب إلى الصواب لما فيه من توافق وانسجام بين التركيب في نهاية الشطر الأول ومماثله في نهاية الشطر الثاني ، بحيث يكون على هذا النحو : « رَأَبَ الثأيُ ، والتَأَمَ الشَّعْبُ » .

واعتمد الصولي في مواضع من شرحه على بيان جمع اللفظة المفردة أو مفرد الجمع ، من أجل إزالة الإبهام عن ذهن القارىء ، من ذلك ما أجراه على لفظة "الشُّوْل" التي جاءت في قول أبي تمام :

الشُّول ما حُلبت تَدَفَّقَ رسلُها وتَجِفُّ دُرَّتُها إذَا لَمْ تُحلَبِ

قال : " الشول : الإبل التي أدبرت ألبانها ، الواحدة شائل ، وهي أيضًا التي تُرى أنها لا قح ، ولم تلقح . والجمع : شوال " [3] .

كان هدف الصولي توضيح معنى " « الشُّول » فأتى بالمفرد وبيّن دلالته ، وتتضح المفارقة في ذلك عندما نعلم أن ابن المستوفي وإن كان وافقه في معنى «الشُّول » على أنها الإبل التي أدبرت ألبانها ، فإنه يرى أن قوله الواحدة « شائل »

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ١٨٢ .

(٣) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

بغير « هاء » ليس صحيحًا لأنه جمع على غير قياس . ثم قال في تفسيرها : هي الناقة التي تشول بذنبها للقاح ، ولا لبن لها أصلاً ، وجمعها شُوَّل مثل راكع ورُكّع [١] .

وعلى هذا فإن لفظ « شوّل » لا يكون مفرده إلا « شائلة » بالهاء ، ويرجع اهتمام الصولي بالجمع ، ومدى موافقته للقياس إلى محاولته في دفع ما قد عيب به أبو تمام من جمع بعض الألفاظ على غير القياس ، كما في جمعه "غُرْضة" على "أغراض" في هذ البيت :

بُدِّلَتْ عَبْرَةً مِنَ الإِيمَاضِ يَوْمَ شَدُّوا الرِّحالَ بالأَغْراضِ

قال : " قد عاب عليه من أحب أن يجعل التعجب مما يأتي به وُصْلة وسببًا ليتكلم ويُعْرفَ . فقال : لا يجوز أن يجمع « غُرْضة » على أغراض ، فلا يقال في نقرة إذن أنقار ، لأنّا نقول : نُقرة ونُقَر وأنْقار ، وغُرْضةً وغُرَضٌ وأَغْراض ، وقُرْصة وقُرَص وأقراص ، جَمْع جَمْعٍ ، نعوذ بالله من غلبة الجهل . وقال أبو عبيد في «الغريب المصنف» عن ابن الأعرابي : غُرْضة وغُرَض في أداة الرحل ، حكى ذلك عن ابن الأعرابي أنه لا يجوز أغراض . وأنا أعوذ بالله من أنْ يكون ذهب مثل هذا على ذلك العالم" [٢] . إن القياس لجمع الكثرة من « فُعْلَة : - اسمًا - فُعَل » كغُرْفة وغُرَف وعُدّة وعُدَد [٣] وقد يجوز ما ذهب إليه الصولي في دفاعه عن استعمال الشاعر .

كذلك من المسائل التي عرض لها في شرحه ، مسألة عود الضمير وتحديد ما يتصل به ، ذلك أن الوهم والغلط فيه كثير ، إذ لا يعرف بعض القراء - أحيانًا -على أي شيء يُسند الضمير في الكلام ، وفي شعر أبي تمام ضمائر كثيرة اختلف حولها الشراح ، بل إن الشارح قد لا يقطع بجهة عود الضمير ويكتفي بالترجيح - أحيانًا - مثال ذلك عند الصولي إرجاع الضمير « ها » في « مِنْها » من قول أبي تمام :

يَجِفُّ الثَّرى منها وتُرْبُكَ لَيِّنٌ ويَنْبُو بِها مَاءُ الغَمَامِ ولا تَنْبُو

فهو يسند الضمير (ها) إلى المكرمات ، وهي قبل بيتين من هذا البيت ، على سبيل الجواز ، لكن الاختيار عنده أن يكون الضمير راجعًا على « رَبِيْعة » في البيت

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ١٢٧ .

(٢) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٦٠٩ .

(٣) انظر : ابن مالك : شرح الكافية الشافية ، ت : عبد المنعم هريدي ، ط : دار المأمون ، الأولى ، ١٤٠٢هـ ، جـ ٤ ، ص ١٨٣٧ .

السابق [١] . ويترجح اختيار الصولي ؛ لأن الشاعر جعل الممدوح قُطْبَ المكرمات من سؤدد وغيره ، وعلى هذا لا يمكن أن يجتمع في المكرمات /الممدوح ، جفاف ولين في آنٍ واحد . هذا من ناحية المعنى ، أما من الناحية النحوية ، فإن الضمير خشية اللبس يجب أن يعود إلى أقرب مذكور - كما يذكر النحاة .

وكما كان من عادة الشُرَّاح أحيانًا الوقوف عند بعض المسائل التي كانت محل خلاف بين المدارس النحوية ، فإن الصولي لم يشذّ عنهم ، إذ نستطيع أن نجد في شرحه شيئًا من ذلك ، وعلى سبيل المثال ذكر أن البصريين قد خطّأوا الكسائى في مسألة بالبصرة ، عندما خالفهم في صرف كلمة « أوْلق » في هذا البيت :

ذو أَوْلقٍ تَحْتَ العَجَاجِ وإنَّما من صِحَّةٍ إفْراطُ ذاك الأَوْلَقِ

والكلمة عند الصولي مصروف « فوعل » ، وليس « فاعل » . قال : وألق الرجل فهو مألوق إذا جُنّ ، والذي زعموه على الكسائي أن ابن عيينة سأله عن أولق ، فقال : هو أفعل لا ينصرف [٢] ، وأولق مصروفة ، وإن كانت على وزن الفعل ، ذلك لأنه لم يتوفر فيه شرط أصالة الوصفية ، إذ وصفيته هنا عابرة فلا اعتداد بها [٣] .

نكتفي بما قدمنا من نماذج على بعض أمثلة التطبيق النحوي الذي أجراه الصولي في شرحه على بعض الألفاظ والتراكيب في شعر أبي تمام ، مما كان يتخذه وسيلة للوصول إلى توضيح المعنى ، وتجدر الإشارة إلى أنه لم يتضح للصولي مذهب نحوي محدد ، ولم يُظهِر في المسائل النحوية التي عرض لها تحيزًا إلى أي من المدارس النحوية المعروفة ، وكان من شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم بصريون ، وكوفيون وبغداديون ، فهو يأخذ من الآراء ما يخدم المعنى ويؤدي وظيفة الشرح الذي هو بصدده - دون تحيّز لمدرسة بعينها .

ومن خلال العرض السابق يتضح مدى أهمية المنظور اللغوي الذي استعان به الصولي ، بحيث يمكن القول بأنه يعدّ من أهم الأدوات التي استعان بها في شرحه لشعر أبي تمام .

---

(١) انظر : الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٥ .

(٣) انظر : ابن مالك ؛ شرح الكافية الشافية ، جـ ٣ ، ص ١٤٥٠ .

ثالثًا: المنظـــور البلاغـــي والنقـدي:

لم تذكر المراجع - التي طالعناها - أن الصولي ألّف كتابًا خاصًا في النقد ، أو في البلاغة ، وإنما كانت آراؤه النقدية والبلاغية مبثوثة في كتبه ومؤلفاته ، مثل كتاب «أخبار أبي تمام » ، والرسالة المثبتة في مقدمته ، وكتاب « أخبار البحتري » ، ومقدمته لديوان أبي نواس ، وبعض الآراء النقدية والإشارات البلاغية المنتشرة في شروح الدواوين التي صنّفها ، والذي يهمنا هنا هو ما تناوله من الناحية التطبيقية في شرحه لديوان أبي تمام .

المنظور البلاغي :

عاش الصولي في عصر لم تزل المباحث البلاغية فيه ممتزجة بالدراسات النقدية ، فلم تكن قد اتضحتْ بَعْدُ حدود كثير من المصطلحات ، والتعريفات الخاصة بكل منهما ، وعلى الرغم من ذلك فإنه قد تنبّه إلى الدور الذي يمكن أن تؤديه العناصر البلاغية في تحليل الشعر ، وبيان المعاني التي عرضها الشاعر من خلال تحليل الأساليب البلاغية ، والصور البيانية التي وردت في شعره . وما وقف عليه الصولي في شرحه لديوان أبي تمام من قضايا بلاغية يؤكد عنايته ، واهتمامه بكل العناصر ، ويدل على معرفته الواسعة ببعض وجوه البيان وأنواعه . وليس صحيحًا ما زعمه بعض الباحثين من أن الصولي لم يكن له في شعر أبي تمام إلا بعض التدخلات القليلة في الجناس والمقابلة [1] ، إذ أحصينا له في شرحه ما يزيد على ستين موضعًا تعرض فيها لكثير من العناصر البلاغية : كالتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ،والطباق ، والجناس ، والمماثلة ، والمقابلة ، والتصدير ، والمشاكلة ، وغيرها ، بل إنه في شرحه جعل المعرفة بقضايا البلاغة شرطًا لازمًا في تكوين أدوات الناقد والشارح الجيد .

---

(١) الهادي الجطلاوي : خصائص الشروح العربية على ديوان أبي تمام ، مجلة فصول ، عدد ١ ، ١٩٨٥م ، ص ١٣٧ - ١٥٢ .

وفي شرحه للبيت السادس من القصيدة الأولى في الديوان التي مدح بها أبو تمام خالد بن يزيد الشيباني :

وَلَطَابَ مُرْتَبَعٌ بِطَيْبَةَ واكتستْ بُرْدَيْنِ بُرْدَ نَدًى وبُرْدَ ثَراءِ

ذكر أن : " هذه كلها استعارات منه ، وكذلك كلام العرب جارٍ عليها ، فأما قوله: " ولطاب مرتبع بطيبة" ، وقوله "ولم يُخصَصْ كُداءٌ منْه بالإكْداءِ" - في البيت الذي قبله - فإن هذا تسميه العامة : المطابق ، ويغلطون ، وليس يعرفه ويميز عنه إلاّ من نفذ في علم الشعر والعروض والقوافي ونقده ، وعرف حُلي الشعر ، ومحاسنه ومعانيه ، وهذا يسمّى "المجنّس" ، وهو أن يأتي بلفظٍ واحدٍ لمعنيين ، فكأنه جنّس اللفظ فصيّره لنوعين وجنسين" [١] .

ويلاحظ هنا قدر من اضطراب المفاهيم وعدم معرفة الفروق الحاسمة بين المباحث البلاغية في ذلك الوقت ، الأمر الذي جعل تمييز هذه المصطلحات إنما ينهض به من نفذ في علم الشعر ونقده ، لذا فإن الصولي يبيّن غلط العامة ويصحح مفهومهم في الجناس ، ويضع له تعريفًا محددًا يزيل به بعض اللبس ، ويعرّف القارىء بمعنى المصطلح الذي يعتمد عليه كثيراً في الشرح ، لأن أبا تمام مولع بالبديع ، وبخاصة الجناس والطباق ، ولقد « جنّس » أربعة تجنيسات في بيت واحد ، ولعله لم يسبق إليه" [٢]، وهو قوله :

بِحَوَافِرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صُلَّبٍ وأَشَاعِرٍ شُعرٍ وخَلْقٍ أَخْلَقِ

فكل لفظين متواليين يتشابهان في الحروف - في هذا البيت - وبينهما جناس غير تام . وقد اهتم الصولي بهذا المحسّن اللفظي في شعر أبي تمام ، وأفرط في ذِكْر مواضع الألفاظ المتجانسة ، لذلك فإنه حين عرض له في هذا البيت :

كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرٍ وتَحْتَ عارِضِها من عَارِضٍ شَنِبِ

قال : "في هذا البيت تجنيسان : قوله سنا ، وسنا ، وعارض وعارض ، وهذا

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) أبو هلال العسكري : الصناعتين ، ص ٣٣٠ .

يطول إن أردت ذكره كلّما مرّ بي ، ولست أذكر بعد هذا مطابقًا ولا مجانسًا : لأني قد ذكرت ما فيه كفاية ، ولكني أذكر غير هذه الأصناف إن مرت في الشعر" [١] . والألفاظ المتجانسة هنا متطابقة الحروف ، مختلفة المعنى ، وهذا هو الجناس التام ، إذ إن «السنا» الأولى ضوء الحرب ، والثانية ضوء جارية تشبه القمر ، و« عارض » الأولى تعني أهوال الحرب ومناياها ، و« عارض » الثانية حدة أطراف أسنان الجارية وبرودتها .

ومع أن الصولي في النص السابق أشار إلى أنه لن يعود إلى ذكر الجناس ، وأنه قد ذكر ما فيه الكفاية ، فإنه لم يلتزم بذلك ، إذ ذكر تجنيسًا آخر أسماه «التجنيس الأخف» ، وذلك عند شرحه لقول الطائى :

مَضَى مُدْبِرًا شَطْرَ الدَّبُورِ ونَفْسُه على نَفْسِهِ مِنْ سُوءِ ظَنٍّ بِها إِلْبُ

حيث نبه على أن "في هذا البيت تجنيسًا وهو « مدبرًا شطر الدبور » ويقال له : التجنيس الأخف إذا أخلف حروف اللفظين" [٢] . ويلاحظ هنا عدم الدقة في التعريف ، إذ إنّ الجناس هنا جناس ناقص ، اختلف فيه اللفظان في عدد الحروف وما ذلك إلاّ لأن حدود بعض المصطلحات في عصره - كما أسلفنا - كانت ما تزال غير مستقرة بالقدر الكافي .

الطباق : وعد الصولي في بداية شرحه أنه سيذكر الطباق إذا مرَّ به ويصفه [٣] ، وقد وقف الصولي في شرحه عند هذا اللون البديعي كثيراً ، لأن أبا تمام استكثر منه في شعره ، والطباق في كتب البلاغة هو الجمع بين الشيء وضدّه . . . مثل الجمع بين البياض والسواد ، و الليل والنهار ، والحَرّ والبَرْد[٤] . . . وعرّفه بمثل هذا التعريف حين عرض له في هذا البيت :

بيضُ الصَّفَائحِ لا سُودُ الصَّحَائفِ في مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

---

(١) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ .

(٤) انظر : أبو هلال العسكري : الصناعتين ، ص ٣٩٩ .

قوله : بيض لا سود هو المطابق ، كأنه طابق الشيء بضده ، فنوّع بينهما ، ومثّل له ببيت ليس من شعر أبي تمام وهو قول ابن أُذينة [١] :

وإذَا تُبَاع كَرِيمَةٌ أوْ تُشْتَرَى فَسِوَاكَ بَائِعُهَا وأَنْتَ المُشْتَرِي

"التطبيق ذكْر البيع والشراء . وربما اجتمع في البيت تجنيس وطباق" [٢]

والجناس الذي يقصده هنا يظهر بين تُبَاع وبَائِع ، وتَشْترى والمُشْتَرِي ، ولم يتحدث عن جناس القلب في بيت أبي تمام بين لفظتي صفائح وصحائف ، حيث تساوت فيه حروف الهجاء . إلاّ أن الفاء تقدمت في لفظة « صفائح » .

ويقف الصولي عند الطباق بشكل أوضح ، ويشير إلى نوع منه أطلق عليه التابع ، في شرحه لقول أبي تمام :

ولكنَّنِي لَمْ أَحْوِ وفْرًا مُجْمَّعًا فَفُزْتُ بِهِ إلاَّ بِشَمْلٍ مُبَدّدِ

وقد فسّر البيت كله بهذه الجملة البسيطة : "يقول : " لا أحوي مالاً " ثم انصرف إلى الناحية البلاغية فذكر أن "هذا هو الطباق في الشعر ، والمطابق : قوله «مجمّع» ، و «مبدّد» ، لأنه أطبق الضّد على الضّد ، ومن لا يدري يخطىء في هذا فيجعل المجنّس المطابق ، ولو قال بَدَل «المبدّد» ، المتفرق" لكان طباقًا أيضًا . وهذا يسمى في الشعر «التّابع » كأنه يتبع المطابق ولا يكون مثله " [٣] .

والصولي يقصد بالتابع - هنا - ما عُرف بالطباق الوهمي ، وهو ما كان فيه اللفظان ظاهرهما التضاد ، وحقيقتهما ليست كذلك ، فلا تضاد حقيقي في البيت بين تجميع المال وتبديد الشمل ، ولكنّ الذي أوهم بوجود تضاد هو ذكر كلمتي « مجمّع ،

---

(١) هو عروة بن أذينة ، واسمه يحيى بن مالك الليثي ، من الفقهاء المتقدمين عاش وتوفي في عصر بني أمية ، انظر : الأغاني ، جـ ٢١ ، ص ١٠٢ .

(٢) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٩٠ .

(٣) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٤٣٠ .

ومبدّد » وهذا ما دعاه البلاغيون بالطباق الوهميّ [١] . ومما وقف عليه الصولي من الطباق غير الحقيقي وأجازه ، ما جاء في بيت الطائي :

غَادَرْتَ فِيها بَهِيمَ اللَّيْلِ وهو ضُحًى يَشُلُّه وَسْطَها صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ

حيث أشار إلى أن فيه طباقًا "لقوله الليل والصبح ، إلاّ أنّ حقيقة الطباق أن تقول : الليل والنهار ، والصبح والمساء ، وهذا جائز " [٢] . وضوء النار الملتهبة لا يرادف الإصباح حقيقة ، لذا فهو ليس بمضاد لظلام الليل ، وننبه على أن التبريزي قد نقل هذه اللمحة البلاغية من الصولي دون أن ينسب ذلك إليه [٣] . وهذا يشير إلى تأثير الصولي في بعض من جاءوا بعده من الشراح.

الاستعارة : الظاهرة البلاغية التي أشعل الصولي شرارتها ، هي استعارات أبي تمام البعيدة ، التي خرج بها عن المألوف من كلام العرب ، فاستهجنها قوم وعدّوها من رديء شعره [٤] ، واستحسنها آخرون وأعلوا من شأنها ، ونسبوا معظم الفضل والمزية في شعر الطائي إليها . ومن أبرز ما وقف عليه الصولي ودافع عنه ما جاء في قوله :

لا تَسْقِني مَاءَ المَلامِ فإنَّني صَبٌّ قد اسْتَعْذَبْتُ ماءَ بُكَائِي

حيث استثار الصولي بتسويغه الاستعارة هنا ثائرة بعض النقاد والشُرَّاح ، عندما رأى أنها تجري على ما جرى عليه الأسلوب العربي ، واستدل على ذلك بعدد من الشواهد [٥] - كما مر - وقد أخذ الآمدي بعض أقوال الصولي في هذا المقام فردّدها مؤيداً وجهة نظر الصولي في صحة الاستعارة ، غير أنه رفض بعض الأبيات

---

(١) انظر : جلال الدين القزويني : التلخيص في علوم البلاغة ، ت : عبد الرحمن البرقوقي ، ط : دار الكتاب العربي ، الثانية ، بيروت ، ١٣٥٠هـ ، ص ٣٥٢ . والعسكري : الصناعتين ، ص٣١٥ .

(٢) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ١٩٤ .

(٣) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

(٤) انظر : ابن سنان : سر الفصاحة ، ص ١٣٠ ، والعسكري : الصناعتين ، ص ٨٩ .

(٥) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٨٧ ، و "أخبار أبي تمام" ، ص ٣٤ .

التي ساقها لتأييد وجهة نظره ، ورأى أن شواهده تجري على الحقيقة ، وليس بها استعارة ، لذلك فلا يصح الاستدلال بها على ما جاء في بيت أبي تمام السابق [(١)] .
كذلك عاب ابن سنان الخفاجي على أبي تمام استعارته في هذا البيت ، ورأى أنها تفضي إلى الاستحالة والفساد ، وردّ على كل من اعتذر عن أبي تمام فيها ، واعتبر كلام الصولي حول هذه الاستعارة كلامًا غير لائق بمثله من أهل العلم والشعر ، لأن «الماء» في الأمثلة التي أوردها الصولي يُقصد به الرَّونق والطّلاوة ، أمّا في قول الطائي « فماء المَلامِ » لا يجوز أن يكون المقصود به الرّونق لأن الملام لا يوصف بذلك، وإنما يُذم ويستقبح ، ولا يحمد ولا يستحسن " [(٢)] .

وتتباين النظرة النقدية لدى ابن الأثير الذي يعدّ هذا البيت "من التشبيهات المتوسطة التي لا تُحمد ولا تُذم ، إذ إن نقل شيء مختصٍ بالسمع إلى شيء مختصٍ بالحلق جائز عنده ، إلا أن الماء المستلذ والملام المستكره بينهما مخالفة ، فحطَّ من درجة الاستعارة" [(٣)] ، ثم توالت بعد ذلك آراء بعض النقاد والشُرَّاح وتباينت مواقفهم من هذه الاستعارة ، وقد كانت آراء الصولي ومواقفه سببًا مهمًا فيما دار حولها من نقد ، وما أثير من جدل .

[redacted]

وليس مراده بمصطلح المثل هنا المَثَل بمعناه الفني المعروف ؛ من أنه المثل السائر ، بل أراد ما تُجوّز وتُمَثل بطريق الاستعارة ، فقد شبّه الشاعر الشمس في بلاد العدو بعد أنْ أثّرت فيها الريح الباردة بفتاة شاحبة الوجه ، ثم حذف المشبّه به ، ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه ، فاستعار اللفظ الدال على المشبّه به ، وهو الخدّ ووصفه بالشحوب، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية . وكذلك وصف الاستعارة في هذا البيت :

تَأْبَى مَعَ التَصرِيْد[١] إلاّ نَائلاً إلاّ يَكُنْ مَاءً قَرَاحًا يُمْذَقِ

بمصطلح « المثل » [٢] . والشاعر هنا يشبه نوال المحبوبة ، ووصلها المشوب بالامتناع وعدم الإخلاص فيه ، بالشراب المتقطع من اللبن غير الخالص ، والممزوج بالماء ، فهي لا تصافي الوصال ولا تترك الإطماع ، وقد حذف المشبه وأبقى المشبه به ، واستعار الألفاظ الدالة عليه ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

التشبيه: أعجب الصولي بكثير من تشبيهات أبي تمام ، فتوقف عند هذا اللون البياني في شرح شعره ، وحاول توضيح المعاني التي عرضت فيه ، وكانت الصورة الفنية في شعر الطائي تعتمد كثيراً على أسلوب التشبيه ، لذلك كان وقوف الصولي عنده ظاهراً في كتابه [٣] ، وسنقتصر على إيراد مثال من تشبيهاته :

وَمَسَافَةٍ كمسافَةِ الهَجْرِ ارْتَقَى في صَدْرِ بَاقِي الحُبِّ[٤] والبُرَحَاءِ

يرى الصولي أن الشاعر " أحسن في تشبيه الفلاة بمسافة الهجر " [٥] .

حيث شبّه بُعْدَ طريقه في الصحراء الواسعة التي لا يُرجى بلوغ آخرها ببُعْد المهجور عن حبيبه ، فشبّه شيئًا محسوساً بشيء معقول ، فأخرج ما لا تقع عليه الحواس إلى ما تقع عليه ، وشرحه الصولي بقوله " شبّه بُعْد طريقه ببعد مهجور لاقى

---

(١) رواية الصولي : "باتَتْ على التصريد" ، ولم يشرح البيت إلا على ما أثبت أعلاه .

(٢) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٥١٢ ، ٥٣٨ ، ٥٧٢ ، ٥٩٦ .

(٤) رواية الصولي : "باقي الهَجْر" وبقية النسخ (باقي الحب) وقد شرح الصولي ما أثبت أعلاه .

(٥) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٨٥ .

باقي الحبّ والبُرَحَاء ، فهو أشد عليه وأطول" ، محاولاً الكشف عن المعنى ، وتوضيح مراد الشاعر من خلال شرح الصورة البيانية الواردة في البيت ، وقد استفاد التبريزي من شرح الصولي هنا فنقل عنه شرح صور التشبيه وبيان أركانه ولم ينسب ذلك إليه [١] ، وهذا يدل على اعتماد التبريزي - أحيانًا - على شرح الصولي في طريقة الكشف عن المعنى ، وتوضيح نوعية الأساليب البلاغية فيه .

الكناية: من الألوان البيانية التي وقف الصولي عندها في شرحه «الكناية» ، من ذلك ما نبه عليه في شرحه لهذا البيت :

لَوْ سِرْتَ لالتقتْ الضلُوعُ على أسىً كَلِمٍ قليل السِّلم للأَحشاءِ

على أنه كنّى بقوله : « لَوْ سِرْتَ » عن لو متّ ، ثم أورد أمثلة دلّل بها على صحة الكناية بالمشي ، والإسراع ، والمسير عن الموت [٢] . لكن ابن المستوفي يرى أن الكناية بالسير عن الموت - هنا - بعيدة ، إذ لا معنى لقولهم ، لو سرت عن لو مت ، وإنما أراد الشاعر لو رحلت لكان كذا . . . » [٣] .

والذي يترجح أن الشاعر لم يقصد بالسير الكناية عن الموت ، لأن المعنى لايؤيد ذلك كما أن مناسبة القصيدة ، وما تتحدث عنه من خروج خالد بن يزيد إلى الحج يؤكد أن المسير بمعنى الرحلة والسفر .

ومما عرض له الصولي من الكناية في شعر أبي تمام ما جاء في قوله :

لَسْتُ من العيس أو أُكَلِّفَهَا وَخْدًا يُدَاوي المريضَ من وَصَبِهْ

فالمريض ها هنا كناية ، كنّى به عن الفقير ، والمرض كنّى به عن الفقر ، واستشهد الصولي على صحة الكناية بالمرض عن الفقر بقول الأعرابي « داووا سقمي

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٣ .

(٢) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٧٤ .

(٣) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ١٣ .

بصحتكم » يريد ، فقري بغناكم ، ثم أشار إلى أنه قد يكنى بالمرض أيضًا عن الكفر وذلك كما في قوله تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [١] أي كفر ونفاق ، فجعل الكفر مرضًا والإيمان صحة [٢] .

التصدير : إلى جانب الكناية نجد الصولي يشير إلى التصدير ، الذي يعرّفه بأنه ردّ العجز على الصدر ، وذلك في شرحه لبيت :

بيضٌ إذا انْتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ أَحَقَّ بالبِيضِ إِبْدَانًا من الحُجُبِ

ذكر أن في هذا البيت تصديرًا ، وهو رد العجز على الصدر ، إذ قال في النصف الأول حُجْبها ، ثم قفّى بالحُجُب » [٣] . ويلاحظ أن الصولي قد أطلق على هذا اللون البديعي كلتا التسميتين التي وردتا عند البلاغيين ، إذ منهم من يسميه «رد العجز على الصدر» ومنهم من يسميه «التصدير» لأن هذا في نظرهم أدل على المطلوب وأليق بالمقام ، وأخف على السمع [٤] .

المشاكلة : يطول الحديث إذا تتبعنا جميع الظواهر البلاغية التي وقف عندها الصولي في شرحه ، لذلك فإننا نختم الحديث بما أشار إليه من معنى المشاكلة ، وقد عبَّر عنها بقوله : " إقحام اللفظ على اللفظ إذا كان من سببه " [٥]، ومثّل لذلك بقول أبي تمام «ماء بكائي» بعد عبارة «ماء المَلام» . واستشهد الصولي على هذا بآي من الذكرالحكيم ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٦] . والبشارة تكون في الخير ولا تكون في الشر ، ولكنه حمل اللفظ على اللفظ ، وهذا عرف فيما بعد عند البلاغيين

---

(١) سورة البقرة آية (١٠) .

(٢) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣١٩ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .

(٤) انظر : شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ، ط : دار المعارف ، الثامنة ، القاهرة ، د : ت ، ص ١٤٩ .

(٥) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٧٨ .

(٦) سورة : آل عمران ، آية رقم ٢١ .

باسم «المشاكلة» ، وهي أن تشاكل إحدى اللفظتين الأخرى في الخط ، واللفظ ، ومفهومها مختلف [١] .

ونوجز القول بأن الصولي استطاع من خلال بعض ما تعرض له من أساليب بلاغية – في شعر أبي تمام – أن يكشف عن بعض أسرار البلاغة عنده ، وأن يلفت الانتباه إلى بعض الخصائص التي تفصح عن حسن شعر الطائي وجماله ، ووظف كل ذلك في خدمة المعنى الذي كان هدفه وهمه الأول .

لكن عمله في هذا المجال لم يخل من بعض القصور . عندما لم يقف على بعض الأبيات التي تضمنت ألوانًا بلاغية كان لها نصيب وافر من اهتمامات النقاد والبلاغيين، كذلك يظهر قصوره في عدم مناقشة بعض العناصر البلاغية التي وقف عندها ، إذ نراه في مواضع كثيرة يكتفي بمجرد الإشارة إلى الصور البيانية دون أن يحللها ، أو يقدم التعليلات والتفسيرات لها ، فعطل بذلك بعض المباحث البلاغية عن أداء دورها في خدمة المعنى ، وبيان مراد الشاعر من استخدامها .

❁ ❁ ❁

المنظور النقدي :

عُنِيَ الصولي في شرحه لديوان أبي تمام بالنقد التطبيقي ، وتلمّس بعض مواطن الحسن أو القبح فيه ، والإشارة إلى بعض الاستعمالات الجيدة ، أو الرديئة ، وعقد بعض الموازنات بين الشعراء وأبي تمام ، في الألفاظ والمعاني ، والأغراض والأساليب . أمّا بقية ما أُثر عنه من نظرات نقدية فيمكن العثور عليها فيما ألفه من كتب حول الشعر والشعراء ، ولعل أبرز ما فيها هو تعريفه للنقد ، بأنه " الحكم على الشعراء ، وتمييز ألفاظهم ، والحكم بالجيد والرديء لهم " [٢] .

---

(١) انظر : ابن أبي الأصبع : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ت : حفني محمد شرف ، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ – ١٩٦٣م . جـ ٣ ، ص ٣٩٣ .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٣٨ .

ومن خلال دراسة شرحه وجدت بعض المواضع التطبيقية لهذا التعريف ، ففي مواضع منه استحسن كلام أبي تمام وامتدحه، من ذلك :

وانْفَحْ لنا مِنْ طِيْبِ خِيمْكَ نَفْحَةً إنْ كَانَتِ الأخْلاقُ مِمّا تُوهَبُ

قال : " هذا أحسن كلامٍ وأبلغه في المديح " [١] . ولم يصرح بعلة استحسانه له ، غير أن الشاعر وصف الممدوح بطيب الأخلاق ، وأنه تعلّق بأخلاقه ، فانصرف إليها عما سواها ، لكنه في مواضع أخرى لم يستحسن أبياتًا معينة من شعر الطائي ، ووصفها بالتقصير ، فعن بيته :

إذا شِئْتَ أنْ تُحْصِي فَواضِلَ كَفِّهِ فكُنْ كاتِبًا أو فاتّخِذْ لَكَ كَاتِبًا

قال : "وهذا البيت لم يقع له جيداً" [٢] ، لأن المعنى هنا معنى عادي ليس فيه عمق ولا طرافة .

وفي مقدمته لديوان أبي نواس تحدث عن نقد الشعر وطريقة شرحه والأدوات التي تلزم من يتصدى لذلك ، فذكر أن المشتغلين بالشعر والنقد لابد أن يكونوا ممن "صحت طباعهم ونفذت قرائحهم وتنبهت فطنهم ، وأن يكونوا ممن راضوا الكلام وقالوا الشعر وعرفوه وطرقوا المعاني ، وماشوها ورووا وميزوا " [٣] .

وقد عدّ أبا تمام واحداً من هؤلاء ، لأنه "يبصر الشعر كله وينقده ، ويفضّل الجيد منه وإن كان على غير مذهبه ، واستدل على ذلك بإعجابه بشعر ابن أبي عيينة ، حين عدّه من الشعراء المجيدين على الرغم من تباعد مذهبيهما ، فأبو تمام يصنع الكلام ويخترعه ، وابن أبي عيينة يذهب مذهب المطبوعين" [٤] .

---

(١) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .

(٣) أبو نواس : الديوان ،
ط : دار الرسالة ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧ .

وعلى العكس من هذا - عنده - البحتري ، فإنه وإن كان " شاعراً حاذقًا ، مهذب الألفاظ إلا أنه لم يكمل لنقد جميع الشعر" [١] . ونشير هنا إلى أن الصولي في هذه النصوص وفي غيرها كان يقلل من شأن البحتري ، ويفضل دائمًا أبا تمام عليه ويجعله تابعًا له في كثير من شعره ، ويغلو في محافظته معه ، ويلزمه بطريقة القدماء، بينما هو مع أبي تمام مجدد ، لا يبالي بطريقة القدماء ، ولا تقاليدهم الشعرية .

أما أهم الظواهر النقدية في شرح الصولي فتتجلى في ناحيتين :

الأولى : اعتماده على التراث الأدبي في دفاعه عن أبي تمام : وقياس أخطائه على أخطاء الشعراء الأقدمين - إذا عُدَّ بعضها أخطاء .

وبما أن الصولي قد أورد دفاعه عن أبي تمام وأكثر من الاحتجاج له في كتاب «أخبار أبي تمام» ، فقد عزم على أن يَقْصر شرحه على المعنى وما يعين على فهمه ، وأحال في شرحه لبعض الأبيات إلى مواضع تناولها في كتابه السابق .

من ذلك دفاعه عن قول أبي تمام :

كأنَّ بَني نَبْهانَ يومَ وَفَاتِه نُجُومُ سَمَاءٍ خرَّ مِنْ بَيْنِها البَدْرُ

ذكر "قد عاب أيضًا عليه هذا البيت من لا يدري كيف تتكلم العرب ، ولا فهم معنى قط ، وقد ذكرت الاحتجاج له في الرسالة التي فيها أخباره" [٢] .

وإذا رجعنا إلى الرسالة نجده كتب صفحات طويلة في الدفاع عن هذا البيت والاحتجاج له ، وفيها ذكر أن قومًا قد عابوا على أبي تمام هذا البيت ، وفسروه بأنه أراد أن يمدح محمد بن حميد الطوسي فهجاه ، كأن أهله كانوا خاملين بحياته ، فلما مات أضاءوا بموته ، وقالوا يجب أن يقول كما قال الخريمي :

إذَا قَمَرٌ منهم تغوَّر أَوْ خَبَا بَدا قَمَرٌ في جانبِ الأُفْقِ يَلْمَعُ

---

(١) أبو نواس : الديوان ، ص ٦ .

(٢) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ٣ ، ص ٢٩٧ .

قال الصولي : "ولا أعرف لمن صحّ عقله ، ونفذ في علم من العلوم خاطره ، عذرًا في مثل هذا القول ، ولا أَعْذِرُ من يسمعه فلا يردُّه عليه ، اللهم إلا أن يكون يريد عيبه ، والطعن عليه" (١) . ثم أورد في معرض الدفاع عنه عددًا من الأقوال النثرية والأبيات الشعرية ، منها :

قول أوس بن حجر :

إِذَا مُقْرَمٌ مِنّا ذَرَا حَدُّ نَابِهِ تَخَمَّطَ فِينا نابُ آخرَ مُقْرَمِ

وقول النابغة :

بِأَنَّك شَمْسٌ والملوكُ كَواكِبٌ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وقول أبي الطحان القيني :

كَواكِبُ دُجْنٍ كُلَّما غاب كوكَبٌ بَدا كوكب تأوِي إليه كواكِبُهْ

وقول شاعر آخر :

إذا سيِّدٌ منّا مَضَى لسبيلِه أقامَ عمودَ المجد آخَرُ سَيِّدُ

وجعل المعنى في قول النابغة هو الذي عناه أبو تمام بعينه ، فلو لزمه خطأ في بيته للزم النابغة ، ثم أوضح أن المعنى الذي أراده أبو تمام ليس ما أراد الخريمي " لأن أبا تمام قصد التفضيل في السؤدد ، والخريمي أراد التسوية فيه ، وأبو تمام يقول : مات سيد ، وقام سيد دونه ، والخريمي يريد : مات سيد ، وقام سيد مثله" (٢) . وقصْد أبي تمام هنا واضح وجلي ، لا يحتاج إلى كل هذا الاستطراد ، فالرثاء نوع من أنواع المدح ، ومرثية أبي تمام تقوم على ذكر الصفات الحميدة التي كان يتصف بها محمد بن حميد الطوسي ، وذكر ما يتصف به أهله وقبيلته من الشجاعة ، والعلو ، والرفعة ، وأن منازلهم في الشرف تضاهي منازل النجوم في السماء ، فكلهم أفاضل ، غير أن محمداً الطوسي أفضلهم ، ومنزلته منهم كمنزلة البدر من بقية النجوم.

---

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٢٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

كذلك كان سبيله في الدفاع عن بيت الطائى :

ما زَالَ يَهْذِي بالمَوَاهِبِ دَائِبًا حَتَّى ظنَنَّا أَنَّه مَحْمُـــومُ

حيث جعله "أحسن من قول أبي نواس :

جَـــادَ بالأمـــــوالِ حَتَّى قِيلَ ما هذا صَحِيْـــــحُ

ومن قول عُبيد اللّص العنْبري :

ما كانَ يُعطِي مِثْلَهَا في مِثْلِه إلاّ كريمُ الخِيمِ أو مَجْنُونُ

لأن المحموم أحسن حالاً من المجنون" (١) ، وعلل هذا التفضيل في موضع آخر بقوله : " إن المحموم يبرأ ، فيعود صحيحًا كما كان ، والمجنون قلّما يتخلص" (٢) .

وليس للمقارنة - هنا - بين الحمى والجنون أي مزية أو فضل في قبول معنى وإسقاط الآخر ، وإنما الإشكال في مخاطبة الممدوح باللفظ الزري ، وصك وجه الممدوح بمثل هذا الخطاب الجافي ، والمدح المتنافي كما عبّر عن ذلك عبد القاهر الجرجاني (٣) .

ويبدو أن الشعراء في الأبيات السابقة أرادوا المبالغة في وصف ممدوحيهم بالكرم والبذل ، فوصلوا بذلك إلى حدٍّ لم يراعوا فيه أحيانًا ما ينبغي من أصول اللياقة في المدح ، فكان تشبيه الإفراط في الإعطاء والبذل بإكثار المحموم ، وفعل المجنون أمرًا غير مقبول عند كثير من النقاد .

أما الظاهرة الثانية : هي قضية تأثر أبي تمام بمن سبقه من الشعراء ، وهو ما عبّر عنه بعض النقاد و الشُرَّاح بمصطلح « السرقات الشعرية » : واستخدموا لذلك مصطلحات متعددة تختلف في مفاهيمها بحسب نوعية الأخذ وكيفيّته ، ومنها ما هو صريح ، كالسّرْق ، والنقل ، والنسخ ، ومنها ما هو أقل من ذلك كمصطلح الإلمام ،

(١) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٤٢١ .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) انظر : عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، ت : محمد رشيد رضا ، ط : دار المعرفة ، بيروت ، د : ت ، ص ٢٢٠ .

والإشارة ، والنحو ، والأخذ ، والاحتذاء ، والاتباع . . ونحوها [١] . ومن النقاد من دفع موضوع السرقة ، وعدّ ما جاء متفقًا عند الشعراء من باب المعاني المشتركة ، أو توارد الخواطر ، أو وقع الحافر على الحافر ، ونحو ذلك ، إذ ليس - عندهم - ما يمنع أن يردد الشاعر معنى لأن غيره سبقه إليه [٢] .

ومقولة « المعاني المشتركة » هي مما دافع به الآمدي عن أبي تمام فيما نسبه ابن أبي طاهر إلى السرقة من شعره ، وهو ليس بمسروق ؛ لأنه مما يشترك فيه الناس من المعاني ويجري على ألسنتهم [٣].

وعندما نُسب إلى أبي تمام أنه سرق قوله :

أَبدّلْتَ أرْؤُسَهُمْ يَوْمَ الكَرِيهَةِ مِنْ قَنَا الظُّهُورِ قَنَا الخَطِّيِّ مُدَّعَما

من قول مسلم بن الوليد :

يَكْسُو السُّيُوفَ نُفُوسَ النَّاكِثِينَ بِهِ ويَجْعَلُ الهَامَ تِيْجَانَ القَنَا الذُّبُلِ

قال الجرجاني : " وقد عدَّ هذا من سرقات أبي تمام ، ولست أراه كذلك ؛ لأنه ليس فيه أكثر من رفع الرؤوس على القنا ، وهذا معنى مشترك لا يسرق . . " [٤] .

والصولي في شرحه لديوان الطائى - وفي بعض مؤلفاته الأخرى - لم ينكر تأثر أبي تمام بمعاني الشعراء السابقين عليه . وقد عبّر في شرحه عن ذلك بمصطلحات تدل على إفادته منهم ، وأنه مسبوق في بعض المعاني التي جاء بها . ومن المصطلحات التي ذكرها في هذا السياق : الأخذ ، والإلمام ، والنَّحْو ، والنّقل ، والسّبق، والاحتذاء ، لكنه يرى أن أبا تمام "متى أخذ معنى زاد عليه ووشّحه ببديعه ،

---

(١) اهتم النقاد بقضية السرقات فترة مديدة وبذلوا فيها جهوداً كبيرة ، وفي النقد الحديث درست في إطار التأثر والتأثير . انظر : مصطفى هدارة : مشكلة السرقات في النقد العربي ، ص ٢٦٩ - ٣٠٣

(٢) انظر : الشريف المرتضى ؛ طيف الخيال ، ت : حسن كامل الصيرفي ، ط : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٤ ، ص ١٤١ .

(٣) انظر : الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ١٢٣ .

(٤) الجرجاني : الوساطة ، ص ٢٣٠ .

وتمّم معناه ، فكان أحقّ به" [١] .

فإذا قال العربي : « أكَلَ جَمَلِي هَذا السَّفرُ » نحا أبو تمام نحو قوله ، وزاد عليه وأحسن ، حين قال :

رَعَتْهُ الفَيافِي بَعْدَمَا كانَ حِقْبَةً رَعَاهَا وَمَاءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُهْ [٢]

لكن يمكن أن تنهض بقول العربي عبارة « رَعَتْهُ الفَيافِي» من بيت الطائي ، أما بقية البيت فهي الزيادة الحسنة التي تتشكل بها الصورة الشعرية ، حيث صيرت الفيافي والقفار خصماً عنيداً للجمل ينتقم منه ببعد المسافات ، وكثرة الترحال .

وعندما وقف عند بيت أبي تمام :

وَضَعِيفَةٌ فإذا أَصَابَتْ فُرْصَةً قَتَلَتْ كَذلِكَ قُدْرَةُ الضُّعَفَاءِ

قال الصولي : "وقد ألمّ في هذا بقول جرير في النساء فصيّره في الخمر"

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لا حَرَاكَ بِهِ وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أرْكَانَا [٣]

لقد استطاع أبو تمام بمهارته وثقافته الشعرية أن ينقل الصورة المتشابه بين الفاعلين ، النساء والخمر ، وفي الضعف والبطش ، غير أننا لا نوافق الصولي حين ذهب في تفسيره إلى أن الضعيف إنما يفعل الشيء بِفَرَق فلا يُبقي ، مخافة أن يُعطف عليه فلا يكون فيه فضل للمقاومة ، ذلك لأن القوي إنما صار ضعيفًا بسبب استسلامه وخنوعه لإغراء الضعيف ، حتى أصبح سهل الصرعة والفتك به .

ومن الشعراء الذين ذكر الصولي أن الطائي أخذ منهم : أبو نواس ، وجرير ، وعلقمة بن عبدة ، والنابغة الجعدي ، وامرؤ القيس ، ومنصور النمري ، وبشار ، وبشر ابن أبي خازم ، والأخطل ، والفرزدق والكميت ، وعبد الملك بن صالح ، وتوْبة بن الحمْيَر ، وغيرهم . وبالرغم من هذا فإنه " لو جاز أن يُصرف عن أحدٍ من الشعراء

---

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٥٣ .

(٢) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٩٢ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

سرقة ، لوجب أن يُصرف عن أبي تمام ، لكثرة بديعه واختراعه ، واتكائه على نفسه ، ولكنّ حُكْمَ النقاد للشعر ، العلماء به ، قد مضى بأن الشاعرين إذا تعاورا معنى ولفظًا أو جَمَعاهما ، أن يُجعل السَّبقُ لأقدمهما سنًّا ، وأولهما موتًا ، وينسب الأخذ إلى المتأخر ، لأن الأكثر كذا يقع ، وإن كانا في عصرٍ أُلحق بأشبههما به كلامًا ، فإن أَشْكَل ذلك تركوه لهما" [١] .

ويتضح هنا استسلام الصولي لحكم النقاد في قضية السرقة ، فنسب إلى أبي تمام من طرف خفي أنه سرق بعض شعره من الشعراء السابقين . لذلك صرح في مواطن متفرقة من شرحه بأنه مسبوق في بعض معانيه ، من ذلك – على سبيل المثال – هذا البيت :

ومُطْعَم النَّصْرِ لَمْ تَكْهَمْ أَسِنَّتُهُ يَوْمًا ولاَ حُجِبَتْ عَنْ رُوحِ مُحْتَجِبِ

فقد ذكر أن " أول من نطق بهذا علقمة بن عَبدة ، حيث قال :

ومُطْعَم النَّصْرِ يَوْمَ النَّصْرِ مُطْعَمَهُ أَنَّى تَوجَّه والمَحْرومُ مَحْرُومُ [٢]

ويظهر هنا التطابق في المعنى ، وفي بعض الألفاظ الواردة في الشطر الأول ، وإن كان أبو تمام في الشطر الثاني قد زاد بأن من يحتجب عن أسنّة الممدوح لا ينفعه ذلك . لكن لم يكن السّبق وحده إلى المعنى هو الفضيلة التي يستحق بها الشاعر – عند الصولي – نسبة المعنى إليه ، لذلك نجده يستحسن بيتًا للنابغة ويفضله على من سبقه إلى هذا المعنى أو لحقه فيه من الشعراء ، ومنهم أبو تمام ، وعندما عرض لشرح قول أبي تمام :

وَقَدْ ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أعْلامِه ضُحًى بِعِقْبان طَيْرٍ في الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ

أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كأَنَّهَا من الجَيْشِ إلاّ أنها لمْ تُقَاتِلِ

ذكر أن الشاعر "يريد أنَّ الطيور وثقت بنصره ، وقتله من حاربه ، فهي تسير

---

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٠٠ – ١٠١ .

(٢) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

مع أعلامه لتأكل من جيفهم ، ثم أردف ، وأول من أحسن هذا النابغة في قوله :

إذَا ما غَزوا بالجَيْش حَلَّقَ فَوْقَهم عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بعَصَائِبِ [١]

وسبق أن سجل الصولي إعجابه ببيت النابغة قائلاً : " ولا أعلم أحداً قال في هذا المعنى أحسن مما قاله النابغة ، وهو أولى بالمعنى وإن كان قد سُبق إليه ؛ لأنه جاء به أحسن" [٢] .

ولا نُريد إطالة الحديث عن موقف الصولي النقدي من قضية سرقات أبي تمام بذكر أمثلة أخرى ، مما تعرض له في شرحه ، وننتقل لنعرف رؤية الصولي وموقفه من الشعراء الذين أخذوا بعض معاني الطائي أو ألفاظه وأجروها في أشعارهم ، ومنهم عبد الصّمد بن المعذّل ، الذي ناصب أبا تمام العداء خوفًا على منزلته الشعرية في البصرة ، حيث لاحظ الصولي أنه أخذ منه لفظ هذا البيت :

فالمَجْدُ لا يَرْضَى بأَنْ تَرْضى بأَنْ يَرْضَى امْرؤٌ يَرْجُوكَ إلاَّ بالرِّضَا[٣]

فقال :

أتَرْضَى بِما أَرْضَى فأَرْضَى تَتَبُّعًا لِمَرْضَاتِكُم منكم بِما لَيْس بالرِّضَا

وقد بدا واضحًا - على الرغم من أن بيت أبي تمام قائم على الصنعة والتكلف التي أفضت به إلى المعاظلة اللفظية - أثر فنّه ومذهبه الشعري حتى في خصومه وحاسديه ، لكن الصولي يرى أن كل الذين أخذوا منه ، خصومًا أو أنصارًا ، قد وقفوا دونه ، وقصّروا عما أتى به ، وفي مقدمتهم البحتري ، نظير أبي تمام في الموازنة والخصومة ، فهو وإن كان "أعرابي الشعر ، مطبوعًا ، وعلى مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف . . . وأبو تمام صاحب صنعة ، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم " [٤] ، فإنه - عنده - " لائذٌ بأبي تمام متمثل بمعانيه ، سائر على

---

(١) الصولي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٦٥ / تداول هذا المعنى عدد من الشعراء منهم : النابغة ، وحُميد بن ثور ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، والمتنبي ، وأسبقهم جميعًا الأفوه الأودي بقوله :

فترى الطير على آثارنا رأي عين ثقة أنْ ستمار .

انظر : الأصفهاني : الأغاني ، جـ ١١ ، ص ٤٤ .

(٣) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٦٠٨ .

(٤) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ٤ - ٥ .

هديه آخذٌ منه ، لفظًا ومعنى" [١] . وقد ذكر في كتابه « أخبار أبي تمام » أمثلة كثيرة[٢] من شعر البحتري نسبها إلى السرقة من أبي تمام ، جعل فيها البحتري "سارقًا ومقصراً عن الطبع والمعنى" [٣] . من ذلك أنه عدّ وصفه للبلاغة في قوله :

لا يَعْمـــــــلُ المَعْنَـى المُكَرَّر فيه ولا اللّفْـــــــظُ المَرُدّدْ

مأخوذًا من بيت الطائى الكبير - يصف قصيدته في مدح أحمد بن أبي دؤاد :

مُنَزَّهَةً عن السَّرْقِ المُوَرَّى مُكَرَّمَةً عَنِ المَعْنَى المُعَادِ [٤]

ولا يُنكر تأثر البحتري بأستاذه أبي تمام وأخذه منه بعض المعاني والألفاظ ، غير أنه في الغالب إذا أخذ معنى أضفى عليه من رونقه وإبداعه سواء في الألفاظ ، أو الصياغة ، أو الصور ، ما ينفي عنه سمة السَّرْق ، ويدخله في دائرة الابتداع الفني .

إنها الحُجَّة نفسها التي برّر بها الصولي أخذ أبي تمام من الشعراء ، حيث جعل فضل الأخذ في القدرة على حسن الصياغة ، وإخراج المعنى بصورة أجود ، وعماد ذلك في المهارة ، والموهبة الفنية لدى الشاعر في تحوير المعنى وتحسين النظم .

اتضح أن الصولي متحيز لشعر أبي تمام ، يبرر كل نقص فيه ويطلق لسان العيب والاتهام في شعر البحتري ، هذا شائع عنه عند معظم النقاد والأدباء اللاحقين[٥] . وقد كان حريًا به أن يتجرد من الهوى ، وألاّ يصدر أحكامًا مطلقة بتفضيل شاعر على شاعر قبل دراسة موازنة تحدد خصائص كل شاعر ، وتوضح عيوبه ومحاسنه ، وفق منهج نقدي صحيح .

❁ ❁ ❁

---

(١) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٨٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٧٣ وما بعدها .

(٣) الصولي : أخبار البحتري ، ص ١٣٩ .

(٤) انظر : الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٨٢ .

(٥) انظر : محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، ص ٣٦٨ وما بعدها .
وانظر : أحمد أمين : النقد الأدبي ، جـ ٢ ، ص ٤٨١ .

رابعًا: المنظـــور الدّلالـــي :

اهتم معظم الشراح بقضية المعنى وعدّوها الغاية القصوى ، والغرض الأسمى في أعمالهم ، فما شَرْح الألفاظ - عندهم - وإعراب التراكيب ، وإيراد الشواهد ، وذكر بعض القصص والأخبار إلاّ وسائل يُتوصّل بها إلى الكشف عن المعنى الشعري، وبيان مراد الشاعر ومقصده ، وأبو تمام " ربّ معان وصيقل ألباب وأذهان" [١] اشتهر بتدقيق المعاني وتوليدها وتعميقها ، وخرج على مألوف القوم في تشكيل بعض المعاني والدلالات .

كانت عناية الصولي بمعاني أبي تمام متفاوتة ، فهو يرى أن بعض معاني الأبيات واضحة جلية ، لا تستحق أكثر من نقل صيغتها الشعرية إلى صيغة نثرية مبسطة ، يُركّز فيها غالبًا على معنى اللفظة المفردة أكثر من المعنى الشعري العام للبيت . مثل ما كان في وقفته على هذا البيت :

مَا ذَاكَ إلاّ أَنَّ زَنْدَكَ لَمْ يَكُنْ في كَفِّ قَادِحِهِ بِزَنْدٍ مُصْلَدِ

قال : " الزند والزندّة : عودان تقدح بهما النار ، فإذا لم يوريا قيل أصلد الزند فهو مصلد ، وإذا خرجت منه النار ، قيل أورى الزند فهو مورٍ" [٢] . ومعنى بيت الطائى أن الممدوح - وهو محمد بن يوسف الثغري - فيه من الخلائق والخصال الحميدة ، ومنها الشرف ، والجود ، ما يتيح للشاعر أن ينشىء قصيدة غراء ، سهلة الانقياد .

وأكثر ما يشرح الصولي الأبيات منفردة ، يأتي بمعنى البيت منفردًا وقائمًا بذاته ، وقد يجمع بيتين ، أو ثلاثة ، ثم يورد معانيها مجتمعة ، لكنه إنما يفعل ذلك إذا لاحظ شدة التعلق والصلة بين الأبيات ، أو أن بين البيتين تضمينًا واتصالاً ، فلا يتضح المعنى إلا بشرحهما معًا .

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، جـ ٢ ، ص ٣٤٨ .

(٢) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٤٤٦ .

ومن أمثله ذلك جمعه في الشرح بين هذين البيتين :

بَلَى لَقَدْ سَلَفَتْ في جَاهِليّتِهِم لِلحقِّ - ليسَ كحقّي نُصرةٌ - عَجَبُ

أَنْ تَعْلَقَ الدَّلْوُ بالدَّلْوِ الغَرِيبَةِ أَوْ يُلابِسَ الطُّنُبَ المُسْتَحْصِدَ الطُّنُبُ

والمعنى : "قد أوجبت من حقي بتفضيلك ما لا يوجبه أهل الزّمان ، إلا أن أهل الجاهلية كانوا يوجبون ما حقي أكثر منه ، بأن يستجير الرجل بالرجل ، بأن تعلق دلْوُه مع دَلْوِه في بئر ، وأن يشدَّ طُنُبَه مع طنبه فيلزمه جواره ليمنعه مما يمنع منه نفسه" (١) . وعُرْف الجاهلية وعادتهم في بعض طرق الجوار ذكره في البيت الأول ، غير أن الشاعر فسّره وذكر أنواعه في البيت الثاني ، فأصبح بينهما تلازم في المعنى ، فلا يفهم أحدهما إلا بمعرفة معنى الآخر .

كما عمد الصولي في شرحه - أحيانًا - إلى بيان مراد الشاعر وقصده بين يدي المعنى للبيت ، أو المقطوعة التي سيشرحها ، جاء مثل هذا في شرحه لبيت الطائي:

في مُحْلَةٍ أَوْقَدَتْ على كَبِدِ الـ ـنَائِلِ نَارًا تَغْلِي على كَبِدِهِ

إذ بدأ ببيان مراد الشاعر فقال : "يُريد أنه شفع له إلى ابن أبي دؤاد .." ثُمَّ ذكر أن معنى البيت "كان أملي وما أجده من ابن أبي دؤاد قد بطل وذهب" (٢) .

ونجد مثل ذلك أيضًا عندما عرض لقوله :

غُرْبَةٌ تَقْتَدي بغُرْبَةِ قَيْسٍ بـ ـنِ زُهَيْرٍ والحَارِثِ بنِ مُضَاضِ

حيث أشار إلى أن الشاعر يريد : " غربة قيس بن زهير بن جذيمة العبسي" وتعود قصة غربته إلى أنه لمّا اصطلحت عبس وذبيان بعد حرب داحس والغبراء ، قال، لا أنظر إلى من قتلت أخاه وأباه ، فتنقّل في البلاد حتى مات غريبًا . وغربة الحارث

---

(١) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣١٠ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤١٩ .

الجُرْهمي أنه هام على وجهه بعد أن أخذت خُزَاعة مكة من جُرْهُم . ثُمَّ أورد الصولي بعد هذا معنى البيت ، " يقول أبو تمام : خير من صبرك على النائبات غربة كغربة هذين ، وهي أشد غربة وأطولها امتداداً" [١] .

ويرى أن بعض أبيات أبي تمام تتسم بالإغراب ، والتعقيد ، والغموض في المعنى ، واستدل على ذلك بموقف " ابن الأعرابي" الذي كان يرد شعر أبي تمام ، تعصبًا ، لأنه لم يستطع أن يفهم بعض معانيه [٢] ، ذكر أيضًا " أن أبا حاتم السجستاني قد سئل عن بعض معانيه ، فلم يعرفها ، وقال : " ما أشبّه شعر هذا الرجل إلا بثياب مصقلات خلقان لها روعة وليس لها مفتش " [٣] .

لذا لجأ الصولي إلى القصص والأخبار ، وعادات العرب وإلى المعارف التي هي خارج النّص لتوضيح المعنى ، واستعان بها على بيان مقصود الشاعر ، والدفاع عنه ومقارعة الخصوم الذين عابوا عليه كثيراً من معانيه ، ودلالات ألفاظه :

تِسْعُونَ أَلْفًا كَآسَادِ الشَّرَى نَضِجَتْ أَعْمَارُهُمْ قَبْلَ نَضجِ التِّيْنِ والعِنَبِ

قبل أن نذكر شرح الصولي لمعنى هذا البيت ، تجدر الإشارة إلى أن بعض النقاد قد عاب على أبي تمام ذكره للتّين والعنب – هنا – واستهجنوه في الشعر عامة، فعدَّه – على سبيل المثال – عبد الله بن المعتز "من خسيس الكلام" [٤] . لكنّ الصولي ردّ بأن : "هذا مما عابه من لَمْ يدر ما قَصْده . . . " ومقصد الشاعر في خبر عن المعتصم في فتح عمورية ، وذلك أن الروم قالوا لئن أقام هؤلاء الفاتحون إلى زمن التين والعنب، لا يفلت منهم أحد . . . فبلغ ذلك المعتصم ، فقال : أمّا إلى وقت التين والعنب ، فأرجو أن يَنْصُرني اللّه عزّ وجل قبل ذلك . . . " [٥] ، وربط الصولي بين

---

(١) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٦١١ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ .

(٣) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢٤٤ .

(٤) ابن المعتز : رسالة في محاسن أبي تمام – جمع د . عبد الكريم المحارب – مجلة مجمع اللغة الأردني ع ٤٨ ، ص ٢٨٧ – ٣٢١ .

(٥) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ .

صحة هذا الخبر وابتداء أبي تمام بقوله :

السَّيْفُ أصْدق أنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ في حدِّه الحَدُّ بَيْن الجِدِّ واللَّعِبِ

حيث أشار الشاعر إلى التنبؤات المكتوبة عندهم ، بأن عمورية لن تفتح في ذلك الوقت ، فكان السيف /الغزو أصدق من رواياتهم وتخرصاتهم . وأيد الصوليَّ فيما ذهب إليه الآمدي في « الموازنة بين الطائيين » عندما أنكر على ابن المعتز نقده ، وذكر أن لهذا البيت خبراً لو انتهى إلى أبي العباس لما عابه . . . . " ثم ذكر قصة نزول المعتصم عمورية وفتحه لها [١] .

على أن الصوليَّ يرى أنه "ليس أحد من الشعراء يعمل المعاني ويخترعها ويتكىء على نفسه فيها أكثر من أبي تمام" [٢] فهو كثيراً ما يأتي بمعان لم يسبق إليها، وعدَّ من ذلك قوله :

رَعَتْ طَرْفَها في هَامَةٍ قد تَنَكَّرَتْ وَصَوَّحَ منها نَبْتُهَا وهْوَ بَارِضُ

وفسره بقوله : "طلع المشيب ، وهو شعر ميت فجفّ في حالة طلوعه ، لأنه يقال: برض النَّبْتُ إذا طلع – ثم أردف قائلاً – وهذا مليح ما أعلم أنه سُبق إليه" [٣] .

أمّا المعاني التي اقتبسها الطائي من بعض الشعراء السابقين فقد قلّل الصولي من شأنها ، وذهب إلى أنه متى أخذ معنى زاد عليه ، وتمّم معناه ، فكان أحقَّ به ، وقد مضى الحديث عن إفادته من الشعراء السابقين وموقف الصولي من ذلك في المبحث السابق .

المعاني المشكلة : إذا كان الصولي قد نجح في الكشف عن بعض معاني شعر الطائي نظراً لأنه كان على دراية ببعض ملابسات تلك الأبيات ، فإنه قد أخفق في فهم بعض الأبيات ذات المعاني المشكلة ، فكان شرحه موضع انتقاد بعض الشراح اللاحقين .

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٥٣ .

(٣) الصولي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٦٠١ .

ومن الأبيات التي لم يوفق في شرحها ، قول أبي تمام :

حتَّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشِّرْكِ مُنْعَفِرًا وَلَمَ تُعَرِّجْ على الأَوْتَادِ والطُّنُب

جاء في شرحه : "حتى حططت عمود الشرك منعفرًا فألصقته بالعفر ، وهو وجه الأرض . وهذه استعارة ومَثَل . ولم تعرج على الأوتاد والطنب ، يقول : سافرت بارزًا ومبادرًا ولم تكتن بالخيام ، وقيل : إنّ المعنى لم تلتفت إلى الغنائم" (١) .

يبدو شرح الصولي هنا شرحًا سطحيًا ، ينظر إلى الألفاظ في معناها الظاهر فحسب ، ولم يصل إلى المعنى المستتر وراء الظواهر ، ويبدو كذلك أن إشكال المعنى لدى الصولي كان بسبب قيام البيت على المحسن المعنوي من مراعاة النظير بين عمود وأوتاد وطُنب . فقد نبه المرزوقي إلى عدم توفيق الصولي في تفسيره ، وذكر أنّ "مراد أبي تمام في هذا ، أنَّك من بيت الشرك قصدت عموده وما كان قوامه به ، فزعزعته ونزعته ، ولم تعطف على جوانبه ، وما أخذ أخذه دونه ، وذلك أنّ العمود إذا نزع من البيت المضروب هُدم ولم يلبث ولو قطع من أطنابه وقلع عدّة من أوتاده لكان لا يسقط ، وكذلك يريد أبو تمام ، أنك قصدت قصبة الكفر دون القرى والرساتين ، وأثّرت في المعظّم منه دون الأتباع والأذناب وهذا ظاهر" (٢) .

إن استعمال أبي تمام للصنعة البديعية قد يوهم الناظر في شعره بغير المعنى الذي يقصده ويطلبه ، فيذهب من يتعامل مع شعره تعاملاً لفظيًا ظاهرًا إلى غير المعنى الذي يرمي إليه ، وكان هذ المزلق أكثر مالاحظه الشُرَّاح والنقاد في شرح الصولي .

كما يلاحظ أن الصولي يقع أحيانًا في تناقض يؤدي إلى ارتباك الشرح واهتزاز صورة المعنى ، فلا يفهم مراد الشاعر على الوجه الذي يصح فيه ، ومن أمثلة ذلك ما شرح به بيت أبي تمام :

ولَيْسَتْ بالعَوَان العَنْسِ عِنْدِي ولا هيَ مِنْكَ بالبِكْرِ الكَعَابِ

شرحه أولاً بقوله : "ليست عندي بقديمة ، في كل وقت لك عندي صنيعة ، ولا

---

(١) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) ابن المستوفي - النظام ، جـ ١ ، ق ١٠٣ .

هي منك بالبكر ، أي ولا هي بأول أياديك .. ، ثم أردف ، "ويكون قوله بالعوان ، أي لم أمدح بها سواك" (١) . وعقّب ابن المستوفي على هذا الشرح "وفي كلام الصولي تضاد ظاهر لمتأمله" (٢).

والتناقض يظهر في تفسير الصولي للعَوَان العَنْس ، حيث فسرها في أول الشرح بالصنيعة/العطية التي وهبها الممدوح محمد بن الهيثم للشاعر ، وفسّرها في آخر الشرح بالقصيدة التي قالها الشاعر في مدح ابن الهيثم ، وقد ذكره على أنه معنى واحد ، وليس معنى آخر يحتمل دلالة أخرى . كذلك ورد في شرحه لبعض الأبيات ما ناقض به بعض شروحه السابقة ، فمثلاً ذكر أن قوله :

فإذَا مَا الخُطُوبُ أَعْفَتْهُ كَانَتْ رَاحَتَــاهُ حَوادِثًا وخُطُوبَــا

معناه "الحوادث والخطوب تذهب بماله . فإذا لم تكن حوادث وخطوب ، فراحتاه في تفريق ماله من أعظم الحوادث والخطوب ، أي : إن لم تتلف الخطوب ماله أتلفته يداه" (٣) .

وقد سُبق هذا البيت بقوله :

سَبَقَ الدَّهْرُ بالتِّلادِ ولَمْ يَنْـ تَظِرِ النَّائبَاتِ حَتَّى تَنُوبَا

وكان شرح الصولي له غير دقيق ، حيث جعل معناه أن الممدوح / محمد بن يوسف الثغري يفرق ماله لعلمه أن النوائب تنوب عن المال . ولا يبدو أن هذا المعنى هو مراد الشاعر ، إنّما المعنى أنه لا ينتظر بماله النائبات وحوادث الدهر ، بل يسبق النائبات فيجود به عفواً لا اضطراراً . وظاهر أن بين المعنيين - هنا - تناقضاً ، ولا يمكن التوفيق بين أن الحوادث والخطوب تذهب بماله ، وبين أنه يسبقها ولا ينتظرها ، بل يجود بماله تكرُّمًا . ولا نجد للصولي مبرراً لهذا ، مع أسبقيته وعلمه واشتغاله كثيراً بشعر أبي تمام .

---

(١) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٢) ابن المستوفي - النظام ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ .

(٣) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٥٢ .

وقد يتزيّد الصولي في شرحه لبعض أبيات أبي تمام ، فيكون في الزيادة خطأٌ يثير عليه غضب بعض النقاد والشراح من بعده . وكان في شرحه المعنى الذي أراده أبو تمام عندما وصف فرار « توفلس » يوم فتح عمورية ، زيادة لا حاجة إليها :

وَلَّى وقَدْ أَلْجَمَ الخَطِّيُّ مَنْطِقَهُ بِسَكْتَةٍ تَحْتَهَا الأَحْشَاءُ في صَخَبِ

وذكر أن توفلس ولّى منهزمًا وهو من خوف الرماح لا يطيق الكلام ، وكانت أحشاؤه تصطخب ، يريد : أن الفزع ربما أحدث صاحبه وتحركت أرواح بطنه ، ويقال هذا في رجل به أُدْرَة . قال الشاعر في رجل آدر :

مَا زَالَ مِنْهُ الخُمْقُ واللَّجَاجَـةْ
في حَاجَةٍ مِنْهُ وغَيْرِ حاجَـــةْ
حَتَّى حَسِبْنَاهُ عَلى دَجَاجَـــةْ

وقال جرير :

لهُمْ أُدَرٌ تُصَوِّتُ في خُصَاهُمْ كَتَصْوِيتِ الجَلاجِلِ في القِطَارِ [١]

من الواضح أن الصولي هنا بغوصه وراء المعنى البعيد ، قد ذكر ما لاحاجة إليه ، ومعنى بيت أبي تمام قريب دلَّ عليه كلامه في أول الشرح ، وأما ما ذكره بعد ذلك فهو زيادة وصفها ابن المستوفي بأنها "زيادة قبيحة ، إذ لم يُردْها أبو تمام ولا دلّ عليها ، ولو قطع فسره عند قوله "تصطخب" لأتى بالمعنى" [٢] .

وقد لاحظ أبو علي المرزوقي تكلف الصولي مؤونة الغوص البعيد في محاولة إدراك المعنى ، ووجه المعنى عنده يكون " ألجمه الخوف بلجامٍ من السّكوت ، لكنّ قلبه يجبْ وأحشاؤه تخفق حتى صار لهما كالجلبة " [٣] . ولا يختلف تفسير المرزوقي للبيت عما ذكره الصولي في مقدمة شرحه لمعناه ، غير أن الصولي استطرد في الشرح

---

(١) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٠١ .

(٢) ابن المستوفي - النظام ، جـ ١ ، ص ١٠٥ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٦٧ .

والاستشهاد ، ودلالة شواهده في حالة الأُدُرْ غير الذي يدل عليه بيت أبي تمام السابق . وهذا الاستقصاء في تناول المعنى وإيراد الشواهد ليس مطرداً عند الصولي ، رغم أن ما أورده من الأشباه والنظائر ليس بالشيء اليسير في شرحه .

هكذا كان منهج الصولي في شرحه لمعاني شعر أبي تمام : يُفسر الألفاظ ، ويبين مراد الشاعر ، ويحلل معاني الأبيات ، ويعرض ذلك في صورة مبسطة ، وعبارات سهلة مختصرة ، خالية من السجع والتكلف ، إذ كان همه الأول الكشف عن المعنى ، وإزالة الغموض ، وفك المستغلق ، وقد استخدم بعض العناصر التي تعين على فهم الدلالة المعنوية وتكشف النقاب عنها ، فكان للغة والنحو والبلاغة والرواية ، والأخبار والقصص ، والأشباه والنظائر دور مهم في الإرشاد إلى المعنى والهداية إليه. كذلك وظف كل معارفه وثقافته الشعرية في الدفاع عن بعض المعاني والدلالات التي عابها النقاد على الطائي ، مما دفعه أحياناً إلى التمحل ، أو التناقض ، في تفسير بعض الأبيات التي تعقبه فيها من جاء بعده .

الفصل الثاني

شـــــرح التبريـــــزي

تقديم :

أجمعت كتب التراجم والأدب على أن اسم التبريزي هو : يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ [١] ، ابن الخطيب التبريزي ، كان أحد أئمة القرن الخامس في النحو والأدب واللغة ، ولد في مدينة تبريز سنة ٤٢١ هجرية ، ونشأ فيها ، ونُسب إليها ، وتنقّل بين عدد من الحواضر والبلدان العلمية في كل من فارس والعراق ، والشام ، ومصر ، ورحل إلى أبي العلاء المعري ، ولازمه مدة من الزمن فأخذ عنه ، وقرأ عليه ، كما أخذ عن الفضّل القصباني[٢] ، وعبد القاهر الجرجاني[٣] ، وسمع الحديث على الخطيب البغدادي [٤] ، وأخذ كثيرًا من علوم اللغة ، والنحو ، والأنساب عن عدد من العلماء أشهرهم ابن برهان [٥] ، وابن الدَّهان [٦] .

---

(١) انظر مزيداً من ترجمته في :
- ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جـ ٧ ، ص ٢٨٧ .
- ابن الانباري : نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، ص ٢٧٠ .
- حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص ٨١٢ .
- بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، جـ ٢ ، ص ٩٠ .
- الزركلي : الأعلام ،
ط : دار العلم ، الخامسة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، جـ ٩ ، ص ١٩٧ .
- بلسنر : دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : إبراهيم خورشيد وآخرون ،
ط : مطبعة الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، جـ ٤ ، ص ٥٦٧ - ٥٦٩ .

(٢) هو أبو القاسم ، الفضل بن محمد بن علي النحوي ، البصري ، كان إماماً في العربية ، توفي سنة ٤٤٤هـ . انظر : ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٦ ، ص ٢١٨ .

(٣) هو : عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، فارسي الأصل ، متكلم أشعري ، وفقيه شافعي ، تتلمذ على القاضي الجرجاني ، من كبار الأئمة في النحو واللغة والبلاغة ، له ما يقارب عشرين مؤلفًا ، توفي سنة ٤٧١هـ . انظر : القفطي : إنباه الرواة ، جـ ٣ ، ص ١٨٨.

(٤) هو : أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، صاحب تاريخ بغداد ، كان فقيهًا حافظًا من العلماء المتبحرين توفي سنة ٤٦٣هـ . انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٧٦ .

(٥) هو : عبد الواحد بن علي بن برهان العكبري ، النحوي ، البصري ، عالم في اللغة ، والأنساب ، وأيام العرب توفي سنة ٤٥٦هـ ، انظر : القفطي : إنباه الرواة ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ .

(٦) هو : الحسن بن محمد بن علي بن رجاء ، أحد الأئمة في النحو واللغة ، درّس الفقه ، والأصول ، والحديث ، واللغة ، توفي سنة ٤٤٧هـ ، انظر : الطبري : تاريخ الطبري ، جـ٣ ، ص ١٣١٤ .

نال التبريزي مكانة مرموقة في عصره ، فقد ولي تدريس الأدب في المدرسة النظامية ، وخزانة الكتب فيها .

وكان - كغيره من بعض علماء عصره - موسوعي الثقافة ، درس اللغة ، والأدب ، والنحو ، والحديث ، والفقه ، والتاريخ ، وخلّف تراثًا ثقافيًا في حقول مختلفة . لكن معظم مؤلفاته كانت شروحًا أدبية ولغوية . ومن مصنفاته : تفسير القرآن الكريم ، وتهذيب إصلاح المنطق ، وتهذيب غريب الحديث ، وشرح اللمع لابن جنّي ، وشرح القصائد العشر ، والكافي في العروض والقوافي ، وشرح المفضليات ، وثلاثة شروح على حماسة أبي تمام ، وشرح ديوان المتنبي ، وشرح مقصورة ابن دريد ، وشرح سقط الزند ، ومقدمة في النحو ، وشرح ديوان امرىء القيس ، وشرح ديوان أبي تمام ، وغير ذلك من الشروح اللغوية ، وشروح القصائد ، والدواوين ، والمختارات الشعرية .

وتجدر الإشارة إلى أن أكثر الشروح التي صنفها التبريزي قد جرت لها شروح سالفة [١] ، وقد جمع التبريزي بعضها ، واعتمد عليه في أثناء تدريسه بالمدرسة النظامية، ثم انتخب منها شروحًا ، حاول أن يوفق بينها في أغلب الأحيان ، فشرحه لديوان أبي تمام مسبوق بسبعة شروح سلف ذكرها ، وسُبق عمله في "شرح الحماسة" بما يزيد عن خمسة وعشرين شرحًا ، أشهرها شرح أبي رياش ، والنمري ، وابن جنّي ، وأبي هلال العسكري ، والمرزوقي ، والمعري ، وغيرها .

أيضًا تناول العلماء - قبله - بالشرح ديوان المتنبي ، وسقط الزند ، والقصائد العشر ، ومقصورة ابن دريد ، وقصيدة بانت سعاد ، وكان التبريزي دائمًا يختار من هذه الشروح ، ما يحقق غرضه التعليمي ، ويناسب منهجه في عرض المسائل اللغوية والنحوية والأدبية . لكنه في أغلب مؤلفاته يغفل كثيراً عزو النقول إلى أصحابها ،

ونظرًا لأن بعض هذه الشروح لا تزال مفقودة ، فإنه يتعذر في كثير من الأحوال معرفة أصحاب تلك النقول ، وخاصة أن التبريزي كان في اختياره يدمج بين تلك النقول، فعلى سبيل المثال ، نجده في بعض الأبيات يأخذ الشرح اللغوي من المعري ، وينقل عن

---

(١) انظر : فخر الدين قباوة : منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات ، ط : المكتبة العربية ، حلب ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٤م ، ص ٢١٥ .

المرزوقي التحليل الأدبي ، ويفيد من الصولي في الجانب التاريخي ، ثم ينسّق بينها بأسلوب محكم في أغلب الأحيان ، ويسخرها لخدمة عمله في شرح الشعر . وهذا لا يعني أن شخصيته قد اختفت تمامًا ، وأنه كان عالة على غيره في كل شروحه ، فهو عالم باللغة والأدب ، وصاحب ثقافة واسعة ، وحصيلة متنوعة ، مكنته من تقديم إضافات جديرة ومتميزة ، فنراه يتوسع في معالجة بعض العناصر ويستطرد في كثير من التفريعات والتفصيلات الدقيقة ، مستعينًا على ذلك بما أسعفه مخزونه الثقافي من المعارف ، والآراء ، والأدلة ، والشواهد الشعرية والنثرية .

دوافع الشرح: جرت عادة التبريزي بأن يذكر في مقدمات شروحه بعض الأسباب التي دعته إلى تصنيف هذا الشرح أو ذاك ، فمثلاً في مقدمة شرح الحماسة ، ذكر أنه " قد فسره جماعة ، فمنهم من قصر فيه ، ومنهم من عنى بذكر إعراب مواضع منه دون إيراد المعاني ، ومنهم من أورد الأخبار التي تتعلق به ، وأعرض عن ذكر المعاني ، ومنهم من ذكر المعاني دون الإعراب والأخبار ، ... "فاستعنت بالله تعالى على شرحه من أوله إلى آخره شرحًا شافيًا بيتًا بيتًا على الولاء ، وتبيين اشتقاق أسامي شعراء الحماسة وغيرهم ممن يجري ذكره في الكتاب وتفسير ما في كل بيت من الغريب ، والإعراب ، والمعنى ، وذكر ما اختلف فيه العلماء في المواضع التي اختلفوا فيها ، وإيراد الأخبار في أماكنها" [١] .

كما علّل شرحه على : سقط الزند للمعري بأن "جماعة من وجوه الكتّاب والرؤساء، من أهل الأدب وعيون الناس ، يرغبون في شرح ما أُهمل من أبياته ، وإيضاح مشكلاته" [٢] . كذلك شَرَحَ العلماء المتقدمون «المفضليات» بما فيه الكفاية غير أن التبريزي رأى أن « بعض الشروح قد طال لكثرة ما ذكر فيه من اللغة الغريبة ،

---

(١) التبريزي : شرح ديوان الحماسة ، ت : محيي الدين عبد الحميد ، ط : مطبعة حجازي ، مصر ، ١٣٥٨هـ ، جـ ١ ، ص ٥ - ٦ .

(٢) التبريزي : شرح سقط الزند ، ت : طه حسين وآخرون ، ط : الدار القومية للطباعة ، مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٦٤هـ - ١٩٤٣م ، ص ٤ .

والاستشهادات عليها ، . . . وبعض الشروح يذكر فيه في البيت ما يتعلق به ، وما لا تعلّق له به" [١] .

والغرض من شرح القصائد - في رأيه - "الاقتصار على ما يعرف به ما في الشعر ، من الغريب والإعراب والمعاني ، دون ما يتشعب من اللغة والإعراب ، لئلاّ يشغل القارىء منه ، والناظر فيه عن الغرض المقصود ..." [٢] .

فالشروح السابقة - في تقديره - إمّا أن تكون قاصرة وناقصة ، فتحتاج إلى إكمال الناقص ، وسدّ ثغرة التقصير ، وإمّا أن تكون طويلة ، حافلة بالأخبار والتعليقات والاستطرادات ، فتحتاج إلى قدر من الاختصار والإيجاز على ما يُفهم به الشعر وتحصل به الفائدة .

وعندما أنعم التبريزي النظر في بعض شروح ديوان أبي تمام ، وجدها لم تعرض لشرح جميع شعره ، ورأى أن بعض الشراح كان يُنحي عليه ويهجّن معانيه ، ويزيّف استعاراته ، وبعضهم كان يتعصّب له ، ويصف من يعيبه بالجهل والضلال .

كما لاحظ - أيضًا - صعوبة شعر الطائي واستغلاق معانيه على كثير من الناس ، لا سيما على من لا يستأنس بطريقته ، فهو ليس كغيره من الشعراء الذين يسهل على القارىء التوصل إلى معرفة معانيهم وأغراضهم ، هذا إضافة إلى رغبة المولى أبي نصر محمد بن عماد الدين - مولى أمير المؤمنين في شعر أبي تمام من بين سائر دواوين المحدثين ، وميله إليه ، لذلك شرع في وضع شرح لديوان أبي تمام مبرراً ذلك بقوله :

"استعنت الله تعالى على شرحه ، وذكر الغريب والمعاني والإعراب فيه ، وترجيح بعض أقوال العلماء فيه على بعض ، لأن منهم من أنصفه ، ومنهم من أنحى عليه ، وربما احتمل البيت معنيين ،ويكون أحد المعنيين أقوى من الآخر ، فلا يميّز بينهما إلاّ من حسن فهمه ، وصفا ذهنه ؛ لأن نقد الشعر أصعب من نظمه ، فأوضحت ذلك بإيراد ما لا محيد عنه للقارىء منه ، والناظر فيه ، بلفظ موجز ، قليله يدلّ على الكثير ،

---

(١) التبريزي : شرح اختيارات المفضّل ، ت : د . فخر الدين قباوة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، جـ ١ ، ص ٩١ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٩٢ .

وقصيره يغني عن التطويل ، فخير الشروح ما قلّ ودلّ ، ولم يَطُلْ فَيُمَلّ" [١] .

يتضح من هذا القول عدة أمور تمثل أهم الدوافع التي استجاب لها التبريزي في تصنيفه للشرح :

أولاً : رفع الظلم الذي لحق بالشاعر من بعض الشراح ، وبيان منزلته عند العلماء دون تعصب له أو عليه ، لأن منهم من أنصفه ، ومنهم من أنحى عليه .

ثانيًا : اعتقاده بأن الشروح السابقة قد قصّرت وأخلّت بغرض الشرح ، لأنها لم تتناول جميع ما في ديوان أبي تمام ، أو لأنها عُنيت بجانب من الشرح وأهملت بعض الجوانب الأخرى . فأراد التبريزي أن يجمع من هذه الشروح شرحًا شاملاً في بوتقة واحدة .

ثالثًا : تقريب الشرح إلى إدراك التلاميذ ، وتسهيله على عقولهم ، بتلخيص معظم الشروح السابقة واختصارها ، من غير إخلال بالغرض ، بتعبير موجز ، وفي أسلوب سهل ميسر ، يفيد منه الطلاب ، ويستغنون به عن الشروح المطولة .

وآخرهذهالأسباب : تلبية رغبة صديقه - مولى أمير المؤمنين - المولى أبي نصر محمد ابن عماد الدين ، إذ رأى التبريزي كثرة ميله إلى شعر أبي تمام ، وصدق رغبته فيه دون سائر دواوين المحدثين ، فأحب أن يصنع له هذا الشرح ، ليكون دليلاً على صلته به ومحبته له .

هذه أهم الدوافع التي حدت بالتبريزي - في رأينا - إلى أن يقدّم شرحًا منتخبًا من الشروح السابقة مضيفًا إليه بعض ما قاله النقاد - من قبل - في شعر أبي تمام ، فتداخلت فيه الشروح والأقوال ، وزاد عليها من معارفه وعلومه ، ما يجبر نقيصتها ، ويسدّ ثغرتها في بعض المواضع ونقَدَهَا في مواضع أخرى ، وسنتناول ذلك بالتفصيل في موضعه ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، جـ ١ ، ص ٢ .

مصـــادر الشـــرح :

ذكرنا أن التبريزي تتلمذ على أساتذة مشهورين في علوم اللغة ، والأدب ، وغيرهما ، فكانوا له بمثابة المعين الفياض ، الذي استقى منه جلّ معارفه ، وقد ظهرت آثارهم واضحة في شرحه ، ذلك إمّا بنقل آرائهم وتسجيلها مباشرة ، أو بتوظيف بعض ما عندهم من آراء ، ومعارف ، وطُرُق في شرح الشعر ، ومعالجة النصوص .

غاية التبريزي في تأليف شرحه على شعر أبي تمام **غاية تعليمية شمولية** ، تعتمد على بعض الشروح السابقة ، واختيار ما يلائمه منها من الروايات ، والأخبار وشرح المعاني والألفاظ ، وبعض الإشارات البلاغية ، والتوجيهات النحوية ، لذا نراه يصرح ابتداءً من الصفحة الثانية في كتابه بالمصادر التي استقى منها مادة شرحه : "وأنا – إن شاء الله – أكتب شعره من أوّله إلى آخره ، وأذكر من غريبه وإعرابه ، ومعانيه وأخباره ، ما لا بدّ منه ، وأشير إلى ما ذكره أبو العلاء من الأبيات المُشكلة في مواضعها ، وإلى ما ذكره أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقيّ في كتابه المعروف « بالانتصار من ظلمة أبي تمام » ، وإلى ما ذكره أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي في معاني شعره ، وما ذكره أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ، وما وقع إلىّ مما رُوي عن أبي علي المعروف بالقالي[١] ، وغيره من شيوخ المغرب" [٢] .

كذلك أخذ التبريزي عن غير هؤلاء الشُرَّاح الذين عدّدهم في المقدمة ، فقد أشار في نهاية كتابه إلى أنه أخذ عن أبي عبد الله محمد بن الخطيب [٣] ، صاحب « مبادىء اللغة » ، وجعل علامته في بعض المواضع « الشيخ » ، وأفاد منه في تفسير بعض الألفاظ، وشرْح بعض المعاني ، وبعض التوجيهات النحوية ، مثال ذلك ، أنه عندما وقف

---

(١) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ، سمع الحديث في بغداد ، ودخل الأندلس عام ٣٣٠ هجرية ، وكان أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين ، توفي سنة ٣٥٦ هجرية . انظر : المقري : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٧٣ .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢ .

(٣) هو محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي ، من أهل أصبهان ، من أشهر مصنفاته : كتاب "مبادىء اللغة" ، وكتاب غلط كتاب العين ، وشواهد كتاب سيبويه ، وكتاب الغرة ، توفي سنة ٤٢٠هـ . انظر : ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١٨ ، ص ٢١٤ .

على قول الطائي :

أَضْحَى الشَّجَا مُسْتَطِيلاً في حُلُوقِهِم مِنْ بَعْدَمَا جَاذَبُوهُ وَهْوَ مُعْتَرِضُ

وجد أن أبا عبد الله قد أدرك مراد الشاعر ، فذكر شرحه منفرداً ، ولم يورد معه غيره ، قال « أبو عبد الله » : " أي قد نالوا ما أرادوا بعد أن عانوا زمانًا طويلاً في طلبه ، فقدروا باستطالة على ابتلاعه ؛ لأن الشّجا إذا اعترض تعذر ابتلاعه وإساغته"[١].

ومن أشهر الشُرَّاح المتقدمين الذين أخذ التبريزي عنه ولم يصرّح باسمه ، بل اكتفى بالرمز إليه ، أحمد بن محمد الخارزنجي ، ورمز إليه بالحرف (خ) ، وقد نقل عنه في عدد من المواضع بشكل يوقفنا - بالإضافة إلى ما نقله عنه ابن المستوفي - على معظم شرح أبي حامد الخارزنجي .

ونجد اسم العبدي[٢] يتردد في بعض مواطن من شرح التبريزي ، فهو ينقل عنه ويقتبس من شرحه بعض التفسيرات والتوجيهات ، كالذي أخذه في شرح هذا البيت :

أَظَلّتكَ آمَالِي وفي البَطْشِ قُوَّةٌ وفي السَّهْمِ تَسْدِيدٌ وفي القَوْسِ مَنْزَع

«العبدي» : "يقول مالت إليك آمالي وعندي بطش وقوة ، أي : أنا قادر على الشعر أقول ما أريد" [٣] . وللتبريزي هنا لفتة ذكية في نقد المعنى ، إذ يرى أن هناك شرحًا آخر - أورده قبل هذا - أقرب إلى قصد الشاعر من قول العبدي ، كما نقل التبريزي عن أبي علي السكري ، ورمز إليه بالحرف (س) ، وأغلب ما نقل عنه كان يقع في مجال رواية الشعر ، ونقل أحيانًا منه شرح بعض العبارات والألفاظ ، كما جاء في شرحه لهذا البيت :

أَشْرَعَتَ في بَحْرِ الجَهَالَةِ سَادِرًا والجَهْلُ في بَعْضِ الهَنَاتِ عُقَارُ

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢) هو أبو طالب ، أحمد بن بكر بن بقيّة العبدي النحوي ، من كبار النحاة ، أخذ عن السيرافي ، والفارسي . له كتاب شرح الإيضاح للفارسي ، توفي سنة ٤٠٦هـ . انظر : الزركلي : الأعلام ، جـ ١ ، ص ١٠٠ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ،ص ٣٣٢ .

(س) : « أشرعت سادراً » ، أي لا تهتمُّ لشيء ، وأصله من السَّدَر ، وهو إظلام البصر ، وقد يجوز أن يكون من سدرت السِّترَ ، إذا أسبلته مثل سدلته" [١] .

ومن الرموز التي وردت في متن شرح التبريزي - ولم يشر إلى مدلولها - ما رمز إليه بالحرف (ط) ، كما في روايته :

أو دُرَّةٌ بَيْضَاءُ بِكْرٌ أُطْبِقَتْ حَبَلاً عَلَى يَاقُوتةٍ حَمْرَاءِ

فذكر أنه في (ط) يُروى « أُطبِقَتْ » و « أَطْبَقَتْ » [٢]، وقد نسب ابن المستوفي في كتاب « النظام » هذا الكلام إلى الخطيب التبريزي ، مع تقديم وتأخير فيه[٣] ، ولعل التبريزي أشار بها إلى «الطُرّة » التي كانت في الأصل أحد نسخ شرح الصولي ، ثم صححها إبراهيم بن أحمد بن الليث بنسخة كانت لأحمد بن بكر العبدي [٤] .

أمّا الشُرَّاح الذين نقل معظم شُرُوحهم إلى كتابه فهم : الصولي ، والخارزنجي ، والمعري ، والمرزوقي ، ونصّ على أن علامة أبي العلاء (ع) في بعض المواضع ، وعلامة المرزوقي (ق) ، وجعل علامة الصولي (ص) ، غير أن التبريزي لم يلزم نفسه استخدام هذه الرموز بشكل مطرد ، إذ نراه في بعض مواضع من شرحه ، يغفلها ويطرحها جانبًا ، ويأخذ من بعض الشُرَّاح السابقين دون تصريح أو إشارة ، ثم يداخل بين الشُرُوح ويلفق بينها أحيانًا ، حتى يبدو وكأن الشرح من تأليفه ، وحصيلة أفكاره ؛ غير أن ابن المستوفي قد أفرز - في كتاب « النظام » - هذه الشروح المنقولة ونسب كل قولٍ إلى صاحبه بكل دقة وأمانة .

كذلك استعان التبريزي في أثناء شرحه لشعر أبي تمام ، وتحليل عناصره اللغوية والنحوية والبلاغية بآراء بعض العلماء والأدباء في تعزيز ما يتناول من مسائل ، وما يناقش من قضايا ، وبخاصة ما كان محل خلاف بين الشُرَّاح ، إذ نراه في عدة مواضع

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٣٥٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢ .

(٣) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص٢٤٩ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

يستدل بآراء بعض العلماء لإثبات ما يعتقد صحته في الشرح ، كما أنه يورد أقوال بعض العلماء أحيانًا لا للاحتجاج بها ، بل للردّ عليها ، وبيان الوجه الصحيح فيها ، وهو يهدف من ذكر آراء العلماء بجانب أقوال الشُرَّاح ، إلى إضفاء قيمة علمية تميّز شرحه وتزيد من قيمته . وتلك طريقة العلماء الذين يتصدون لعملية التدريس ؛ لأن الوظيفة التربوية تفرض عليهم ذلك .

ومن العلماء الذين نجد لهم آراء في شرحه : الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، والكسائي ، والأصمعي ، ويونس بن حبيب ، وقطرب ، وابن السكيت ، والأخفش ، والمبرِّد ، وأبوعبيدة ، والفراء ، وابن الأعرابي ، وأحمد بن فارس ، وغيرهم ، وكان أغلب استدلاله بآرائهم في مجال الرواية ، وتفسير الألفاظ ، واللغة ، والنحو ، والصرف . من ذلك ما ذكره في تفسير لفظة « القسمة » التي جاءت بصيغة الجمع في قول أبي تمام :

تَرَى قَسَماتِنَا تَسْوَدُّ فِيها   ومَا أَخْلاقُنا فيها بِسُودِ

من أقوال الأصمعي ، وأبي عبيدة ، والفراء ، « فالقسمة » عند الأصمعي هي مجاري الدمع ، وقال أبو عبيدة : « القسمة » : أعلى الوجه ، وقال الفرّاء : القسمة : الوجه [1] ، ويلاحظ أنهم جعلوا القسمة هنا في الوجه ، غير أن منهم من خصها في موضع من الوجه بعينه ، ومنهم من جعلها في الوجه عامة ، وتسمية الكل بالجزء ، وعكسه جائز . وقد اختار التبريزي في شرحه قول الفراء ، ويكون مراد الشاعر عنده : أسودت وجوهنا من سفع العجاج في الحرب .

وفي محاولة منه للدفاع عن قول أبي تمام :

قَسَمَ الزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ الصَّبَا   وقَبُولِهَا ودَبورِهـــــا أثْلاثَـــا

استدل بقول النضر بن شميل وابن الأعرابي على أن أبا تمام لم يخطىء في تفسير معنى التقسيم هنا ، فذكر أن « القبول » عند ابن شميل هي ريح بين الصَّبَا والجنوب ، وابن الأعرابي يرى أن « القبول » هي كل ريح ليِّنة طيبة المسّ تقبلها النفس [2] ، وقد

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣١٢ .

زعم الآمدي أن الصَّبَا هي القبول ، وأنه ليس بين أهل اللغة في ذلك خلاف ، وأن أبا تمام قد أخطأ [١] .

ويبدو أن علماء اللغة لم يقطعوا بدلالة ثابتة للفظتي القبول والصَّبَا ، ويظهر ذلك من اختلاف تفسير ابن الأعرابي ، وابن شميل ، والآمدي لها ، لذلك فإن أبا تمام - عند التبريزي - لم يكن مخطئًا ، ولا يرى لمن ردّ عليه في هذا وجهًا صحيحًا .

أمّا مصادر الشواهد : التي احتج بها لشعر أبي تمام ، فقد تعددت مناحيها وتنوعت مواردها ، بسبب معالجته لكثير من القضايا اللغوية ، والمسائل النحوية والبلاغية ، فشملت القرآن الكريم ، والقراءات القرآنية المختلفة ، والحديث النبوي الشريف ، والشعر العربي القديم ، وبعض ما أثر عن العرب من الحكم ، والأمثال، والأقوال الفصيحة والصحيحة ، وكانت شواهده لبيان معاني الألفاظ ، أو بيان الوجه اللغوي أو النحوي أو الصرفي ، وقد يكون الشاهد على مسألة بلاغية ، أو أنه يورده من قبيل الشبيه والنظير . ولم يلتزم التبريزي في إيراد شواهده نمطًا موحداً ، إذا تعددت مصادرها ، وكثيرًا ما يبدأ بالشاهد القرآني ، ثم يعقب بعد ذلك بغيره من الشواهد .

وفي البيت الأول من القصيدة التي مدح بها أبو تمام محمد بن حسان الضبي :

قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي الغُلَوَاءِ كَمْ تَعْذِلُونَ وأَنْتُمُ سُجَرَائِي ؟!

أنكر بعض الشُرَّاح أسلوب الخطاب هنا ، ووصفوه بعدم الاستقامة ، وذهب آخرون إلى أنه خاطب في الشطر الأول ثلاثة من أصحابه [٢] ، بينما يرى التبريزي أن قوله «كم تعذلون » بعد « أربيت » خروج من خطاب الواحد إلى خطاب الجميع ، ومثله كثير في القرآن الكريم ، والكلام القديم [٣] . ومنه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[٤]، إذ فيه خروج من خطاب الواحد / النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى خطاب

---

(١) انظر : الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ١٥٨ .

(٢) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٢ ، وانظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٢٧ .

(٣) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٢ .

(٤) سورة الطلاق ، الآية رقم ١ .

الجمع / عامة المسلمين . ويلاحظ أن التبريزي اقتصر من الآية على موضع الشاهد فحسب . كما أفاد من بعض القراءات القرآنية واستشهد بها في بعض مواضع من شرحه ، من ذلك بيان اللغة في كلمة « حُلِيّ» الواردة في هذا البيت :

وإِذَا مَشَتْ تَرَكَتْ بِصَدْرِكَ ضِعْفَ مَا بِحُلِيِّها مِنْ كَثْرَةِ الوَسْوَاسِ

قال : «الحُلِيّ» بضم الحاء وكسرها : جمع حَلْى ، وقد قُرِئَ بهما جميعًا في قوله تعالى[١] : ﴿مِن حُلِيّهم عِجْلاً جَسَدًا﴾[٢] ، ولم ينسب التبريزي القراءات القرآنية إلى القرّاء ، وننبه إلى أن حمزة ، والكسائي قرآها - هنا - بالكسر ، وقرأ الباقون بالضّم[٣].

واعتمد التبريزي في شرحه على الشعر القديم اعتماداً كبيراً ، فقاس شعر أبي تمام ببعض الأشعار القديمة ، ورجع إلى موازينها سواءً كان ذلك في الألفاظ ، أو المعاني ، أو الأوزان ، فكانت أشعار السلف خير معين له في شرحه ، وقد تناول بعض شواهده الشعرية بالشرح ، والنقد ، والتعليل ، وسنبين هذا عند الحديث عن استطراداته . وهو في الغالب ينسب هذه الشواهد إلى أصحابها ، وربما أغفل نسبة بعضها ، نظراً لشهرة البيت الذي يستشهد به ، أو لعدم إمكانية القطع بصحة نسبته . ومن الشعراء الذين استشهد بأشعارٍ لهم امرؤ القيس ، والأعشى ، وبشر بن أبي خازم ، ولبيد ، وزهير ، ودريد بن الصمة ، وأوس بن حجر ، وتأبط شراً ، وعمرو بن كلثوم ، والمتلمس ، والفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، وابن قيس الرقيّات ، والكميت ، وكثيّر ، وذو الرُّمة ، وأبو نؤيب ، والشمّاخ ، والقطامي ، وغيرهم ، وعندما عرض لتفسير «العفاريت» في بيت الطائي :

فلَمَّا تَرَاءتْ عَفَارِيتُهُ سَنَا كَوْكَبٍ جاهلِّي السَّنَاءِ

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٨ .

(٣) انظر : مكي بن أبي طالب القيسي : الكشف عن وجوه القراءات السبع ، تحقيق : محيي الدين رمضان ،
ط : مؤسسة الرسالة ، الثانية ، بيروت ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، جـ ١ ، ص ٤٧٧ .

قال : "هو الخبيث المنكر ، وأصله أن يستعمل في الجنِّ ، ثم نُقل إلى الإنس ، والتاء فيه زائدة ، كأنه مأخوذ من الرجل العِفْر ، وهو القوي الشديد ، وربَّما عبّروا عن «العفر» بالشجاع . . . ثم استشهد بقول ذي الرُّمة :

كأَنَّه كَوْكَبٌ في إثرِ عِفْرَيَةٍ مُسَوَّمٌ في سواد الليل مُنتَصِبُ[١]

وذو الرّمة هنا شبّه الثور الوحشي القوي في سرعة انقضاضه على الكلاب ، وهو يتعقبهم ، شبّهه بكوكبٍ ينقض من السماء ليرجم شيطانًا في الأرض. واقتبس هذا من قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَجَعلنَاها رُجُومًا لِلشَيَاطِين﴾[٢] . ثم عزّز التبريزي استشهاده ببيت ذي الرُّمة بقول جرير :

قَرَنْتُ الظَّالمِينَ بِمَرْمَرِيسٍ يَذِلُّ بِهَا العُفَارِيةُ المَرِيدُ

وجرير في هذا البيت جعل العاتي المتكبر من الظلمة ذليلاً في الأرض القَفْر التي لا تنبت كلأً ، وتعبير العفارية المريد ، مقتبس من قوله تعالى : ﴿وإنْ يَدعُون إلاّ شَيطَانًا مَرِيدًا﴾[٣] . وعندما تعرض التبريزي لبعض المسائل النحوية في بيت :

مِنْ بَعْدَما صَارتْ هُنَيْدةُ صِرْمَةً والبَدْرَةُ النَّجْلاءُ صَارَتْ كِيسَا

استشهد بأقوال أربعة من الشعراء ، للدلالة على أن كلمة « هنيدة » تستعمل غير مصروفة ، فإذا جاءت في الشعر بالصرف احتملت وجهيْن : أحدهما أن تكون نوّنت للضرورة ، والآخر أن تكون نُكِّرت فنونّت كتنوين النكرات ، ومما استشهد به على ذلك قول الأعشى :

أَثَارَ لَهُ مِنْ جَانِبِ البَرْكِ غُدْوَةً هُنيدَةَ تَحدُوها إليه رعاتها

وقول هميان :

أَعْطَى فلم يَبْخَلْ ولم يقُوِّتِ
هُنَيْدَةً تَزيدُ فوقَ المائةِ[٤]

و «هنيدة» اسم للمائة من الإبل أو السنين .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ١٨ .

(٢) سورة الملك ، الآية رقم ٣ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١١٧ .

(٤) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٦٨ .

وخلاصة القول أن التبريزي قد أحاط بعدد من شروح شعر أبي تمام التي أُلّفت قبله ، فاتخذها أساسًا لشرحه ، فنقل كثيرًا من أقوال الشُرّاح الذين سبقوه إلى مصنفه، صرح بأسماء من يأخذ عنهم تارة ، وأخذ دون تصريح أو إشارة تارة أخرى ، ثم أضاف إليها من عنده ما رآه مناسبًا لإكمال شرح البيت الذي تناوله . كما استند في شرح بعض ما وقف عليه من القضايا اللغوية والمسائل النحوية إلى بعض أقوال النحاة واللغويين والنقاد ، ليعزز بها رأيه ، ويؤيد بها وجهة نظره ، وكان في أغلب شرحه يسوق الشواهد من المنظوم والمنثور ، ويذكر الأشباه والنظائر التي تعين على فهم الشعر ، وتساعد على كشف غامضه . أما بالنسبة للأمانة العلمية فإنه لم يكن دقيقًا في نسبة الأقوال إلى أصحابها ، وربما استخدم أسلوب التعميم الفضفاض ، فيقول مثلاً ، قال أهل اللغة الموثوق بهم ، أو قال النحويون ، أو قال الشاعر ، أو قال آخر ، وقد استخدم – كثيرًا – صيغة البناء للمجهول (قِيْلَ) عند ذكر بعض الشواهد أو الآراء .

والذي يبدو أن التبريزي كان يهتم بالنّص المنقول ، أو الرأي ، أو الشاهد أكثر من صاحبه ، وهو ليس بدعًا في ذلك ، بل اقتفى منهج بعض علماء عصره ، الذين كانوا يكتفون بنقل النصوص دون أن يعزوا منها إلا النادر القليل ، ولا يعدّون ذلك مما يجرح العمل أو يشينه [(١)] .

❀ ❀ ❀

رؤيـــة وصـــفيـــة:

يُعدُّ كتاب التبريزي من أغزر الشروح مادة – حتى نهاية القرن الخامس الهجري – بالنسبة لشرح ديوان أبي تمام ، إذ حاول مؤلفه استيعاب معظم ما جاء في الشروح السابقة عليه ، وحشد نقولاً كثيرة عن الصولي ، والآمدي ، والخارزنجي ، والمرزوقي، والمعري ، والعبدي ، والإسكافي ، والسكري ، وغيرهم ، وقد زاد في ضخامة مادته وغزارتها كثرة استطراداته واستشهاداته وذكره لعددٍ من الأشباه والنظائر التي أوردها للاستدلال على بعض مناحي الشرح . واهتمام التبريزي بأبي تمام يمكن أن نلمسه – كذلك – فيما صنعه من شروح على ديوان الحماسة الذي اختاره أبو تمام من أشعار

---

(١) انظر : فخر الدين قباوة : منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات ، ص ٢٢٢ .

القدماء ، فقد شرحه ثلاث مرات : شرح صغير ، أورد فيه كل قطعة مرة واحدة ثم شرحها ، وشرح متوسط : شرح الشعر فيه بيتًا بيتًا ، ثم شرح كبير : أكثر فيه من الاستشهاد والاستطراد ؛ وأغلب الظنّ أن الشرحيْن الصغير والكبير مفقودان ، أمّا المتوسط فقد طُبع عدة طبعات[١] ، وهو المتداول اليوم . كما نُسب إليه أنه ألّف شرحًا مختصرًا على ديوان أبي تمام ، نقل فيه كثيرًا من شرح الصولي ، فتوّهم النساخ أنه من صنعة الصولي ، فنقلوا مقدمة الصولي إليه [٢] . أمّا شرحه الكبير على ديوان أبي تمام فقد وصل إلينا كاملاً في أربعة مجلدات ، بتحقيق محمد عبده عزّام ، الذي اعتمد في تحقيقه على صُوَر لعدد من نُسخ المخطوطة التي حصل عليها . وصنّف هذه النُسخ في أسرتين :

الأولى: مُصوّرة عن الأصل المخطوط المحفوظ بمكتبة شهيد علي باشا باستامبول، وهي نسخة تامة في مجلديْن جعلها الأصل ، ورمز إليها بالحرف (ش) .

الثانية: عبارة عن نسختين ناقصتين ، ترجعان إلى أصل واحد ، رمز إليهما بنسختي (ن ، ب) وجعلهما أصلاً مساعداً .

وتبرز قيمة عمل عزام – هنا – في رجوعه إلى متن الديوان المخطوط ، وإلى النسخ المخطوطة للشروح التي نقل عنها التبريزي في شرحه ، فرجع إلى نسختين خطيتين لشرح الصولي ، وقابل شرح التبريزي كذلك مع شرح ابن المستوفي المخطوط ، الذي ضم بين دفتيه شروح الصولي ، والخارزنجي ، والمعري ، والمرزوقي ، وغيرهم . وكانت هذه المخطوطات أكبر معين له على التثبّت من صحة بعض النصوص ، وعلى تمييز بعض نصوص التبريزي من نصوص غيره من شراح شعر أبي تمام [٣] .

ولم يغيّر المحقق في المنهج العام لتقسيم الكتاب ، غير أنه ألْحق بآخره بعض القصائد والأبيات المنسوبة لأبي تمام ، يتمثل في بعضها انتحال ظاهر نبّه عليه القدماء،

---

(١) طبع هذا الشرح بتحقيق المستشرق فريتغ سنة ١٨٢٨م ، ثم طبع في بولاق بتصحيح الشيخ محمد قاسم ، والطبعة الثالثة بتحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد سنة ١٣٥٧هـ .

(٢) انظر : حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص ٧٧١ .
وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٧ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨ وما بعدها .

وبعضها الآخر أشعار مشكوك في صحة نسبتها إليه ، وقد نبّه عليها أيضًا بعض القدماء ، وأشعار لم ترد في شرح التبريزي وقد وردت عند غيره من الشراح [(١)] . ونتفق مع المحقق في أن بعض هذه القصائد منحول على أبي تمام ، كالقصيدة التي نسبت إليه وهي لأبي محمد القاسم بن يوسف في رثاء ولده أبي عليٍّ ، وقد أوردها الصولي منسوبة إلى أبي محمد في كتاب « الأوراق » ، ومطلعها :

كانَ الذي خِفْتُ أَنْ يَكُونَا   إنَّا إلى اللَّـه رَاجِـعُونَـا
أَمْسَى المُرَجَّى أَبو عَـلـيٍّ   مُوسَّدًا في الثَّرَى يَمِينَـا [(٢)]

وكذلك القصيدة التي ذكر الصولي ، أن أبا مالك زعم أن رجلاً شاميًا دسَّ في شعر أبي تمام هذه القصيدة فلم تُقْبل منه فافتُضح ، ومطلعها :

بَقِّي بَقِيَّةَ فَيْضِ دَمْعٍ فائِضِ   ما الدَّمْعُ مِنْك لِعَزْمَتِـي بالنَّاقِـضِ [(٣)]

غير أنه ربما استند إلى حكم ظني غير علمي في نسبة بعض القصائد ، فالقصيدة التي مطلعها :

أَبُخْلاً بِماءِ العَينِ فِي المَنْزِلِ الدَّثْرِ   وما مِثْلُ دَمْعِي في المَنازِل لا يَجْرِي ؟

يرى أنها لا تصح أن تكون لأبي تمام ، ذلك لخلوها من الصور الشعرية [(٤)].

وعلى الرغم من أن هذه القصيدة قد وردت في النسخة الأصل ، ونسخة أخرى مساعدة من شرح التبريزي ، فإنه لا يمكن القطع بنسبتها إلى أبي تمام ، كما لا يصح الاعتماد على الحدس في إثباتها ، وقد خالف المحقق الشارح في بعض القصائد التي صرّح بشكه في نسبتها إلى أبي تمام ، ولم يجعلها في الشعر المنحول [(٥)].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٦١٢ .

(٢) انظر : الصولي : الأوراق ،
ط : مطبعة الصاوي ، مصر ، د .ت ، ص ٢٠٣ .

(٣) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٦٦٩ ، وانظر :الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٦١٥ .

(٤) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٦٦٥ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٦٢٥ .

منهـــج الشـــرح :

اعتمد التبريزي في التقسيم العام لشرحه المنهج الذي اختطه الصولي في شرحه من قبل ، فرتب القصائد والمقطوعات بحسب الأغراض ، كما جاءت عند الصولي ، فبدأ بالمديح ثم الرثاء ، فالغزل ، فالهجاء ، ثم عقب بباب المعاتبات ، ثم باب الأوصاف ، فباب الفخر ، ثم ختم الديوان بخمس قصائد هي كل شعر أبي تمام في باب الزهد . ثم رتّب قصائد كل غرض من هذه الأغراض ترتيبًا داخليًا على أحرف المعجم ، فبدأ بقافية الألف ، ثم الباء ، ثم التاء . . . ، وهكذا حتى أتى على جميع شعره في كل غرض .

وقد مهّد الخطيب لشرحه بمقدمة قصيرة أشار فيها إلى بعض الدوافع التي حفزته على وضع مصنفه ، وذكر أنه سيتناول في شرحه ، الغريب ، والمعاني ، والإعراب ، وسيرجّح بعض أقوال العلماء على بعض ، ويميّز بين المعاني المحتملة في بعض الأبيات؛ لأن في شعر أبي تمام صنعة لا يكاد يخلو منها ، ومواضع مشكلة تصعب على كثير من الناس . وبعد أن أوضح في مقدمته الخطوط الكبرى التي سيسير عليها في شرحه وكَشَف عن بعض المصادر التي استقى منها مادة شرحه ، ذكر بعض الشُرّاح الذين سبقوه إلى شرح شعر أبي تمام ، ووعد بأن يلخّص جهودهم ويختصرها ، دونما إخلال أو تقصير .

وفي ختام هذه المقدمة القصيرة أورد السلسلة التي أخذ عن طريقها ديوان أبي تمام ، فقال : "وكنت قرأت من شعر أبي تمام سنة أربع وخمسين وأربعمائة بالبصرة على الشيخ أبي القاسم الفضل بن محمد بن علي بن الفضل القصباني النحوي البصري ، وروى لنا هذا الديوان عن أبي علي عبد الكريم بن الحسن بن الحسين بن حكيم السُّكري النحوي اللغوي ، عن أبي القاسم الحسن بن بشْر الآمدي ، عن أبي علي محمد بن العلاء السجستاني ، عن أبي سعيد السُّكري ، عن أبي تمام ، بعضه قراءة عليه ، وبعضه سماعًا منه ، وبعضه إجازة "[1] .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣ .

ونشير هنا إلى أن نصّ التبريزي في تحديد زمن قراءته لشعر أبي تمام على أستاذه القصباني بسنة أربع وخمسين وأربعمائه ، لا يتفق مع ما ذكرته بعض المصادر من أن وفاة القصباني كانت في سنة أربع وأربعين وأربعمائة [١] ، إذ إن بينهما فارقًا مدته عشر سنوات ، وهذا يجعل تأريخ وفاة القصباني موضع نظر .

وقد بدأ التبريزي شرحه لشعر أبي تمام وفق المنهج الذي رسمه لنفسه ، ويلاحظ عليه - كغيره من الشُرَّاح - طول نَفَسه في الأجزاء الأولى من الشرح ، وتدفق المعلومات ، والاستكثار من الشواهد ، والبسط في عرض المسائل ، ومناقشتها ، وطول الاستطراد ، ثم لا تلبث أن تتناقص شيئًا فشيئًا ، ثم تضعف ، وتخبو جذوتها في آخر شرح الديوان .

وقد حاول التبريزي في بعض شروحه أن يعود إلى طريقة الشرح الأولى التي كان عليها العلماء قبل الأخفش ، وهي ذكر القصيدة أو المقطوعة من الأبيات جملة واحدة ، ثم الرجوع إليها بعد ذلك بالشرح والتحليل ، غير أن بعض تلاميذه ومن كان يقرأ عليهم شروحه أَبَوا عليه ذلك ، ورغبوا في شرح كل بيت بعده ، ليسهل عليهم معرفة ما يشكل في كل بيت منه ، ويبين لهم غرض الشاعر بالكشف عنه [٢] .

فسلك التبريزي في شرحه لديوان أبي تمام الطريقة الأخيرة ، وجعل شرح كل بيت بعده ، وكان في القليل النادر يجمع بين شرح بيتين أو أكثر ،إلاّ إذا لاحظ بينهما ارتباطًا معنويًا ، بحيث لا يفهم أحدهما منفصلاً عن الآخر ، أو أن بينهما ارتباطًا على جهه التضمين . أمّا الأبيات التي سكت عنها ، ولم يعرض لها بالشرح ، فإنها تعادل ثلثيْ الديوان تقريبًا ، ذلك أن مجموع ما تناوله من الأبيات بالشرح يقارب ثمانية وثمانين ومائتين وألفي بيت ، من جملة ستة وتسعين وأربعمائة وسبعة آلاف بيت ، هي مجموع أبيات الديوان . وهذا يعني أن نسبة ما شرحه التبريزي من شعر أبي تمام تبلغ (٣٤٪) ، وهي نسبة إذا قارناها بما تناوله الشُرَّاح السابقون على التبريزي فاقتها وطغت عليها جميعًا . ولعل مرد ذلك إلى أن بعض الشُرَّاح السابقين كان يُعنى بتفسير

---

(١) انظر : ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ١٦ ، ص ٢١٨ .

(٢) انظر : التبريزي : شرح الحماسة ، جـ ١ ، ص ٦ .

الأبيات المشكلة من شعر أبي تمام دون غيرها ، إضافة إلى أنهم تركوا بعض الأبيات لأن ألفاظها في زمنهم كانت - فيما يبدو - ميسورة الفهم ، بينما تعد في عصر التبريزي من الغامض والغريب الذي يحتاج إلى شرح وتفسير .

لقد كان التبريزي يسير في شرحه على هدي من مصنفات الشُرَّاح السابقين فنظر - مثلهم - إلى البيت الشعري على أنه وحدة مستقلة ، فكل بيت يحمل في تراكيبه وألفاظه - غالبًا - ما ينهض بمعناه دون حاجة إلى الأبيات التي قبله أو بعده . غير أن التبريزي قبل أن يبدأ في شرح الأبيات بهذه الطريقة التزم بذكر أمرين يتعلقان بعموم القصيدة

بذكر الضرب والبحر ، كأن يقول : " في أول الوافر " [١] أو يقول " في الضرب الثاني من السريع " [٢] . وربما لا يذكر إلا وزن القصيدة فيقول قبل بداية الشرح " في الطويل " [٣] ، ثم يسرد بقية القصيدة مع شرحها .

ولم يلتزم التبريزي في شرحه للبيت الشعري طريقة مطردة أو منهجًا منضبطًا يسير عليه في جميع شرحه ، وذلك بسبب اعتماده الواضح على الشروح السابقة عليه ، وهي مختلفة المواد ، متنوعة المعارف ، فأصبح في أغلب شرحه أسيرًا لأقوال الشُرَّاح السابقين ، لا يكاد يفلت منها بشكل تام في شرحه للبيت الشعري ، إلا في بعض مواضع قليلة . ولكي نبيّن منهجه في الشرح ، ونكشف عن طريقته في التعامل مع الشروح الأخرى ، يلزمنا أن نقتبس من شرحه نماذج متعددة ، لنرى أمثلة متنوعة من الاقتباس والمعالجة والتحليل .

بدأ التبريزي شرحه للبيت الأول من القصيدة الأولى في ديوان أبي تمام [٤] .

يَا مُوضِعَ الشَّدَنِيَّةِ الوَجْناءِ ومُصَارِعَ الإدلاجِ والإسراءِ

بعد أن بيّن أن غرض أبي تمام من القصيدة هو مدح خالد بن يزيد الشيباني ، وذكر أنّها جاءت في الضرب الثاني من البحر الكامل ، وقافيتها متواتر ، بدأ في تفسير معاني ألفاظ البيت واحدة واحدة ، ونراه يهرع من اللحظة الأولى إلى أبي العلاء المعري ليستمد منه التفسير اللغوي لكلمة « مُوضِع » المشتقة من الوضع ، الذي هو ضربٌ من السير ، يُقال : وضع البعير ، يضع وضعًا ، إذا سار ذلك الضرب من ضروب السير ، وأوضعه صاحبه ، إذا حمله على الوضع ، ثم استغنوا عن المفعول فقالوا : أخبَّ فلان وأوضع ، إذا حمل مطيته على الخبب والوضع ، واستشهد على هذا التفسير في معنى اللفظة برجز يروى لدريد بن الصمة قاله يوم حنين :

ياليتني فيها جذع
أخُبُّ فيها وأضع

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٦٢ .

(٣) نفسه ، جـ ٤ ، ص ٩٢ .

(٤) نفسه ، جـ ١ ، ص ٧ .

ثم شرح هذا الشاهد ، وذكر الوجوه التي يحتملها في معناه ، ثم استطرد في شرح مشتقات أخرى من اللفظة نفسها ، وقدّم عليها بعض الشواهد الشعرية المؤيدة لما ذهب إليه .

وانتقل بعد ذلك إلى اللفظة الثانية في البيت فقال : إنّ «الشدنية » : ناقة منسوبة إلى شَدَنْ ، وبدا التبريزي مضطربًا في تحديد أصل النسبة ، هل هي منسوبة إلى رجل أو موضع ، أو فحل من الإبل ، فاستعان بقول ابن فارس في « المجمل » على أنها منسوبة إلى موضع باليمن ، ثم ذكر رأيًا آخر يشير إلى أنها منسوبة إلى فحل معروف ، ولم ينسب التبريزي هذا الرأي إلى أحد ، غير أنه بالرجوع إلى الشروح السابقة تبيّن أنه للصولي [١] .

ثم انتقل إلى تفسير لفظة « الوجناء » وأن فيها قولين :

أحدهما : أنها الغليظة التي تشبه بالوجين من الأرض ، وهو غليظ منقاد ،

والآخر : أنها يراد بها عِظَم الوجنة وهي عظم الخد . ثم عاد مرة أخرى إلى المعري ليفيد منه هذه المرة في جانب المجاز الذي تتضمنه عبارة « مصارع الإدلاج والإسراء » فنبّه على أنها من المستعار ، لأن الإدلاج ، والإسراء ، لا يصارعان في الحقيقة ، وإنما الصراع لذوات الشخوص ، وكأنه أراد بالمصارع المقاسي ، والمحاول بجهد . ثم أورد معنى بيت أبي تمام وقد أخذه من شرح الصولي ، ولم ينسبه إليه ، غير أن محقق الشرح - عبده عزام - فطن له وأشار إليه ، والمعنى : أنه لا يفتر من الإدلاج ، والإسراء ، فهو مواصل لهما ، وأخيرًا ختم شرحه للبيت بتفسير للفظتي الإدلاج ، والإسراء ، وذكر بعض اللغات في الإسراء ، وقد اهتدى في ذلك بكلام الصولي ، وإن لم يشر إليه .

هكذا يتحول الشرح لدى التبريزي إلى شرح تعليمي خالص ، يعنى بدراسة اللغة وتحليلها ، وذكر الآراء المختلفة فيها ، وبيان التوضحيات الإعرابية ، والصور البيانية ، وحشد عدد من الأخبار ، والشواهد المختلفة فيه ، فهو يحاول عن طريق الانتخاب من

---

(١) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٦٧ .

شروح السابقين استيفاء معظم الجوانب المطلوبة في الشرح ، وقد أطلق فخر الدين قباوة على منهج التبريزي هذا « المنهج التكاملي » فذكر أن التبريزي كان " مدرسًا للأدب في المدرسة النظامية ، وقيّم مكتبتها ، فيسّر له ذلك اتصالاً كاملاً بمؤلفات من قبله ، عن طريق التدريس ، أو المطالعة ، فكان أن رجع إلى كثير من المصنفات غير مرة، قارئًا ، أو مقرئًا ، فتبدّى له من ممارسته هذه أن تلك الشروح يتميز كل منها بخصائص : فهذا يعتسف السبل على غير هدى ، وذاك يعتمد الاتجاه اللغوي ، والثالث يعتني بالتفسير التاريخي ، والرابع يلتزم التفسير المعنوي ، والخامس يقتصر على الجانب النحوي ، والسادس يجمع بين اللغة والنحو . . . وقد عانى التبريزي ، بلا شك ، في تدريسه صعوبة الجمع بين هذه السبل ، لتستبين لتلاميذه معاني الشعر ، وظروفه التاريخية ، وجوانبه اللغوية والنحوية ، فرأى لزامًا عليه أن يجمع بين أجود خصائص هذه الاتجاهات ، في منهج جديد تتكامل فيه ، وتتعاون في انسجام لتؤدي وظيفة الشرح وغايته المثلى ، . . . فإذا هي جماع ما سلف من محسنات الاتجاهات ، مشذبة منسقة، يؤلف ما يمكن أن نسميه : المنهج التكاملي " [١] .

ونتفق مع قباوة في أن التبريزي حاول أن يجمع في عموم شرحه من كل اتجاه جانبًا من جوانب الشرح ، ومن كل تخصص نبذة ، ومن كل علم طرفًا ، غير أنا لا نوافقه على أن هذا التجميع الانتخابي تتكامل فيه - دائمًا - العناصر ، وتتعاون في انسجام ، كما أنه ليس كل ما جمعه التبريزي هو أحسن ما في الشروح ، ربما ينطبق هذا عليه في شرح المفضليات ، أما في شرحه لديوان أبي تمام ، فإن الأمر يختلف ، فكثيرًا ما نجده يعتمد شارحًا واحدًا دون غيره من بقية الشُرَّاح في عدد من الأبيات ، وقد تكون متوالية [٢] . وقد انساق وراء المعري في شرح قصائد كاملة ، فلا يذكر مع شرحه كلامًا لغيره من الشُرَّاح [٣] . كما أن التبريزي قد يقتصر في شرحه لبعض الأبيات على تفسير كلمة واحدة فقط ، ويهمل معنى البيت وبقية ألفاظه . ففي قصيدة

---

(١) فخر الدين قباوة : منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات ، ص ٢٠٠.

(٢) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٣٥٩ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ .

أبي تمام التي مدح بها المعتصم، وذكر فتح عمورية ، وقف التبريزي عند كلمة «زخرف»:

أَيْنَ الرِّوايَةُ أَمْ أين النُّجـــومُ وَمَا صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فِيْها ومِنْ كَذِبِ ؟

وقال : " أصل « الزخرف » ما يعجبك من متاع الدنيا ، وربما خُصّ به الذهب ، ويقال للقول المُحسَّن المكذوب زخرف لأنه حُسِّن لِيَغُرَّ " [١] . والتساؤل الإنكاري الذي أورده الشاعر هنا عما زعمه الأعداء من أباطيل في كتبهم ، وما شكك به المنجّمون في إمكانية فتح عمورية في ذلك الوقت ، لم يتحدث عنه ، ولم يبن عن عود الضمائر في البيت ، أو يكشف عن معناه .

اكتفى التبريزي في مواضع من شرحه بأن قرن مع البيت ما يقاربه أو يشابهه في المعنى أو التركيب ، ثم شرح البيت/النظير ، وأشار إلى أن معناه مشابه للمعنى الذي قصده الطائي في بيته ، وقد استعان أحيانًا بشعر أبي تمام نفسه ، ففسر الشعر بالشعر ، لذا نجد في شرحه عبارات مثل : « هذا البيت فسره البيت الذي قبله » ، أو «يفسره البيت الذي بعده » ، ومن ذلك بيت :

ما زِلْتُ مُنْتَظِرًا أعجُوبَةً عَنَنًا حَتَّى رأَيتُ سُؤَالاً يُجْتَنَى شَرَفًا

قال : " هذا البيت تفسير لما قبله " [٢] . ولم يحلل البيت نفسه ، أو يفسر ألفاظه ، مع أن الشراح السابقين شرحوا هذا البيت ، وفسروا بعض ألفاظه ، وذكروا بعض رواياته المختلفة [٣] .

وربما اكتفى في شرحه لبعض الأبيات بذكر الرواية فقط ، أو بيان مسألة إعرابية ، أو ذكر مناسبة ، أو قصة لها علاقة بما ذكر في البيت من أسماء ، أو أعلام . ومما اقتصر فيه على الإعراب دون معالجة للجوانب الأخرى هذا البيت :

وقَالُوا أُسًى عَنْهَا وقَدْ خَصَمَ الأُسَى جَوَانِحُ مُشْتَاقٍ إِذَا خاصمَتْ لُدُّ

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٤٢ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٦ .

(٣) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٥٤ : وانظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ٧٠ .

فمع أنه أخذ التعليقات النحوية من الآمدي ، لكنّه لم يستفد من تحليله للبيت في كشف المعنى وما ذكره عن الصور البيانية فيه ، ومن رائع ما ذكره الآمدي في هذا قوله: " وجعل الجوانح لُدًّا ، لأنه قال خصمت ، فصلح أن يقول "لُدٌّ " على الاستعارة ، لأن هذه اللفظة أشبه بالخصام" (١) .

وخلاصة القول : إن التبريزي في أغلب شرحه الذي اكتملت فيه عناصر الشرح كان يبدأ بتفسير الألفاظ الغريبة فيبيّن شرحها المعجمي ، ويذكر معناها في السياق الشعري ، ثم يشرح العبارات المشكلة ، ويقف على معانيها ، معللاً لذلك في بعض الأحيان ، ومستشهداً بما يلائم من فنون القول الأدبي ، ويجمع مع ذلك شرح المعنى العام للبيت ، ويلخّص مراد الشاعر ، مستفيداً من الشروح التي بين يديه ، ومستعيناً بآراء بعض العلماء وتفسيراتهم في إيضاح المعنى ، وإزالة الغموض عن البيت ، وذكر الروايات ، والمعاني المحتملة فيه . ولا شك أن اهتمامات التبريزي ، وسعة علمه ، وتنوع ثقافته ، لها الأثر الأكبر في انتقاء المعلومات ، وتحليل الشعر ، واختلاف مجالات الشرح ، وتفاوتها من بيت إلى بيت .

❀ ❀ ❀

موقف التبريزي من الشرّاح السابقين :

مرّ أن التبريزي اتجه نحو جهود الشراح السابقين لشعر أبي تمام ، فأخذ منهم ما كان يرى أنه أقرب إلى الصواب ، وأصدق في الكشف عن مراد الشاعر ، وأخذ أيضًا ما ظن أنه يساعد على تفسير الشعر وإجلاء غامضه ، وحاول أن ينسق بين هذه المختارات ، ثم أضاف إليها بعض ما رآه مناسبًا من المعلومات والمعارف والشواهد. كل ذلك من أجل تقديم شرح جامع يغني عن بقية الشروح السالفة . لكن الدراسة المتفحصة تثبت أن التبريزي لم يستطع - في مواضع كثيرة من شرحه - أن يوفق بين

---

(١) الآمدي : الموازنة ، جـ ٢ ، ص ٢١ :
وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٨١ .

ما جمعه من مختارات ، ولم يحتكم في أَخْذه من الشروح إلى مقياس معيّن ، ولم يلزم في تناوله وعرضه طريقة موحّدة أو منهجًا مطّرداً ، فنجده أحيانًا يخلط بين أقوال الشراح ، ولم يلتزم الدقة في نسبة كل قول إلى صاحبه ، بل إنه كثيراً ما يربط كلامه بأقوال الشراح دون أي فاصل أو إشارة ، فيبدو وكأن الشرح من إبداعه و تأليفه، ولا يستطيع القارىء العادي أن يفرّق بين ذلك أو يميّزه إلا بالعودة إلى أصول المصادر التي نقل عنها . ومن الأمثلة التي توضح ذلك شرحه لبيت :

أَقْرِى(١) السّلام مُعَرّفًا ومُحصبًّا   مِنْ خَالدِ المعْروفِ والهَيْجَاءِ

إذ استهل التبريزي شرحه بالأخذ عن أبي العلاء المعري ، وقد رمز إليه بالحرف (ع) فنقل قوله : " هذا البيت يروى على وجوه ، أجودها وأليقها باللفظ أن يقال : «أقرِي السلام مُعرّفًا ومُحَصّبًا » ، ويكون من قرأت على فلان السلام وأقرأته غيري ، وتُخفّف الهمزة ، فإن خففت للضرورة أثبتَ الياء في الخط ، كأنّ القائل أراد أن يقول : أقرىء السلام ، فخفّف وبقيت الياء ، وإن كانت الهمزة خُفّفت قبل أن يرام نظم الكلمة فلا ضرورة فيها ، وينبغي أن يكتب « أقر » بغير ياء ؛ لأنها في لغة من يقول قرى في وزن سقى ، و « معرّف » في هذين الوجهين منصوب بوقوع الفعل عليه" .

وقد أسقط التبريزي هنا كلامًا تمثّل به أبو العلاء المعري وهو عبارة « كما تقول : أقرئ السلام مكة ويثرب » ثم عاد إلى شرح المعري ليفسر بعض الأسماء الواردة في البيت ، ولم يشر إليه . "و« المُعرَّف » الموضع الذي يقف فيه الناس يوم عرفة ، و"المُحصَّب" الموضع الذي ترمى فيه الجمار ، ولو أنه بالألف واللام كان أوجب ؛ لأنه كذلك يستعمل فيقال المعرّف والمحصب ، وإنما هما بمكة دون غيرها من البلاد " . ثم أورد التبريزي بيتين من الشعر استشهد بهما على استعمال اللفظين « المعرّف والمحصَّب » بالألف واللام ، والبيت الأول لابن مقبل في رثاء عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ولم يسنده التبريزي إليه وهو :

عَفا بَطِحَان مِنْ قُرِيشٍ فيَثْرِبُ   فَبَطْنُ الجِمارِ مِنْ منًى فالمُحصَّبُ

---

(١) رواية الصولي "أقرِ" ، وكذلك ورد عند ابن المستوفي – انظر الصولي : شرح الديوان ، جـ١ ، ص١٦٨ ، وابن المستوفي : النظام جـ١، ص ٢٠٨ .

والشاهد الآخر نَسَبَه إلى الهذلي ، ولم يسمه ، وقائله هو المعطل بن أحمد الهذلي ، والبيت :

أَظُنُّكُمْ مِنْ أُسْرَةٍ قَمّعِيَّةٍ إِذَا نَسَكُوا لاَ يَشْهَدُونَ الْمُعرَّفَا

ثم أضاف إلى شرح أبي العلاء كلامًا يتعلق بمسألة دخول الألف واللام على الأسماء : " فليس حذف الألف واللام من « المعرّف » كحذفها من العباس والضحاك ؛ لأن العرب تستعمل بعض الأسماء مرة بالألف واللام ، ومرة بغير ألف ولام ، ولم يجيء في أشعارهم مثل هذا منكّرًا إلا أن يكون شاذًا . وليس امتناعه من المجيء أنه غير جائز ، ولكنه اتفاق يقع في اللفظ " . ثم عاد إلى شرح المعري لينقل منه وجهًا آخر من الوجوه التي يُروى بها البيت ، فيقول : " ومن أنشد :« أقرِ السَّلامَ مُعرِّفًا ومُحصِّبًا » بكسر الرَّاء والصاد ، فالمعنى أقر أيها الرجل السلام في حال تعريفك وتحصيبك ، والمقروء عليه السلام محذوف من اللفظ لعلم السامع " . ثم عقب على كلام أستاذه وذكر بعض الاحتمالات الإعرابية الأخرى ، وأورد وجهين محتملين يروى بهما البيت لم يذكرهما المعري ، ومما قال : " ولو رويت «اقرا السلام معرَّفًا ومحصَّبًا » لجاز ذلك على بعد ، ويكون النصب على الظرف " . وقد أدخل في كلامه رأيًا للمعري في إثبات الألف في «اقرا» وإثبات الياء في « أقري » ، فإن كان بعد النظم وجب أن تثبت ، وإن كان التخفيف والكلمة منثورة حذفت الألف كما تحذف من قولك « اخش » . ثم ختم بشرح لغوي نقله عن الصولي بيّن فيه اشتقاق « الهيجاء » وأنها من الأسماء التي تُمد وتقصر "(١) .

هكذا كان التبريزي يمزج بين أقواله وأقوال الشراح ، ويخرج من قول شارح إلى آخر دون أن يشير إلى ذلك أو ينبه عليه ، غير أن ابن المستوفي الذي نقل إلى شرحه كل ما قاله الشراح عن شعر أبي تمام بدقة وأمانة بالغة قد ساعد كثيرًا في تمييز هذه الأقوال ، ونسبة كل قول إلى صاحبه ، وبيان ما للتبريزي من شرح في مصنفه وما ليس له .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٨ وما بعدها .
وانظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٦٨ .

ويتجلى بوضوح أن التبريزي كان يأخذ من جميع الشروح ، وأنه كان ينوّع في الأخذ ، فنجده يأخذ تفسير الغريب من شارح ، وشرح المعنى يأخذه من شارح آخر ، ويأخذ من ثالث اللغة والنحو ، والأخبار التاريخية من رابع . . . وهكذا .

وقد اعتمد أحياناً في شرحه لبعض الأبيات على شارح واحد ، وكان أكثر اعتماده على شيخه أبي العلاء المعري ، حتى إن ما نقله عنه يعطي صورة شبه كاملة عن كتابه «ذكرى حبيب» .

كذلك أكثر التبريزي النّقل في شرحه عن الصولي فأخذ عنه كثيراً من التفسيرات اللغوية والملاحظات البلاغية ، والأخبار التاريخية ، ومما نقله عنه منفرداً شرحه لبيت من قصيدة رثى فيها أبو تمام هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي :

لَيَوْمُكَ عِنْدَ الأَزْدِ يَوْمٌ تَخزَّعَتْ خُزَاعَةُ مِنْها في بُطُونِ التَّهَائِمِ

قال التبريزي : " أي يوم وفاتك عند الأزد في الشدة بمنزلة اليوم الذي تخزّعت فيه خزاعة ، أي انقطعت عن الأزد فسميّت في ذلك اليوم خزاعة ، يقال تخزع الشيء إذا تكسّر وتفرّق " [١] . وهذا الشرح بكامل لفظه للصولي ، بيّن فيه مراد الشاعر ، وذكر الخبر التاريخي في تسمية قبيلة خزاعة بهذا الاسم . ويلاحظ أنه يستأنس بشرح الصولي غالبًا في الأبيات الواضحة المعنى ، التي قد لا تحتاج إلا إلى شرح صورة بيانية أو ذكر خبر سالف ، أو قصة أشار إليها البيت . أمّا بعض الأبيات المشكلة ذات المعنى المستغلق ، التي يحتاج فهمها إلى إعمال فكر وكدّ ذهن ، فإنه غالبًا ما يلجأ إلى أبي العلاء المعري ، أو إلى المرزوقي ، أو إليهما معًا . ومن أمثلة ذلك ما أخذه عنهما في شرح البيت الذي وصف فيه أبو تمام ما فعله المعتصم بالروم يوم فتح عمورية ، وهذا البيت مما أشكل معناه على بعض الشراح ، فخطّأ بعضهم بعضًا في تفسيره :

حَتَّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشِّرْكِ مُنْعَفِرًا ولَم تُعَرِّجْ علَى الأَوْتَادِ والطُّنُبِ

ويروى : « منقعرًا » .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ١٣٣ .
انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

اعتمد التبريزي في شرحه للبيت على قول أبي العلاء : " عمدت لأعظم شأن للروم ولم تعرّج على ما صغر من الأمور ، والمعنى أنه فتح عمورية ولم يقتنع بالقُرى وسبي من فيها " . وأنكر على الصولي تفسيره لهذا البيت ، ودعّم ذلك برأي المرزوقي فيه عندما وصفه بعدم التوفيق فيما ذهب إليه ، وذكر أن مراد أبي تمام عند المرزوقي " أنك قصدت عمود بيت الشرك ، وما كان قوامه به ، فزعزعته ولم تعطف على جوانبه " [١] .

وربما أخطأ بعض الشراح في تفسير بعض الأبيات ، فتبعه التبريزي في غلطه دونما تدقيق فيما ذكره الشارح ، ومدى معرفة مخالفته لمراد الشاعر ، وما تُفصح عنه ألفاظ البيت وتراكيبه ، فقد جاء شرح أبي العلاء لبيت أبي تمام من القصيدة التي مدح بها أبا دلف العجلي :

نَضَوْتَ لَهُ رَأْيَيْنِ[٢] سَيْفًا ومُنْصَلاً وكُلٌّ كَنَجْمٍ في الدُّجُنَّةِ ثَاقِبِ

قوله : « وكُلٌّ كَنَجْمٍ » أحسن ما يحمل على أنه أومأ إلى ثلاثة ، يعني : الممدوح ، ورأيه ، وسيفه ، وذلك أحسن من أن يكون أراد به السيف والرأي دون غيرهما ، لأنه لو ذهب إلى ذلك لكان الموضع بـ « كلا » أحقّ منه بـ « كلّ » على أنه يجوز أن يوضع «كل» في موضع « كلا » [٣].

ولفظ أبي تمام الذي جاء في الشطر الأول صريح في الإيماء إلى اثنين لا إلى ثلاثة، فقال رأيين ثم فصّل ، وقال سيفًا ومنصلاً ، وليس في الفعل « نضوت » ما يدل على التثليث . وقد نبّه ابن المستوفي إلى أن أبا تمام لم يرد هنا إلا الرأي والمنصل ، ويشهد على ذلك دلالة ألفاظ أبي تمام وعباراته التي تدل على أنه قصد اثنين لا ثلاثة ، وجوّز أن يكون أراد أبو تمام « وكل منهما » فحذف « منهما » للدلالة عليه ، وكثيراً ما تُحذف الصفة [٤] . وقد انساق التبريزي وراء المعري في تفسيره وتأوله ، ولم يقف على دلالة الألفاظ عند مقصود الشاعر .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

(٢) رواية ابن المستوفي "سيفين" بدل "رأيين" انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ٣١ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٤) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ٣١ .

خلاصة القول: إن التبريزي اعتمد في معظم شرحه على الأخذ من الشراح الذين سبقوه ، وحاول أن يبني على أقوالهم ونتيجة لذلك فقد أصاب في مواطن من شرحه ، ولم يفلح في مواطن أخرى . ويقف المعري في المرتبة الأولى ممن أخذ عنهم التبريزي ، ويليه المرزوقي ، ثم الصولي ، ثم بقية الشراح ، على تفاوت في الأخذ ونوعيته ، وكان يدمج هذه الشروح والأقوال تارة ، ويأتي بشروح لهم منفردة تارة أخرى ، ويصرح بالنقل عنهم حينًا ، ويغفل التصريح ، أو يسقط الرموز التي جعلها للإشارة إليهم أحايين أخرى ، فلم يضع أمام كل قول الرمز الذي يشير إلى صاحبه ، واستخدم صيغًا وعبارات عامة في بعض المواضع مثل ، « قال » و « غيره » و « قيل » و « قال بعضهم » وغيرها ، هذا مع أنه قد عرّض بالمرزوقي وأنحى باللائمة عليه عندما لم يصرح باسم «ابن جنّي » حين أخذ منه في شرح الحماسة . فعقب التبريزي قائلاً : " ولم ينصفه حيث لم يسمه في كتابه " [١] . وليس همنا هنا أن ندين التبريزي ولا أن نفتش عن الأعذار له ، وإنما نحاول أن نعرض شرحه ، ونبرز خصائصه ، ونبيّن مكانته بين شروح شعر أبي تمام برؤية وصفية محايدة .

لقد كان يدلي بدلوه في مجالات لغوية متعددة من شرحه ، ويطوف في ميادين أدبية متنوعة ، فينتقل من تفسير الغريب إلى البحث عن المعنى ، ويعرض بعض المسائل النحوية واللغوية ، ويسرد الأخبار ، ويعدد مختلف الروايات ، ويحاول أن يورد كل ما من شأنه أن يعين على فهم الشعر ، ويكشف غموضه ، ولم يقف أمام النقول الجمة التي نقلها عن غيره مكتوف الأيدي ، يعرضها دون تدخل أو مشاركة ، بل نجد له كثيراً من الإضافات والشروح والتفسيرات والآراء ما سدّ به بعض ثغرات الشُرَّاح السابقين . وقد أظهر معرفة ممتازة وعميقة بلغة العرب وأشعارهم ، وأخبارهم ، وأعرافهم الاجتماعية ، واستعان بكثير من ذلك في تفسير شعر أبي تمام ، واستنباط المعاني المتعددة ، والاحتمالات المختلفة التي تنطوي عليها بعض الأبيات . من ذلك ما جاء في شرحه لبيت أبي تمام من قصيدة يمدح فيها أحمد بن أبي دؤاد حين عُزل عن الجزيرة :

---

(١) التبريزي : شرح الحماسة ، جـ ١ ، ص ٣٨١ .

وبِهِ رَأَيْنَا كَعْبَةَ اللَّهِ التي هِيَ كَوْكَبُ الدُّنْيا تُحِلُّ وتُحْرِمُ

"وتُحِلُّ وتُحْرِم . . يحتمل وجهين : أحدهما أن تريد أنها تجعل الناس محرمين ، فكأنها تُحرمهم ، أي تجعلهم محرمين ، ويُحِلُّون من الإحرام ، فكأنها تُحلّهم ، والآخر أن يكون قوله "تُحِلُّ وتُحْرِمُ" أنها تُكسى الثياب ، فتكون كالمُحِلِّ الذي يلبس المخيط ، وتحرم ، أي ربما نزع عنها اللباس فصارت كأنها مُحْرِمة ، والوجه الأول أجود ، ولم يُرِدْ سواه " [١] . ونلاحظ أن العبارة أشكلت هنا بسبب التركيب ، إذ لا يعلم منها من الذي يقع عليه فعل التحلل والإحرام ، فاتجه التبريزي لإيضاح العبارة المُشكلة بعرض الوجهين ، ليكونا أمام القارىء ، غير أن الأجود عنده هو الوجه الأول ، بل هو مراد الشاعر من العبارة ، وهذا المعنى توصل إليه التبريزي بمجهوده الخاص ، فالصولي - أول شارح لشعر أبي تمام - لم يتعرض لهذا البيت في شرحه ، ولم يصل إلينا عن بقية الشراح الآخرين أي تفسير له .

ومن مظاهر أهمية شرح التبريزي أنه قد يختلف مع الشارح الذي ينقل عنه فيما ذهب إليه من شرح أو تفسير في بعض الأبيات ، فيذكر الخطأ ، ويبين الصواب ، ويوضح رأيه معللاً ومستشهداً بأشعار العرب وما جرى في استعمالاتهم اللغوية الصحيحة ، ففي القصيدة التي مدح بها أبو تمام الواثق بالله ، وهنّأه فيها بالخلافة ، ورثى المعتصم في بعض أبياتها ، نقل عن الصولي شرحه لبيت :

مِفْتَاحُ كُلِّ مَدِينَةٍ قَدْ أُبْهِمَتْ عَلَقًا ومُخْلِي كُلِّ دارِ مُقَامِ

« أي الموت لا يغلق عليه باب ، وهو مفتاح كل باب مبهم » قال : هكذا ذكر الصُّوليّ، والصواب أن يكون وصفًا للمعتصم ، والدليل عليه ما بعده ، يريد قوله :

أَخَذَ الخِلافَةَ عَنْ أَسِنَّتِه التي مَنَعَتْ حِمَى الآبَاءِ والأَعْمَامِ [٢]

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٠٤ .

والآمدي جعل البيت :

هُنَّ عَوَادي يُوسُفٍ وصَوَاحِبُهْ فَعَزْمًا فَقَدْمًا أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهْ

من رديء شعر أبي تمام لأسباب منها : أن ألفاظ البيت قَصّرت عن أداء المعنى المراد ، وأنه أضمر قبل الذكر ، وألحق بيوسف التنوين ، وكان حقه عدم الصرف ، غير أن التبريزي تصدى له فيما عاب به بيت أبي تمام مستخدمًا ثقافته الواسعة فقال : " ولفظ أبي تمام يدل أيضًا على ما قدّره الآمدي من معنى البيت بالألفاظ التي ذكرها إذا رجعت إلى الحقيقة . وليس الإضمار قبل الذكر بعيب إذا كان المعنى مفهومًا ؛ لأن هذا المعنى مأخوذ عن الحديث المرويّ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال في مرضه الذي مات فيه ، وهو يعني النساء : " إنكن صويحبات يوسف " . وإلحاق التنوين بـ « يوسف » في الشعر ليس بعيب أيضًا كما ذكره ؛ لأن أصل الأسماء كلها الصرف ، وردّ الاسم إلى أصله في الشعر ليس عيبًا . . . " [١] .

كما فطن التبريزي - أيضًا - إلى أهمية الرواية في شرح الشعر ومدى ما يحدثه التصحيف والتحريف من لبس في الشعر ، وتضييع لأصوله ، وتغيير في معناه ، فذكر الروايات الصحيحة والمحتملة ، ونبّه على ما وقع فيه بعض الشُرّاح من تصحيف ، أو تحريف ، وحاول أن يصوّب ما اختل من شعر أبي تمام وأن يرده إلى أصوله ، ففي شرحه لبيت :

وأَيَّ مَرَامٍ عنهُ يَعْدُو نِيَاطُهُ عَدَا أَوْ تُفَلُّ النَّاعِجَاتِ أَخَاشِبُه ؟

قال : " يقع في بعض النسخ « نياطه غدًا » وفي بعضها « مدًى » والصواب ما أُثبِت وفُسِّر فلا يُعدل عنه إلى غيره " [٢] . ونشير إلى أن رواية « غدا » التي ذكرها هي رواية المرزوقي التي أثبتها في شرحه [٣] ، وقد اعتمدها ابن المستوفي دون سائر الروايات [٤] . أما الرواية الأخرى « مدًى » فهي رواية الصولي عن أبي مالك " [٥] غير

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .

(٣) انظر : المرزوقي : شرح المشكل من أبيات أبي تمام ، ص ٢٠٦ .

(٤) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ٥٧ .

(٥) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٩٤ .

أن التبريزي ربط الرواية بالمعنى فجعل « عدا » فعلاً ماضيًا من قولهم عداني عن الشيء إذا صرفني عنه . وعلى هذا فالمعنى عنده : أيَّ مَرام مُستصعَب جَرت عادتُه بأن يعدو نياطُه السائرين عَدانا عن قَصْد هذا الممدوح ؟ وهو وإن كان قد أفاد تفسير المعنى من أبي العلاء المعري ، على الرواية التي أثبتها ، فإنه لم يهمل ما جاء عند المرزوقي من المعنى في الشطر الثاني للبيت .

إن شخصية التبريزي الأدبية تبرز بشكل أوضح في التنظيم العام للشرح ، وفي طريقة بسط المسائل وعرضها ، والوصول بها إلى النتائج المطلوبة ، وفي القدرة على مناقشة الشُرَّاح ، وترجيح بعض أقوالهم على بعضها ، وتقديم بعض الملاحظات ، والتعليقات والتعقيبات عليها ، والاستشهاد بما هو خارج النص من علوم ومعارف وأشعار وأخبار ، والإسهام بها في شرح شعر أبي تمام ، مما يُعدّ له ميزة إضافية على الشروح السابقة تجعله – رغم اعتماده على غيره – عملاً أدبيًا متكاملاً .

زوايا الرؤية في شرح التبريزي

أولاً : الموقف من رواية الشعر

ثانياً : المنظور اللغوي والنحوي

ثالثاً : المنظور البلاغي والنقدي

رابعاً : المنظور العروضي

خامساً : المنظور الدلالي .

أولاً : الموقف من رواية الشعر

كشف التبريزي في مقدمة شرحه عن تسلسل السند للرّجال الذين أخذ عن طريقهم رواية ديوان أبي تمام ، وحرص على أن يبيّن في أثناء ذلك زمان الأخذ ومكانه وطريقته "وكنت قرأت من شعر أبي تمام سنة أربعٍ وخمسين وأربعمائة بالبصرة على الشيخ أبي القاسم الفضل بن محمد بن علي بن الفضل القصباني ، النحوي البصري ، وروى لنا هذا الديوان عن أبي علي عبد الكريم بن الحسن بن الحسين بن حكيم السكري ، النحوي اللغوي ، عن أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، عن أبي علي محمد بن العلاء السجستاني ، عن أبي سعيد السكري ، عن أبي تمام ، بعضه قراءة عليه ، وبعضه سماعًا منه وبعضه إجازة " [١] فالزمان كان سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، والمكان في البصرة ، وقد أخذ الشعر ، قراءة ، أو سماعًا ، أو إجازة ، أما تسلسل السند فيمكن رسمه كما يلي :

أبو تمام (ت ٢٣٢هـ)

↓

أبو سعيد السكري (ت ٢٧٥هـ)

↓

أبو علي محمد بن العلاء السجستاني (ت ٣٢٥هـ)

↓

أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧١هـ)

↓

أبو علي عبد الكريم بن الحسن السكري (ت ٤٠٤هـ)

↓

أبو القاسم الفضل بن محمد بن علي القصباني (ت ٤٤٤هـ)

↓

أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي (ت ٥٠٢هـ)

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣ .

يلاحظ من هذا السند التواصل الزمني لسلسلة رواية التبريزي لشعر أبي تمام من عصر أبي تمام نفسه إلى القرن الخامس الهجري الذي ظهر فيه الشرح ، وقد أثبت التبريزي ذلك ليظهر للقارىء مدى حرصه واهتمامه بالرواية الكلية للديوان ، وليعزز به بعض الشروح والتأويلات التي سيوردها في كتابه .

ومن مظاهر اهتمام التبريزي بتدقيق الرواية في شعر أبي تمام تهذيبه رواية بعض القصائد والمقطوعات والأبيات بالحذف ، أو الزيادة ، أو التقديم والتأخير ، فنراه يثبت ما أسقطه بعض الشُرَّاح السابقين ، أو يسقط بعض ما أثبتوه . ومن أمثلة ذلك القصيدة التي قالها أبو تمام في محمد بن يوسف ومطلعها :

حَلَّ الأَمِيرُ مَحَلَّ رِفْدِ الرَّافِدِ ومُبِيحُ طارِفِ مَالِهِ والتَّالِدِ [١]

وهذه القصيدة لم ترد فيما جمعه الصولي من شرحه في باب المديح على قافية الدال ، وكذلك أثبت قصيدة من أربعة عشر بيتًا لم ترد عند الصولي ، قيلت في إسحاق ابن إبراهيم ، ومطلعها :

كَفَانِي مِن حَوادِثِ كُلِّ دَهْرٍ بإسحاق بن إبراهيم جارا [٢]

كما أورد مقطوعتين رائتين الأولى من وزن « البسيط » قالها أبو تمام في مدح المأمون [٣] ، والأخرى من وزن « الطويل » مدح بها أبو سعيد الثغري [٤] . ولم نجد لهاتين المقطوعتين ذكرًا في شرح الصولي ، ولم يرد شيء منها عند أصحاب الشروح الخاصة كالمرزوقي والمعري والخارزنجي . وقد رجّح محقق شرح التبريزي أن تكون هاتان المقطوعتان والقصيدة مما قاله أبو تمام ، لذلك لم يلحقها بالشعر المشكوك في صحة نسبته الذي وضعه في آخر الديوان ، على الرغم من ركاكة أسلوب بعض أبيات القصيدة ، ومجافاة بعض ألفاظها ومعانيها لما هو معروف من مذهب أبي تمام .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ١٥١ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ . وردت فيما ضبطه شاهين عطية من ديوان أبي تمام ص ١٥١ ، ط : دار الكتب العلمية ، الثانية ، بيروت ، ١٤١٢هـ .

كما نبه أحيانًا على أن بعض الأبيات التي يزيدها أو يضيفها إلى القصائد لم ترد عند هذا الشارح أو ذاك ، فالبيتان :

مَنْ يَدْفَعُ الكُرَبَ العِظَامَ إذا الْتَقَتْ في مَأْزِقٍ حَلَقاتُ كلِّ بِطَانِ ؟
حَمَّالُ ما لَوْ حَلَّ أَصْغَرُهُ علـــى ثَهْلانَ لا نهَدَّتْ ذُرَى ثَهْلانِ

وهما من قصيدة رثى فيها أبو تمام عمير بن الوليد ، ذكر التبريزي أن " هذين البيتين ليسا من رواية الصولي " (١) . ونشير إلى أن رواية الصولي لهذه القصيدة قد اقتصرت على اثني عشر بيتًا ، وخلى آخرها من زيادة الخطيب (٢) .

وأسقط التبريزي بعض الأبيات التي جاءت في الديوان ، أو عند بعض الشُرَّاح ، فمن القصيدة التي مدح بها أبو تمام أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي أسقط (٣) :

تبرزُ حزانُ كلِّ أرضٍ عَلَتْ رُباها عـــلى الدَّمِيْثِ
تَعْرقُ آبَاطُها انتجادًا بالوخدِ في رَمْلِها الوَعِيثِ

وقد ذكرهما ابن المستوفي وهما بعد بيت :

وحَيَّةٌ أُفْعُوانَ لِصْبٍ يعيث في مُهْجَةِ العَيُوثِ (٤)

كما وافق التبريزي الصولي في إسقاط سبعة أبيات وردت في الديوان ضمن قصيدة ذكر الصولي أنها في عتاب عياش بن لُهيعة ، غير أن الأبيات الساقطة تدل على أنه قالها في أبي المغيث ، ومن هذه الأبيات (٥) :

للّه درُّ أَبِي المُغِيْثِ إذَا رُحَـــىً لِلْحَرْبِ دَارَتْ ما أَعزّ وأشْـرَفَا
يَتَعَرَّفُ المَعْرُوف فِي لَحَظَاتِـهِ بِإزَاءِ صَرْفِ الدَّهْرِ حَيْثُ تَصرَّفَا
مَا إنْ يُبَالِي مَا تَقَدَّمَ في العُلا مَا كَـانَ مِنْ أَمْـوَالِـهِ مُتْخَـلِـفًا

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ١٤٥ .
(٢) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٣٦١ .
(٣) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٢٦ .
(٤) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٤٨٧ .
(٥) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٤٧٣ . وانظر : الديوان ، ت : شاهين عطية ، ص ٣٩٤ ، والصولي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٥٢٣ .

وقد يؤدي اختلاف الشُرَّاح حول رواية بعض الأبيات شكًا لدى التبريزي في صحة ثبوتها ، فينبه إليه في موضعه ، فمثلاً عند شرحه :

وَطَرِي في فُجَاءَةِ الردِّ ما يَعـ ... لمُ مِنْ هِمَّةٍ ونَفْسٍ عَزُوفِ (١)

ضِئْضِئي مِنْ بني عَدِيّ بن عَمْرٍو ... غيرَ أَنّي في مِثْلها مِنْ ثَقِيفِ

قال : " هذان البيتان يُختلف في روايتهما وإذا ثبتا على ما صُوِّر فقوله « وطري» من الوَطَر الذي هو الحاجة المتعلقة بها نفس الإنسان " (٢) .

والتبريزي اقتفى أثر المعري في شكه في رواية البيتين وشرحهما ، وقد أشار ابن المستوفي إلى ذلك ، بل إنه أخذ شرحه بكامل لفظه ، وأضاف إليه بعض الشواهد(٣).

ومع أن الخطيب التبريزي قد أخذ بالترتيب العام للديوان بحسب ما جاء عند الصولي ، غير أنه خالفه في مواضع ، فقدّم وأخّر في ترتيب بعض القصائد ، فالقصيدة التي مدح بها أبو تمام مالك بن طوق التغلبي ومطلعها :

سلِّمْ على الرَّبْع مِنْ سلْمَى بذِي سَلَمَ ... عليْهِ وَسْمٌ مِنَ الأَيَّامِ والقِدَمِ

أوردها الصولي في أول الميميات ، بينما نجدها عند التبريزي الخامسة في هذه القافية (٤) .

كذلك أظهر التبريزي حرصًا شديدًا على الروايات الجزئية التي ترد في ثنايا بعض الأبيات ، لأنه أدرك الأهمية التي تقوم بها رواية الشعر الصحيحة في أداء المعنى الذي قصده الشاعر ، وأن أي تحريف فيها أو تصحيف يجنح بكلام الشاعر ودلالته ، ويفضي

---

(١) ذكر ابن المستوفي رواية أخرى لهذا البيت هي :
وَطَرِي في فُجَاجَةِ الودِ وَتَيْها ... أَفْسَدَتْه اسْتِطَالَة المَعْرُوفِ / انظر : النظام - جـ ٢ ، ورقة ١٧٩ .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٤٦٨ .

(٣) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ١٧٩ .

(٤) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ ، وانظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٣٤٦ .

إلى اضطراب الشرح وعدم تبيّن المعنى الصحيح ، لذا فهو ينقل عن الشُرَّاح في بعض الأبيات جميع الروايات التي ذكروا أنها محتملة ، ويعرضها أمام القارىء ليختار منها ما يرضي ذوقه وعقله . غير أن بعض الباحثين أبدى تذمّرًا من ذلك ، وعدّ " كثرة الروايات وتضاربها تجعل الشعر في أذهان القرّاء غير جدير بالثقة ، لكثرة ما طرأ عليه من تغييرات لفظية في الرواية " (١) .

ونجد التبريزي أحيانًا يورد رواية بعض الألفاظ بأكثر من شكل ، وينقل عن الشُرَّاح معاني الروايات التي يذكرها ، أو يحاول أن يدلي بدلوه في تقليب الروايات على وجوه من المعاني مختلفة معتمدًا على ما تحتمله الألفاظ من المعاني المجازية ، والصور البيانية ، من ذلك ما جاء في القصيدة التي مدح بها أبو تمام الحسن بن وهب ، حيث وقف التبريزي عند الرواية في بيت :

فَكَمْ لي مِنْ هَوَاءٍ فِيكِ صَافٍ   غَذِيٍّ جَوُّهُ وَهَــوَىً وَبِيٍّ

فقال : " الرواية تختلف في هذا البيت و « الهواء » ما بين السماء والأرض ، وإذا رويت « غَذِيٍّ جَوُّه » فهو كناية عن الطِّيبِ ، أي كأن جَوُّه يُغذَّى بالنسيم والنَّدى ، وإذا رويت « غذي جوده» فهو راجع إلى نحو من ذلك ؛ لأنه يستعير الجود للهواء ، ومن روى « عَذِيٍّ » بالعين غير معجمة ، فإنه يأخذه من الأرض العَذِيَّة والعذاة وهي الأرض الطيبة التراب ، مع بُعْدٍ من الماء ، إلاّ أن التشديد في « العَذِي » و « العذية » غير مستعمل ، والقياس يجيزه ، لأن (فعلاً) و (فعيلاً) يشتركان كثيراً ، كقولهم سَقِمٌ وسقيم ، وجَرِحٌ وجريح ، ومن روى « وهَوىً وبِيٍّ » حمله على تخفيف الهمز ، لأن «الوباء» مهموز ، ومن روى « وهوىً وفيٍّ » فهو من الوفاء وإنما يعني هوى النفس " (٢) .

هذه الوجوه المتعددة في رواية الشطر الثاني من البيت وما أفضت إليه من معان مختلفة ومتباعدة أحيانًا أمر يبعث العجب . إذ نلاحظ أن التبريزي حاول أن يستعمل بعض المصطلحات البلاغية (الكناية ، والاستعارة ، والمصطلحات اللغوية ، الاستعمال ،

---

(١) أحمد جمال العمري : شروح الشعر الجاهلي ،
ط : دار المعارف ، الأولى ، مصر ، ١٩٨١م ، جـ ٢ ، ص ٣١٩ .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٣٥٣ .

والقياس) في تدعيم ما يذهب إليه من تأويل للروايات المذكورة ، دون الأخذ في الاعتبار أن مراد الشاعر كان معنىً واحداً لا غير .

وغالبًا ما يورد التبريزي الروايات الجزئية غفلاً من الإسناد ، فلا يذكر صاحب الرواية ، غير أنه في مواضع من شرحه أسند بعض الروايات إلى أصحابها ، وأكثر ما يكون ذلك في الأبيات التي دار حول روايتها جدل بين الشراح ، ولعل من ذلك نصّه على رواية المرزوقي في هذا البيت:

هَمٌّ سَرَى ثُمَّ أضـــحى هِمَّةً أَمَمًا أضحت رَجَاءً وأَمْسَتْ وَهْيَ لِي نَشَبُ

يقول : " بِتّ في همّ وأصبحت في هِمَّة ، وأضحيت في أمَل وأمسيت في مال ، ورواية المرزوقي : "راحتْ رجاءً وأمستْ وهي لي نشبُ " [١] .

والرواية الأولى هي رواية الصولي ، غير أن المرزوقي يرى أنها ليست صحيحة وأن الصحيح ما أثبته هو ، بل إنه يتهم الصولي هنا بتبديل الرواية ، والخطأ في تفسير البيت [٢] .

ويؤخذ على التبريزي أنه كان كثيراً ما يثبت في متن الشعر رواية ، وينصرف بالشرح إلى رواية أخرى غيرها ، وربما لا يشير إلى الرواية التي أثبتها لا من قريب ولا بعيد . وقد أثبت رواية أحد أبيات القصيدة التي مدح بها أبو تمام أبا سعيد على النحو التالي :

يَقِظٌ يَخَافُ المُشْرِكُونَ شَذَاتَهُ مُتَوَاضِـــعٌ يَعْنُو لَه الجَبَّارُ

وهي رواية الديوان [٣] ، والتزم بها الصولي في روايته [٤] ، غير أن التبريزي يورد في شرحه رواية أبي حامد الخارزنجي ، وينساق في شرح هذه الرواية مع شيخه أبي العلاء المعري ، وينسى الرواية التي أثبتها في المتن ، والرواية الثانية :

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ .

(٣) انظر : شاهين عطية : شرح الديوان ، ص ١٣٩ .

(٤) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٥٢٥ .

" قَصْدٌ يخاف المشركون شذاته " ، ويُفسر القصد بالرجل العادل ، أو أنه مصدر قَصَدَ ، ويجعل رواية « قصْد » بالمصدر تحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون القصد يراد به الاقتصاد . . . والآخر : أن يكون من قصَد العدوَّ " (١) .

ويبدو أن الخطيب قد وقع في حيرة في اختيار الرواية في بعض مواضع من شرحه، فهو يطمئن إلى رواية أبي العلاء المعري ، ويرى أن شرحه أقرب الشروح إلى مراد أبي تمام ، غير أنه يجد بعض رواياته تختلف مع رواية الديوان ، أو مع الشراح الذين هم أقرب إلى عصر الشاعر ، فيضطر في بعض الأحيان إلى إثبات رواية ما، وشرح أخرى غيرها (٢) .

نقد الروايـــــــة : كان التبريزي ينقل إلى شرحه كثيراً من أقوال الشُرَّاح ومناقشاتهم في الرواية ، لكنه لم يكن دائماً مجرد عارض للروايات ، يضعها جنباً إلى جنب دون تدخل منه ، بل حاول في بعض مواطن من شرحه أن ينقد بعض الروايات التي أوردها ، وأن يفاضل بين الروايتين ، وأن يعلل سر اختياره لبعضها . وقد استخدم لمعايير المفاضلة مصطلحات مثل : أحسن ، وأجزل ، وأفصح ، وأصوب ، وأجود ، وأوضح ، وأقوى وغير ذلك . وربما جاء تفضيله لبعض الروايات واستجادته لها دون تحليل أو تعليل . من ذلك تفضيله الرواية الأولى في بيت :

ولا يُرَاخِي عَذْلَ الْمُعَنَّسَةِ الْـ   خَرْقَاء إِلاّ الشِّمِلَّةُ العَنْسُ

"ويقع في بعض النسخ « ولا يواخي » وفسروه : ليس يصاحب العذل ويوافقه إلا ركوب هذه الناقة في طلب الرزق ، والرواية الجيّدة هي الأولى " (٣) . ولعله استجاد الرواية الأولى لاعتماد أبي العلاء المعري لها من ناحية ، ولمطابقتها للسياق في البيت من ناحية أخرى ، إذ إن مقصود الشاعر : أن العانس الحسناء تتجنب لوم العانس الخرقاء وعذلها .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨٤ ، ٣٢٧ ، جـ ٢ ، ص ١٥٧ ، ١٧٤ ، جـ ٤ ، ص ٩٨ ، ٥٠٧ .

(٣) نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ .

وكذلك رفض التبريزي رواية « حَيَّ أهلاً » في هذا البيت :

أَيُّهَا الغَيْثُ حَيِّ أَهْلاً بِمغْدَا كَ وعِنْدَ السُّرَى وحِينَ تَؤُوبُ

قال : "ومن روى « حَيَّ أهلاً » فهذه كلمة مرفوضة إلا أن يجعل « حَيَّ » في معنى «هَلُمَّ » وينصب « أهلاً » بفعل مضمر " [١] .

وقد أثبت التبريزي رواية المتن « حَيِّ » بالكسر ، غير أنه استهل شرحه برواية للمعري هي « حَيَّهَلاّ » بتشديد اللام ، ولم ترد هذه الكلمة إلا مخففة ، ثم رفض الرواية الثالثة دون أن يفصح عن السبب ، الأمر الذي جعل ابن المستوفي يعقب بقوله " والكسر أحسن لعدم التّمحّل " [٢] .

أمّا ما **نقده من الروايات** ورجحه على غيره ، فقد اعتمد في ذلك على بعض أمور أيد بها اختياره للرواية ، من ذلك اعتماده على صنعة الطائي ومذهبه ، ففي القصيدة التي يفخر فيها الطائي بقومه عند انصرافه من مصر ، جاء بيت :

جَرَى حاتِمٌ في حَلْبَةٍ مِنْه لَوْ جَرَى بِها القَطْرُ شَأْوًا قِيلَ أَيُّهما القَطْرُ

ذكر أن " الرواية المعروفة" بها القطرُ شأوًا واحدًا جَمَسَ القَطْرُ" ، وهو أشبه بكلام الطائي ، و « جمس » في معنى جمد ، وقال قوم جَمَدَ الماءُ ، وجَمَسَ الودك والدهن ، وكان الأصمعي يعيب على ذي الرُّمة قوله : « وتفري سديف البزل والماء جامس » .

ولعل الذي غَيّر الرواية إنما سمع قول الأصمعي وكره أن يكون مثل ذلك في شعر الطائي ، ولم يصنع شيئًا بالتغيير ، بل الرواية التي فيها جَمَسَ أجزل وأفصح " [٣] .

والملاحظة التي تسجل عليه هنا أنه اختار الرواية الثانية لمعرفتها وشهرتها ، ولكونها أشبه بكلام الطائي ، إضافة إلى أنها أجزل وأفصح – كما ذكر ، ثم أثبت في متنه الرواية التي قال إنها غُيّرت لإخفاء العيب من شعر الطائي كما ظن الذي غيّر الرواية على حدّ قوله .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٩٣ .

(٢) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ١٥٣ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٥٧٤ .

وربما ذهب التبريزي إلى أبعد من ذلك في اتهامه الرواة بتغيير شعر أبي تمام ، فهو يصف بعضهم بالسخف والجهل ، لأن الرواية المعروفة في :

فَتىً ذَخَرَ الدُّنيا أُناسٌ ولم يَزَلْ لها باذلاً فانظر لِمَنْ بَقِيَ الذُّخْرُ

« لم يزل لها داحرًا » قال "والذي غيّرها بـ « باذل » إنّما كره لفظ « داحر » ، وذلك يدل على سخف رأي وجَهْل ، وفي قوله « داحر » ضرب من الصناعة التي كان يتبعها الطائي ؛ لأنّ « داحرًا » تصحيف « داخر » ، ولو قال قائل في النثر ما أنت داخرٌ للدنيا، بل داحر لكان أصنع من قوله باذل ، وهذا بيّن " [١] .

والخطيب هنا تابع لأبي العلاء الذي أخذ منه لفظه ووافقه في رأيه ، وإن لم ينسبه إليه [٢] .

وعمل التبريزي هنا يثير العجب ، إذ كيف يثبت في متن شرحه رواية ، ذكر أنها محرّفة وفيها ما يدل على السخف والجهل ؟ لقد كان التبريزي هنا وفي مواطن أخرى من شرحه عالة على أبي العلاء ، مسلّمًا بكل ما ينقله عنه في شرحه .

كما اعتمد الخطيب في اختياره وترجيحه للروايات على مؤيدات ومرجحات أخرى ، وكانت صحة الدلالة من أهم ما اعتمده في الأخذ بالرواية . من ذلك ما جاء في القصيدة الثائية التي مدح بها أبو تمام أبا المغيث الرافقي ، فقد أثبت البيت بالرواية التالية :

أنْكِدْ بِأَرْيِ النَّوَالِ مَا لمْ يَحْلُ مِنَ العُشْبِ واللَّوِيثِ

غير أنه أورد في الشرح "ومن روى « الجُثُوثَ » فإن المعنى يخلص لعسل النحل ، لأن الجثَّ ما يكون في موضع النحل من الشمع الذي لا عسل فيه ، وما يموت من النحل ويجتمع من أوساخها ، وعلى هذا تكون الرواية « مالم يَحْلُ من العُشْب » [٣] .

لقد أجاز المعري أن يكون مراد الشاعر بالأرْي في هذا الموضع المنّ الذي يسقط

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ٦٣ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٢٧ .

من السماء ، غير أن التبريزي استدل بكلمة « الجَثّ » التي هي موضع النحل من الشمع في تحديد الرواية المناسبة للمعنى .

ومما علل به تفضيله رواية على أخرى موافقة الرواية لأصول اللغة وقواعد النحو ، ومن أمثلة ذلك ، استجادته لرواية « أشد قُوىً » في :

وبَيَّتَّ البَيَاتَ بعَقْدِ جَأْشٍ أَشَدَ قُوىً مِنَ الحَجَرِ الصَّلُودِ

قال : "ومن روى « أَمَرَّ قُوىً » : فالمعنى أشدّ إمرارًا ، أي فتلاً و « أشدَّ قُوىً » أجود الروايتين ، لأن المعروف أمررت الحبل بالهمز ، وهم يجتنبون أن يُبنى فعل التعجب على « أفعل » في التفضيل ، إلا في أشياءَ مسموعة ، وقد ذهب بعضهم إلى أن ذلك قياس مُطّرِد في كل فعل ماض على « أفْعَلَ ، والأخذ بالسماع أحسن » " [١] .

والذي ذهب إلى أن بناءه من « أفعل » قياس هو الأخفش وتابعه في ذلك أبو العباس المبرد ، وقاساه على «ما أعطاه» ، و «ما أولاه» ، وضعّف ابن يعيش هذا الرأي ولم يسوغه إلاّ إذا ظهر المعنى وأُمن اللبس [٢] .

كذلك اعتمد التبريزي على سلامة التراكيب ، وحسن النظم ، واستقامته في ترجيح الرواية ، فبعد أن شرح بيت :

وَمَا القَفْرُ بالبِيدِ القَوَاء بَلْ التي نَبَتْ بِي وفيها سَاكِنُوها هِي القَفْرُ

قال : " ويُروى « نَبَتْ بي وفيها أهلُها فهي القَفْرُ » والذي فرّ إلى الرواية الأخرى إنما كره الفاء ، والرواية التي فيها الفاء أقوى في النظم والذي اجتلب الفاء هو الفعل وذلك قوله نَبَتْ " [٣] .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٣٨ .

(٢) انظر : ابن يعيش : شرح المفصّل ،
ط : عالم الكتب ، بيروت ، د : ت ، جـ ٧ ، ص ١٤٤ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٥٧٠ .

ولم يشر الشارح ولا المحقق إلى أن التبريزي نقل هنا جُلّ ما جاء في شرح المعري ووافقه في تفضيل الرواية الثانية ، مع أنه لم يأخذ بها في المتن [١] .

وأخيراً كان يعتمد على ما جاء في النسخ القديمة من روايات ، وهو غالبًا ما يجعلها في مقابل رواية أبي العلاء ، فعندما روى :

سَهْمُ الخليفةِ في الهَيْجا إذَا سُعِرَتْ بالبِيض والتَفَّتِ الأَحْقابُ والغُرُضُ

قال : " في النسخ كلها « سهم الخليفة » ، وفي « ذكرى حبيب » لأبي العلاء (شهم الخليفة " [٢] . وشرع التبريزي في شرح رواية أبي العلاء ، مع أن رواية النسخ هي التي أثبتها في المتن ، ويرجح صحتها ما ورد في البيت الذي يلي هذا البيت من إشارة إلى السهم في قوله :

بِذَلكَ السَّهْم ذي النَّصْلَيْنِ قد حُفِزا بِرِيشِ نَسرِيْنِ يُرْمى ذلك الغَرَض

ونجده أحيانًا ينحاز إلى رواية أبي العلاء المعري حتى وإن كانت مخالفة لما في النسخ ، ولما أثبته في متنه ، مدعمًا موقفه بما غلب فيه استعمال العرب ، ولعل من أمثلة ذلك روايته لقول أبي تمام على هذا النحو :

مِنْ كُلِّ ضاحِكةِ الترائِبِ أُرهِفَت إِرْهافَ خُوطِ البانَةِ المَيَّاسِ

"وفي النسخ « ضاحكة الترائب » ورواية أبي العلاء « ضاحكة الشمائل » ، والشمائل أكثر ما تستعمل العرب في معنى الخلائق . . . والعامة يقولون فلان حسن الشمائل يريدون به حسن الخُلُق والقَدّ ، والاشتقاق يجيز ذلك " [٣] .

ويمكن أن نجمل القول بأن التبريزي قد اعتمد في معالجته لرواية الشعر على الشراح السابقين ، واتكأ كثيراً على أبي العلاء المعري ، لكنه لم يقف أمام جميع الروايات موقفًا سلبيًا ، فكثيراً ما كان يتدخل ويوضح رأيه ويعلله ويدعمه ، ونلاحظ أنه بذل جهداً لا بأس به سواء في الرواية الكلية للقصائد والأبيات ، أو الروايات الجزئية

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ٦٣ .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٣٨٥ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

التي ترد في ثنايا شعر أبي تمام . ويحمد له ما جمعه من الروايات المختلفة والمتعددة التي وردت في الشروح والنسخ القديمة ، التي قد يكون بعضها مفقوداً وغير محتمل العثور عليه ، ومهما كان بين هذه الروايات من تناقض أو تضارب ، فإن التبريزي يرى أن من حق القارىء الاطلاع عليها والاختيار منها ، كل بما يناسب منهجه ويرضي ذوقه وعقله ، مع أن الخطيب التبريزي قد نبه على بعض ما وقع في تلك الروايات من تصحيف أو تحريف ، وتتضح قيمة عمله في مجال الرواية فيما أجراه من مفاضلة بين الروايات وما أورده من نقد لها ، فكثيراً ما يفضل رواية على أخرى معللاً لذلك التفضيل أو غير معلل ، مستفيداً في ذلك بما دار بين الشراح من جدل حول رواية شعر أبي تمام، وما عبّروا عنه من وجهات نظر في الروايات المخالفة وبخاصة ما ورد في شرح أبي العلاء المعري ، ومستنداً إلى ما كان يملكه من شروح ونسخ قديمة أعانته في مقارنة الروايات ومعرفة سندها وأصحابها . كما عوّل التبريزي في نقده لرواية شعر أبي تمام على خبرته بشعر الطائي ومعرفته بمذهبه الفني ، وكذلك بما حصّله من ثقافة لغوية ونحوية واطلاع واسع على أشعار العرب ومعارفهم التاريخية . كل ذلك يجعلنا نرى أن الرواية التي اختارها التبريزي - بذوقه المدرب ومعاييره الموضوعية - تعدّ أفضل رواية لشعر أبي تمام ، وأقرب الروايات إلى الكمال .

ثانياً : المنظـــور اللغـــوي والنحـــوي :

كانت طريقة التبريزي في معالجته للقضايا اللغوية والمسائل النحوية في أثناء شرحه لشعر أبي تمام جزءًا من منهجه العام في شرح الديوان ، فهو يتنقّل في شرح البيت الواحد - أحيانًا - بين أغلب ما حققه الشراح السابقون من تفسيرات لغوية ، وآراء نحوية ، مضيفًا إلى ذلك من منظوره اللغوي والنحوي ما يزيد المسألة المطروحة توسعًا وثراءً . ويكفي التذكير ببعض ما ألفه التبريزي من شروح ، أو وضعه من تعليقات على بعض الكتب اللغوية مثل « إصلاح المنطق » و « الألفاظ » لابن السكيت ، أو النحوية مثل « اللُّمَع » لابن جني ، للدلالة على استيعابه وفهمه لمسائل اللغة والنحو ، ومحاولة الإفادة منها في شرح الشعر عامة ، وفي شرح شعر الطائي خاصة . وهذا يؤكد اتساع ثقافته اللغوية ، ويجعل المنظور اللغوي لديه غاية في القوة والعمق .

المنظـــور اللغـــوي : برزت عناية التبريزي باللغة في شعر أبي تمام من خلال ما حشده من تفسيرات دلالية ، وما حققه من تتبعٍ لأصول بعض الألفاظ ، وبيانٍ لبعض استعمالاتها ، مستعينًا ببعض الجهود اللغوية التي قدمها فقه اللغة العربية : كالاشتقاق ، والترادف ، والتضاد، والمشترك اللفظي ، والمولّد ، والاستعمال ، والقياس ، واللهجات ، وغيرها .

وقد جمع ما قاله الشراح السابقون من تفسيرات لغريب ألفاظ شعر أبي تمام ، ثم أضاف إليه ما ساعدته عليه ثقافته اللغوية والأدبية من معانٍ معجمية ، ومجازية ، واستشهادات ، وآراء لعلماء اللغة القدماء . ثم عرض ذلك في أشكال متعددة ، وطرق متباينة حاول فيها أن يوّفق بين ما تحمله اللفظة من معان وما أراده الشاعر في سياق شعره . من ذلك لفظة « تَامُور » في قول أبي تمام ، من قصيدة مدح فيها محمد بن الهيثم :

وَمَودَّتي لك لا تُعارُ بَلى إذَا ما كانَ تامُورُ الفُؤادِ يُعارُ

نقل التبريزي عن المعري أن « تامُور الفُؤاد » دم القلب ، وقيل : هو جثته ، ثم أضاف "وربما أريد به الدَّم مطلقًا ، ومنه قول أوس :

نُبِّئْتُ أَنَّ بني سُحَيْمٍ أَدخَلُوا أَبياتَهم تامُورَ نَفْسِ المُنْذِرِ

ويقال للماء الذي في باطن الأجمَة : تامور ، وتامورة ؛ لأنها تشتمل عليه ، كاشتمال القلب على دمه ، قال الشاعر :

تظَلُّ أُسودُ الغَابِ تَعْزِفُ حَوْلَه إِذا هُوَ في تَامُورَةِ الغِيلِ زمْجَرا [١]

والتامور له معان معجمية أخرى منها الزعفران ، والخمر ، وعرين الأسد ، والنَّفْسُ وغيرها [٢] ، غير أن التبريزي حاول أن يقترب من دلالة المعنى الواردة في سياق البيت . ويلاحظ أن التبريزي يعمد في شرحه للغريب إلى استخدام اللفظ المرادف ، كأن يفسر « النقع » بالغبار ، و « الطود » بالجبل [٣] ، أو إلى استخدام اللفظ المضاد ، كأن يقول «البارح هو ضد السانح» [٤] ، أو يشرح معنى اللفظة بما وردت عليه في سياقات أخرى غير التي وردت في شعر أبي تمام ، ولعل من أمثلة ذلك وقفته عند هذا البيت :

لَمْ يَغْزُ قَومًا وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ إِلاَّ تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعُبِ

قال في تفسير « لم ينهد » : " أي لم ينهض إليه ، ومنه قولهم نَهَدَ ثَدْيُ الجارية ، وتناهد القوم في السفر إذا تخارجوا النفقة بينهم ، وهو راجع إلى هذا ، ومنه تَنَهَّدَ الحزين ، كأنه ينهض النَّفَس " [٥] .

إن السياق الذي وردت فيه كلمة « نَهَدَ » مختلف عما في البيت ، غير أن المعنى الذي تحمله اللفظة فيه دلالة على النهوض والحركة باتجاه العلو ، وحوض نهدان إذا علا وأشرف ، وللبيت في بعض النسخ رواية أخرى هي « لم ينهض » وبها يكون البيت في غنى عن هذه التخريجات والتأويلات اللغوية التي ذكرها التبريزي .

وعدّ التبريزي بعض أسماء الأعلام التي ذُكرت في شعر أبي تمام من الغريب الذي يحتاج إلى تفسير . فإذا قال أبو تمام يمدح محمد بن الهيثم بن شبانة

محمَّدُ يا بنَ الهَيْثم بنِ شُبَانَةٍ أبي كلَّ دفَّاعٍ عَنِ المَجْدِ ذَائِدِ

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة « تمر » .

(٣) انظر التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٣٦٩ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٠ ، جـ ٢ ، ص ٣٢١ .

(٥) نفسه : جـ ١ ، ص ٥٩ .

فإن التبريزي يذكر بعض المعاني التي ترد في توضيح دلالة « الهيثم » و « شبانة» مستدلاً برأي بعض علماء اللغة ، ومفيداً من بعض ما جاء عند بعض الشراح السابقين، "سُمِّي الرجل الهيثم من قولهم لولد العُقاب والنسر هيثم ، ويقال كثيب هيثم أي سهل ، وساعد هيثم أي ناعم ، وحُكي عن قطرب أن الهيثم الكثيب الأحمر ، ويُقال لشجر طيب الرائحة : هيثم ، وكل ذلك يحتمل أن يسمَّى به الرجل ، قال الراجز :

مثل القَفَافيزِ حُشِينَ هَيْثَما

يُكْرِمُها أَربابُها أَن تُوسَما

و« شُبانَة » اسم لم يذكر أهل اللغة الموثوق بهم له اشتقاقًا ؛ لأن الشين حرف ممات ، وقال بعضهم إن الشُّبانة ضرب من الشجر . . . ويجوز أن يكون أصل هذا الاسم أعجميًا " [١] .

لقد حاول التبريزي – هنا – استقصاء معظم المعاني المتصلة بلفظة « هيثم » ودلل في كلامه على أن « هيثم » منقول إلى العلمية من أحد هذه الاحتمالات الدلالية .

كما أظهر في تفسيره لكلمة « شبانة » معرفة بالأسماء المنقولة والمرتجلة وما فيها من اشتقاق وتصريف ، وما تدل عليه من معان وإشارات .

ومن أبرز مظاهر شرح التبريزي في المنظور اللغوي تناوله للمباحث اللغوية المختلفة ومحاولة الاستعانة بها ، والاستفادة منها في تفسير ألفاظ أبي تمام ، وتحديد دلالاتها المختلفة . من ذلك استخدام الاشتقاق للتمييز بين معاني الألفاظ ، ومعرفة أصول الكلمات ، وما اشتق منها في شعر أبي تمام ، ومما وقف عليه في مبحث الاشتقاق لفظة «إنسان » التي ذكر أبو تمام في بيته أنها مشتقة من النسيان قال :

لا تَنْسَيَنْ تِلْكَ العُهودَ فإِنَّما   سُمِّيتَ إنسَانًا لأَنكَ نَاسِي

يعرض الخطيب رأي أصحاب مدرستي البصرة والكوفة دون أن يرجّح أحدهما على الآخر ، " وأصحاب النحو يختلفون في اشتقاق « الإنسان » فالبصريون يذهبون إلى أنه من الأُنس والإنس ، وذهب أهل الكوفة إلى أنه من النسيان . وقد روي ذلك في الحديث ، واحتج هؤلاء بقولهم في التصغير أُنَيْسِيان وبقولهم في الجمع أناسيّ ،

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

والبصريون يرون أن قولهم أنيسيان شاذ ، وأن قولهم أناسِيّ مراد بها أناسين فأبدلت الياء من النون" [١] .

وعلى هذا يكون اشتقاق أبي تمام « إنسان » من « النسيان » موافقًا لمذهب الكوفيين الذين ذهبوا إلى أن وزنه « إفعان » ، بينما يذهب البصريون إلى أنه على وزن « فِعْلاَن » [٢] .

ومن أمثلة توظيفه للاشتقاق في شرح الشعر وقوفه عند كلمة « الشؤبوب » الواردة في قول أبي تمام :

فَتَصَلَّى مُحمَّدُ بنُ مَعَاذٍ جَمْرَةَ الحرْبِ وامترَى الشُّؤْبُوبَا

"وليس في كلامهم الشأب ، لأن الشؤبوب يحتمل أن يشتق من ثلاثة أشياء : من الشأب وهو مُماتٌ ، ومن شبَّ النار والحرب ، وتكون الهمزة زائدة فيكون وزنه « فؤعولاً » وهذا هو الوجه فيه ، . . . ويحتمل أن يكون فعلولاً ، من شاب يشوب أي خلط ، وهمزت الواو لمجاورتها الضمة ، كما حكوا مؤسى في موسى . . . " [٣] .

ومن الألفاظ التي تحدث عنها التبريزي في شرحه وذكر اشتقاقها وردها إلى أصولها وبيّن القيم الدلالية والتعبيرية لها : أندلس [٤] ، أتّئب [٥] ، والسلافة [٦] ، وأريحي [٧] ، وصهصلق [٨] ، والبوق [٩] ، وعسقلان [١٠] ، والعارية [١١] ، وناوش [١٢] ، وغيرها .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٢) انظر : عبد الرحمن الأنباري : الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين ، ط : دار الفكر ، مصر ، د : ت ، جـ ٢ ، ص ٨٠٩ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٦٩ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢١ .

(٦) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٦ .

(٧) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٧ .

(٨) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٩) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٨٠ .

(١٠) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٦٨ .

(١١) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٩٤ .

(١٢) انظر : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٤٥٧ .

وفي شعر أبي تمام بعض ألفاظ يجوز أن تقع اللفظة الواحدة منها على معنيين متضادين ، وقد وقف التبريزي على عدد من تلك الألفاظ التي تنضوي تحت ظاهرة التضاد ، فمثلاً في شرحه للبيت :

لَعَزْمُكَ مِثْلُ عَزْمِ السَّيْلِ شُدَّتْ قُوَاهُ بالمذَانِبِ والتِّلاعِ

قال : "و «التَّلْعة » من الأضداد يكون المكان المرتفع والمنخفض ، وقيل إن أصل ذلك أنَّ المسيل في الوادي يقال له تلعة ، فيقع ذلك على أعلاه وأسفله" [١] .

وكذلك أشار إلى أن كلمة "المُقَوَرَّة" من الأضداد ، في قول أبي تمام من القصيدة التي مدح بها أبا دلف العجلي :

أزَرْتَ آبْرَشْتَويما والقَنَاقِصَدٌ غَيابَةَ المَوْتِ والمُقْوَرَّةَ الشُّسُفَا

و « المقورة » الخيل الضامرة ، وتكون من صفات السمين وهو من الأضداد" [٢] .

ومن ألفاظ التضاد التي نبه إليها الخطيب في شرحه : القشيب [٣] ، وأعذب [٤] ، والسجر [٥] ، والطرب [٦] ، وغيرها . وهذا المجال يعد من الإضافات التوسعية التي أضافها أبو زكريا في المنظور اللغوي في شرحه ، وإلا فإن أبا تمام - مثلاً - لم يرد بالمقورّة في بيته السابق إلاّ الخيل الضامرة . وقد دلّ على ذلك وصفه لها « بالشُّسُف» وهي الفرس التي ضمر بطنها ضُمْرًا شديدًا ، فتكون أسرع في الكَرِّ واللحاق بالعدوّ الهارب .

كما ذكر التبريزي أن أبا تمام استخدم في بعض أبياته ألفاظًا مترادفة ، ليعبّر بها عن معنى واحد ، وإن اختلفت ألفاظها ، ففي قوله :

بالمجتَبَى والمُصْطَفَى والمُسْتَرى للحَمْدِ والحَالي بِهِ والكَاسِي

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٣٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٧١ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٤٦ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٢ .

(٦) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٦٨ .

قال : "و « المصطفى » و « المجتبى » و « المسترى" »كلها تؤدي معنى « المختار» وإن اختلفت الألفاظ ، فالمصطفى مأخوذة من صفوة الشيء وهو ما صفا منه ، والمجتبى قريب من ذلك ، لأنه من الجَبْي وهو ما جُمع في الحوض من الماء ، والمسترى من السَرْو والسَّرَاة ، تقول استريت الشيء إذا أخذت سَرِيَّة . . . " [١] . والخطيب ينقل - هنا - عن أبي العلاء المعري الذي اتكأ عليه اتكاءً ظاهراً في مجال معالجة كثير من قضايا اللغة في شرحه ، ويلاحظ أيضًا أنه شرح الألفاظ بما فيه شيء من التباين الدلالي . ومن هذا المنطلق فإن بعض علماء العربية القدماء - ومنهم أبو علي الفارسي ، وثعلب وأحمد بن فارس - ينكرون وقوع الترادف في العربية ، ويلتمسون لذلك الفروق الدقيقة بين الكلمات ، فيعدونه من الصفات المتباينة[٢] .

وقريب من الترادف ما عرف بالاتباع والمزاوجة ، وهو أن ترد كلمة مع أخرى على سبيل التماثل ، وإن لم تفد معنى جديداً في أغلب الأحيان ، مثل عطشان نطشان ، وشحيحٌ نحيح ، وسمجٌ لمج ، وحارٌّ بارٌّ . ومثاله في قول أبي تمام :

كَرَّتْ على البُخْلِ بما ساءه وناءه كَرَّتُكَ الخاسِرَةْ

فذكر التبريزي أن " هذا عندهم مما اتبع بعضه بعضًا لازدواج الكلام ، والأصل أن يقال أناءَه ينيئه إناءَة ، ولكنهم جاءوا به على مقدار « ساءه» ، وإذا أرادوا نطقوا به على الأصل " [٣] .

ووقف التبزيزي عند بعض الألفاظ الأعجمية التي استعملها الطائي في شعره ، فذكر ما تدل عليه في الأصل ، ثم بين بعض أحكام أبنية ما ألحق بالعربية منها ، ففي البيت :

لئنْ كانَ أمسَى في عَقَرْقُسَ أَجْدَعا لَمِنْ قَبْلُ ما أَمسَى بمَيْمَذَ أَخرمَا

أشار إلى أن "عَقَرْقُسَ ، على وزن « سفرجُل » بضم الجيم ، وهو اسم موضع أعجمي ، وهو يشابه في الوزن قولهم كَنَهْبُل لضربٍ من الشجر ، وفيه اختلاف ، فقوم يجعلون نونه زائدة ، وقومٌ يجعلونه بناءً من الأصول ، وكلا الوجهين يحتمله القياس ،

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٢) انظر : السيوطي : المزهر في علوم اللغة العربية ، جـ ١ ، ص ٤٠٣ وما بعدها .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٣٦١ .

ولو أن « عَقَرْقُس » اسم عربي لم يُحكم على أحد قافيه بالزيادة في مذهب أصحاب التصريف . . . و "مَيْمَذْ" اسم أعجمي وليس يوافق شيئًا من أسماء العربية ؛ لأن « المَمَذْ» ليس بمستعمل ، فيكون من باب كوكب ، ولا « اليْمَذ» بمعروف فيجعل من باب «فَعْل» " (١) .

وفي القصيدة التي مدح بها أبو تمام خالد الشيباني جاء قوله :

وِلِلكَذَجِ العُلْيَا سَمَتْ بكَ هِمَّةٌ طَمُوحٌ يَرُوحُ النَّصْرُ فيها ويَغْتَدِي

وفسر التبريزي « الكذج » بأنها " كلمة لم تستعملها العرب ، ولا استعملت الكاف والذال والجيم فيما يعرف من الثلاثي . و« الكذج" بالفارسية » البيت المسكون ، فكأن هذا الموضع سُمِّي بذلك " (٢) .

ومن الألفاظ التي وردت في شعر الطائي ونسبها الخطيب إلى الكلام الأعجمي: «قومس »، وهي كلمة رومية ، تعني نيّفًا وثلاثين رجلاً (٣) ، و « الفرند » وأصلها فارسيّ ومعناها رونق الشيء (٤) ، و « منجنيق » وليست هذه الكلمة بالعربية في الأصل ، وإذا جمعتها العرب قالوا : مجانيق (٥) . ومن هذا يتضح أن العرب استعملوا بعض الألفاظ الأعجمية ، فمنها ما له نظير في كلامهم فألحقوها به ، ومنها ما ليس له نظير في أبنية العرب ، فلم يلحقوها بأبنية كلامهم ، ولم يعدوها منه (٦) ، لذلك نجد التبريزي يقول : "وليس في كلام العرب مثل « دمقس » في الرباعي ، وهو اسم أعجمي . والقياس إذا نطقت به العرب أن يكسر أوّله ليخرجوه إلى بناء هو لهم ، مثل قولهم أرض دِمَثْرَة أي سهلة . وناقة دِرَفْسَة أي ضخمة شديدة ، ولا يمتنع أن تترك الكلمة الأعجمية على حالها من فتح أو غيره " (٧) . وهذا كله يشير إلى العلاقة القديمة بين اللغة العربية وبعض اللغات الأخرى المجاورة لها ، بحسب مبدأ التأثر والتأثير .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٨ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ .

(٦) انظر : السيوطي ، المزهر في علوم اللغة ، جـ١ ، ص ٢٦٩ .

(٧) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٦٢ .

وصف أبو زكريا بعض ألفاظ أبي تمام بالعامية ، أو أنها مما يستخدمه العامة ، وعلل رأيه في بعض الألفاظ ، ثم ذكر الصواب فيما يُحمل منها على القياس ، من ذلك كلمة « تَكَشْخَنَ » في قول أبي تمام :

لم يُسوَّدْ وَجْهُ الوِصالِ بوسـ ـم الحُبِّ حتى تكشْخَنَ العُشَّاقُ

« تَكَشْخَنَ » كلمة عامية لا تعرفها العرب . وإذا حُملت على القياس فالصواب «تَكَشَّخَ » ، لأنك إذا بنيت « تفعّل » من سكران فالوجه أن تقول تَسَكَّر ، . . . " [١] . وفي « لسان العرب » أن الكشخنة مولّدة ليست عربية [٢] ، وفي هجاء أبي تمام لعياش ابن لُهيعة قال :

فَلَمَّا بَدا لي منكَ لُؤْمٌ يَحُفُّه حِرَمِيَّةٌ يَسْتَنُّ فِيها التُّبَظْرُمُ

فنبه التبريزي إلى أن " «الحرّمية والتبظرم » كلمتان عاميتان ولم ترويا عن فصيح ، والقياس ضعيف لأن « الحرّمية » منسوب إلى مضاف ومضاف إليه ، والعرب لم تفعل ذلك ، لم يقولوا في النسب إلى غيرهم عبد عمروٍ وعبد عَمْرِيّ ، وإنما استجازت العرب النسب إلى هذين الاسمين ، لأنهم أسقطوا همزة « أم » ووصلوا الكلمة بالثانية . . . هذا إذا كسروا الراء . . . فأما إذا ضموا الراء فهو من القياس أبعد " [٣] .

ومن الألفاظ التي وقف عندها على أنها عامية قول أهل البصرة «حَمَامٌ فَقِيْع» يريدون بالفقيع الأبيض [٤] ، وقول العامة : الطيِّبة في مصدر الشيء الطّيّب ، فأهل اللغة ينكرون ذلك ويختارون حذف الهاء [٥] ، وكذلك اصطلاح العامة « نَظَرَ الزَّمَانُ إليه» إذا فعل الزمان بهم فعلاً قبيحًا [٦] ، وغير ذلك مما تناوله في شرحه من ألفاظ العامة واصطلاحاتهم التي لا أصل لها في العربية ، وإنما ولّدها أهل الحواضر والأمصار .

وعُني التبريزي في شرحه - لشعر أبي تمام من منظور لغوي - ببيان ما جاء في

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة «كَشَخَ» .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٥٨٢ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ١٢ .

(٦) انظر : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٤٧١ .

ألفاظ الطائي موافقًا لبعض لغات القبائل ولهجاتهم ، ونبه إلى أن هناك ألفاظًا أفصح من غيرها ، مستدلاً بكلام العرب الفصحاء ، وأقوال اللغويين والنحاة ، فنجده في أحد أبيات المقطوعة التي مدح بها أبو تمام أبا الحسين موسى بن عبد الملك الصالحي :

ما يُبَالُونَ إِذَا ما أَفضَلُوا ما بَقِى مِنْ مالِهِمْ أَوْ ما هَلَكْ

يقول : " إن كان استعمل لغة طيء فهي « بَقَا » في لفظ الألف على وزن « رَحَا» وإن كان استعمل اللغة الأخرى ، وهي أضعف اللغتين ، فقد ألفتها العامة وكثرت في أشعار المحدثين ، وهي في الشعر الأول قليلة " [١] .

واستعمال أبي تمام لغة طيء أمر مقصود غالباً للتأكيد على طائيته التي كان يلمزه بها بعض معاصريه . ونشير إلى أن قبيلة طيء تقول بَقَى وبَقَتْ مكان بَقِيَ وبَقَيتْ، وكذلك لغتهم في كلّ ياءٍ انكسر ما قبلها ، يجعلونها ألفًا نحو بَقَى ورَضَى ، وفَنَى [٢] .

وعن موافقة بعض ألفاظ أبي تمام للغة قبيلة ربيعة أشار التبريزي إلى لفظة : «لبوة» الواردة في :

أَخَذْتَها لَبْوَةَ العرِّيس مُلْبِدَةً في الغَابِ والنَّجْمُ أَدْنَى مِنْ مَنَاكِحِها

وذكر أن اللغة الفصيحة « لَبُؤَة » على مثال سَبُعة ، " ويجوز أن تجعل همزتها واواً؛ لأنها مفتوحة وقبلها ضمة فتقول : لَبُوَة ، ويجوز أن تُسكَّن بعد ذلك على لغة ربيعة فيقال : لَبْوة ، والعامة تستعملها على هذا اللفظ " [٣] .

والعرب إذا أكثرت من استعمال بعض الألفاظ ، فإنها تميل بها إلى التخفيف والتسهيل، ولذلك ذكر التبريزي أن أبا عمر الجرمي زعم أنهم يقولون في « عجائز » عجايز بياء خالصة ، وإن كان سيبويه لا يجوّز ذلك [٤] .

وألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب ، وإليها مفزع حُذَّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ، لذا فإن التبريزي يشير إلى بعض ما خالف فيه أبو تمام صيغ القرآن ،

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٤٥٥.

(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة «بقي» .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤١ .

من ذلك ما جاء في قوله:

وأَرَاكَ تَدْفَعُ حُرْمَتي فلَعَلَّني ثَقَّلْتُ غَيْرَ مُؤَنِّبٍ فأُخَفِّفَا !؟

فنبه إلى أن " الأكثر في كلامهم « لَعَلِّي » وهي اللغة التي جاء به القرآن الكريم ، وربما قالوا لعلّني ، قال الشاعر :

أريني جَوَادًا ماتَ هُزْلاً لَعلَّني أُرَى مَا تَرَيْنَ أَو بَخِيلاً مُخَلَّدًا"[١]

وكذلك حين جمع أبو تمام « زُبْرة » على « زُبْر » في البيت :

فَطحْطحتُ سَدًّا سَدُّ ياجُوج دُونَه مِنَ الهمِّ لَمْ يُفرَغْ على زُبْرِه قِطْرُ

قال : "جمع « زبرة » على « زُبْر » وذلك غير معروف ، وإنما يقال ، زُبْرَة وزُبَر ، وكذلك جاء في القرآن " [٢] .

ونجد التبريزي أحيانًا يذكر عددًا من اللغات في نُطْق لفظة واحدة ، فهو - مثلاً - يذكر في « الباءة » أربع لغات هي : الباءة ، والباهة ، والباء ، والباه . [٣] وفي « وَجْنة » ثلاث لغات « وَجْنَة ، ووِجْنَة ، ووُجْنَة . [٤] وذكر أيضًا أن في « دَدٍ » بمعنى اللهو لغات : « دَدٌ» مثل دَم ، و « ددًى » مثل رحى ، و « دَدَنٌ » مثل شطن ، تكون نونه أصلية [٥] .

ونستنتج مما تقدم أن التبريزي قد أخذ ببعض مبادىء المنظور اللغوي في شرحه لشعر أبي تمام ، ففرّق بين القياس والاستعمال ، وحاول أن يطبق بعض ذلك على ألفاظ شعره، فجعل منها ما هو صحيح القياس كثير الاستعمال في كلام العرب [٦] . وهو أكثر لفظه ، ومنها ما هو صحيح القياس لكنه قليل الاستعمال ، وذلك مثل جمعه «حوباء» على « حوباوات » ومنها ما استخدمه الشاعر على الدلالة المتطورة التي توسعت بها العرب في اللفظة [٧] .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٤٧٦ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٥٦٩ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٤٦ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٧٥ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٤٢٤ .

(٦) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٦١ .

(٧) انظر : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٥٥٠ .

كما أشار التبريزي إلى أن بعض ألفاظ شعره شاذ ، وقد تردد فيه « الشآم » على وزن "فعال" ، وقد جاء ذلك في الشعر القديم إلا أنه شاذ [١] . وذكر أيضًا أنه ربما اشتق الطائي بعض ألفاظه من أصول كلمات مهملة . من ذلك « يَرمْرَم » المشتقة من « اليَرَم » وهي كلمة مهملة ، ويجوز أن تكون فيما فقد من المسموع [٢] . وقد يذهب الطائي إلى أبعد من ذلك فيأتي بما لم يستعمل مثله ، فقوله : « أَدْهَم فيه كُمْتَة » لم يُستعمل مثله ، لأنهم لم يقولوا أَدْهَم كُمَيْت [٣] . ونعتقد - بعد هذا كله - أن موقفه من المعجم اللغوي للشاعر كان يدور على فصاحة اللفظة ، ومدى جريانها على العرف العربي الصحيح المستعمل ، دون النظر إلى السياق الذي اقتضاها في أغلب الأحوال . وهذا يدل على مدى عمق المنظور اللغوي الذي يستعين به في شرح شعر أبي تمام .

❁ ❁ ❁

المنظور النحوي : وظف التبريزي - في شرحه لديوان أبي تمام - الدرس النحوي أساسًا لتوضيح المعنى، فهو غالبًا ما يربط بين التوجيه الإعرابي والدلالة الكامنة في اللفظة ، أو التركيب ، ومن ثم المعنى العام للبيت الذي هو بصدد شرحه . وقبل أن نفصّل ذلك ، تجدر الإشارة إلى أن الذين ترجموا لسيرة التبريزي لم يقطعوا بتحديد مذهبه النحوي الذي التزمه في شروحه ، ولعل ذلك يعود إلى كثرة تنقّله - في معالجته للمسائل - بين آراء المدارس النحوية المختلفة ، وإلى نقله المباشر عن عدد من العلماء ينتمون في مذاهبهم ونزعاتهم إلى مدارس متعددة . غير أن فخر الدين قباوة قد رجّح ميله إلى المدرسة البصرية ، ولم يستبعد أن يكون ذا نزعة بصرية لكن لم تصل به إلى مرحلة الاعتناق ، والتأييد المطلق ، واستند في رأيه هذا على أمرين :

الأول : إن شيوخ التبريزي كانوا بصريين ، كالفضل القصباني وابن برهان ، وليس فيهم من الكوفيين أحد .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٥٤

(٢) انظر : المصدر السابق : جـ ٤ ، ص ١١٧ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ .

والآخر : إن أكثر العلماء الذين اعتمدهم التبريزي في مصنفاته ، أو نقل عنهم بعض شروحه ، من أنصار المذهب البصري ، كأبي عمرو بن العلاء ، والخليل ، وسيبويه ، والآمدي ، والمرزوقي وغيرهم [١] . وذهب باحث آخر إلى أن التبريزي بصري المذهب بوجه عام ، وإن اعتمد اصطلاحات الكوفيين ونقل عن شيوخهم أمثال : الكسائي ، والفراء ، وثعلب ، وابن الأنباري [٢] . والذي يبدو أن هدف التبريزي في الآراء النحوية كان منصبًّا في المقام الأول على ما يخدم غرضه في الشرح ، وبما يناسب السياق ، فهو يهدف في أغلب الأحوال من التوجيه النحوي إلى الوصول إلى المعنى الشعري في البيت ، فلم يلتزم بمذهب محدد إلاّ بالقدر الذي يخدم غرضه في المسألة المطروحة .

وقد سبقنا إلى هذه الملاحظة فخر الدين قباوة ، فعلى الرغم من اضطرابه في الحديث عن مذهبه النحوي فإنه ذكر أن التبريزي "لا يمثل تأييد مدرسة دون أخرى ، وإنما همه دراسة المسألة التي يعرض لها ، وإبداء الحكم فيها ، أكان ذلك نصيراً للكوفيين أم للبصريين أم للبغداديين أم لكل مذهب" [٣] ، ومن هنا كثيراً ما نجد التبريزي يعرض آراء البصريين والكوفيين في المسألة الواحدة دون ترجيح ، ومن أمثلة ذلك عرضه لآراء البصريين والكوفيين في شرحه لهذا البيت :

نِعَمٌ إِذَا رُعِيتْ بِشُكْرٍ لَمْ تَزَلْ نِعَمًا ، وإِنْ لم تُرْعَ فهْيَ مَصَائِبُ

ذكر أن "قياس النحويين البصريين يوجب ألا تهمز «المصايب» ، وأن يقال «مصاوب» بالواو ، لأنها من صاب يصوب ، وقد حكى بعض العلماء « مصاوب » و «مصايب» بالواو والياء . . إلا أن الكوفيين يسهّلون الهمز في مثل هذا الموضع على التشبيه ويجعلون الأصلي كالزائد ، ويشبهونه « بصحايف » . . . " [٤] .

---

(١) انظر : فخر الدين قباوة : منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات ، ص ٢٤ - ٣١ .

(٢) انظر : د . عبد الحسين الفتلي : النحو عند التبريزي في شرح القصائد العشر ، المورد - العدد الأول ، المجلد السادس عشر - ربيع ١٩٨٧ ، ص ١٠٥ .

(٣) فخر الدين قباوة : منهج التبريزي في شروحه ، ص ٢٩ .

(٤) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٧٥ .

وحين وردت « أنْ » بعد « كاد » في مواطن من شعر أبي تمام ، كما في قوله :

كادَ أَنْ يَكْتُبَ الهوى بَينَ عَيْنيـ ـهِ كِتَابًا هَذا حَبِيبُ حَبِيبِ

نبه التبريزي أن دخول « أنْ » بعد « كاد » ضرورة عند البصريين ، بينما يذهب الفراء إلى أن أصل «كاد» يجيء بعدها « أن » [١] ، وكرر هذا كلما تكررت المسألة .

ويلاحظ أن الخطيب في معالجته لبعض القضايا النحوية قد جعل سيبويه ممثلاً لآراء مدرسة البصرة ، والفراء ممثلاً لمدرسة الكوفة ، فاعتمد آراءهما في بعض المسائل النحوية التي عرض لها .

وفي حديثه عن استعمالات « قَدْ » ذكر أنه "يقال قدك يا رجل وقدني . . . وعند النحويين أن النون دخلت لتبقى الدال على سكونها ، وربما قالوا قدى ، والفراء يجيز ذلك في غير الضرورة ، وسيبويه يجعله من الضرورات . . . " [٢] .

وقد أدرك أبو زكريا أهمية ذكر الإعراب وما يتعلق به من توجيهات في شرح شعر الطائي ، فحاول - في الغالب الأعم - أن يجعل تناوله للمسائل النحوية إسهامًا في إيضاح المعنى وكشف غامضه ، وقد بدأ في مواطن متفرقة من شرحه بالإعراب قبل أن يفسر الألفاظ ، أو يشرح المعنى . وربما انصرف في شرحه لبعض الأبيات إلى مناقشة مسألة نحوية في البيت ، ويطيل الحديث عنها ، ثم لا يعرض لتفسير الألفاظ أو شرح المعنى إلا بشكل عابر ومبتسر ، بل إنه لا يورد في بعض الأبيات التي وقف عندها إلا الوجوه الإعرابية المحتملة في البيت ، ولعل من أمثلة ذلك اقتصاره على الإعراب - وحده - دون غيره من العناصر في هذا البيت :

فَلاَ تَحْسَبَا هِنْدًا لَهَا الغَدْرُ وَحْدَهَا سَجِيَّةَ نَفْـــسٍ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ

« ويروى : سَجيَّةُ نفسٍ . . . » .

فالرفع : على أنه مبتدأ ، وخبره : سجية نفسٍ ، والمبتدأ والخبر : في موضع

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

المفعول الثاني ، والنصب : على أن يكون بدلاً من قوله «هندًا» ويكون « سجية نفسٍ » مفعولاً ثانيًا " [١] .

إن تغيّر العلامة الإعرابية في الكلمة المفردة - سواء كان بسبب اختلاف الرواية ، أو اختلاف التأويل النحوي - يؤدي إلى اختلاف الوظيفة النحوية فيها «الخبرية ، الفاعلية المفعولية . . . » ، وتبعًا لذلك فإن تحديد المعنى الشعري يكون ذا علاقة وثيقة بالتوجيه الإعرابي في البيت المشروح ، لذلك نجد عبدالقاهر الجرجاني يؤكد " أنك إن قدّرت في بيت أبي تمام :

لُعابُ الأَفَاعي القَاتِلاتِ لُعابُهُ وأَرْيُ الجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ

أن «لعاب الأفاعي» مبتدأ و «لعابه» خبر كما يوهمه الظاهر ، أفسدت عليه كلامه ، وأبطلت الصورة التي أرادها فيه ، وذلك أن الغرض أن يشبّه مِداده بأَرْي الجَنَى ، على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات أوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها وأدخل السرور واللذة عليها . وهذا المعنى إنما يكون إذا كان لعابه مبتدأ ، ولعاب الأفاعي خبرًا ، فأما تقديرك أن يكون « لُعابُ الأَفَاعِي » مبتدأ و « لعابه » خبرًا فيبطل ذلك ويمنع منه ألبتة ، ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أن يكون مرادًا في مثل غرض أبي تمام " [٢] .

لقد حرص التبريزي على أن يضع - في الشرح - ما أمكنه من الوجوه الإعرابية المحتملة في البيت ، وأن يذكر المعاني المتعددة والمختلفة مع كل توجيه محتمل ، ففي مطلع القصيدة التي مدح بها أبو تمام إسحاق بن إبراهيم :

أَصغَى إلى البَيْن مُغْتَرًّا فَلا جَرَما أَنَّ النَّوَى أَسأَرَتْ في قَلْبه لَمَمَا

ذكر أن في «أصغى» ضميرًا ، والمعنى : أصغى المُحبُّ ونحو ذلك ، ثم أجاز أن يرفع «مُغْتَرًّا» على أن يكون هو الفاعل ، ويُخْلى «أصغى» من الضمير ، غير أن المعنى

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٨١ .

(٢) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ت : محمد رشيد رضا ، ط : دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ٢٨٤ .

على الوجهين مختلف ، فإذا جعلت «مغترًا» فاعلاً ، فالمعنى أنه اغترّ بالبين أو بالحب ، وإذا جعل مفعولاً ، فالمعنى أنه اغتُر فهو مُغتر ، فيتعدى إليه الفعل ، كما قال الشاعر :

أَنَاخَ بِهِ الشَّيْبُ أَثْقَالَهُ وما اغتَرَّه الشَّيبُ إلاّ اغْتِرَارَا [١]

ومن شرح المرزوقي للبيت الذي يليه يمكن أن يترجح التوجيه الإعرابي الأول ، ذلك أن القوم كانوا يتشاورون في الارتحال ، ويتناجون به ، وكان الشاعر غافلاً عما هم فيه مغترًا بما حصل له من الحب والوصال ، فاتفق أن أصغى إلى نجواهم فأحدث في عقله خوف النوى والفراق خبالاً ، وفي أذنه صممًا ، وفي جسمه سقمًا [٢] .

ولم يكتف التبريزي بعرض الوجوه الإعرابية في المسألة النحوية كما جاءت عند الشراح السابقين دون مشاركة منه ، بل نجده في مواضع من شرحه يناقش الشُرَّاح في بعض المسائل النحوية ، ويعبّر عن رأيه ، ويفاضل بين بعض التوجيهات الإعرابية لاختيار التوجيه الأقرب إلى مقصود الشاعر ، مدعمًا موقفه بأقوال النحاة وآرائهم . فقد نقل التبريزي عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن الخطيب شرحه لمطلع القصيدة التي مدح بها أبو تمام أبا العباس نصر بن منصور بن بسام :

أأطْلاَلَ هِنْدٍ ساء ما اعْتَضْتِ مِنْ هِنْدِ أَقايَضْتِ حُورَ العِينِ بالعُونِ والرُّبْدِ

"أي حور العين من الناس ، بالعين من بقر الوحش . وقال بعضهم : أضاف «الحور» وهو الموصوف ، إلى «العِين» وهو صفته ، وهذا خطأ ؛ لأن الشيء لا يُضاف إلى صفته، إذا كان في ذلك إضافة الشيء إلى نفسه " [٣] .

ذكر التبريزي أن هذا الذي أنكره ، يقول به كثير من النحويين ، ومما حُكي فيه أن أبا سعيد قال : سألني أبو دلف عن بيت امرىء القيس « كبِكْرِ المُقَاناةِ » فقال : أخبرني عن « البكر » أهي المقاناة أم غيرها ؟ قلت : لا بل ، هي هي ، قال : أفيضاف الشيء إلى صفته ؟ قلت : نعم ، قال : ومن أين قلت ذلك ؟ قال : قلت قال الله جلَّ وعزَّ :

---

(١) انظر :التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٦٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٦٦ .

(٣) نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٩ .

﴿ولدارُ الآخِرة﴾[١] فأضاف «الدار» إلى «الآخرة» والدار هي الآخرة بعينها ، والدليل عليه أنه قال في سورة أخرى " ﴿والدَّار الآخِرة﴾[٢] ، وهذا دليل على ما قلت ، فقال : أريد أشفى من هذا ، قلت : قال جرير :

يا ضَبُّ إنَّ هَوَى العُيُونِ أضلَّكم كضلالِ شِيعةِ أَعْوَرِ الدَّجال

فأضاف «أعور» إلى «الدجال» وهو هو ، فقال : هذا قد اشتفيت به» [٣] .

والبصريون يدفعون هذا الذي قَدّر ، ويقولون الشيء لايضاف إلاّ على أحد الوجهين : إضافة الشيء إلى غيره ، وإضافة البعض إلى كله ، فقولهم : مسجد الجامع : يريدون مسجد الوقت الجامع ، ولدار الآخرة ، أي ولدار الساعة الآخرة ، وعندهم أن الإضافة يراد بها التعريف والتخصيص ، والشيء لا يتعرف بنفسه ، أما الكوفيون فذهبوا إلى أنه يجوز إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظان ، واحتجوا على ذلك بما جاء في كتاب الله وفي كلام العرب [٤] .

كذلك كان التبريزي حريصًا على بيان سلامة التركيب ، وحسن استقامته في الأبيات التي عرض لها ، فهو يختار رأيًا وسطًا في « همزة بين بين » حين أدخل أبو تمام همزة الاستفهام على ألف الوصل ، التي مع لام التعريف في «الإسلام» من قوله :

تاللَّهِ نَدْري : أَالإِسْلامُ يَشْكُرُها مِنْ وَقْعَةٍ أَمْ بَنو العَبّاسِ أَمْ أُدَدُ

وهم في مثل هذا يمدون مَدةً تقوم مقام الحرف ، لِيُفرِّقوا بين الاستفهام والخبر ، فإن خلصت المدة صار جمعًا بين ساكنين في حشو البيت ، وهذا عند البصريين غير جائز ، وذكر أن قطع همزة الوصل في مثل هذا الموضع قليل . بينما يرى أن أحسن من ذلك كله أن تجعل الهمزة « بيْن بيْن » لا مَدّة ساكنة ، ولا همزة مخففة " [٥] .

---

(١) سورة يوسف : آية ١٠٩ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٦٩ .

(٣) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) الأنباري : الإنصاف في مسائل الخلاف ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٥) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ١٩ .

وتجدر الإشارة إلى أن الكوفيين يعدّون هذه الهمزة همزة ساكنة ، فلا يجوز أن تقع مبتدأة . والذين ذهبوا إلى التخفيف في الهمزة هم أهل الحجاز ، وهو اختيار أبي عمرو، بينما هي عند البصريين متحركة لا غير [١] .

أما استشهاده على العلامة النحوية وربطها بالمعنى فيتضح من خلال الشواهد الكثيرة التي عرضها في كتابه ، ليعزز بها ما ذهب إليه من إعراب . وقد شملت شواهده - كما ذكرنا سابقًا - فنون القول العربي القديم شعره ونثره ، وكانت آيات القرآن الكريم تمثل النموذج الأعلى في شواهده ، فنجده يستشهد بعدد من الآيات في مسألة واحدة ، من ذلك ما جاء في شرحه لقول الطائي من القصيدة التي مدح بها المعتصم وذكر فتح الخرميّة :

فَرماهُ بالأَفْشِين بالنَّجمِ الذي صدَع الدُّجَى صدْع الرِّدَاءِ البَالِي

حيث ذهب إلى أنه جاء بالباء في قوله « بالنجم » ، لأنه جعله واقعًا موقع البدل . ثم ذكر أنه إذا كان المبدل منه مخفوضًا ، جاز أن يجيءَ البدلُ وقد حذف منه حرف الخفض ويحتمل أن يعاد معه . واستشهد على ما حذف منه الحرف بقوله تعالى : ﴿يَسألونَك عَن الشهرِ الحَرَام قِتَالٍ فيه﴾[٢] ، حيث لم يعد حرف الخفض مع «القتال» ، واستشهد على ما أعيد فيه الخافض بقوله تعالى : ﴿قَال الملأ الذين استَكبروا مِنْ قَومه للذين استُضعِفُوا لِمَن آمن مِنهم﴾ [٣] . فأعاد اللام مع « مَنْ» وهما بدل من قوله تعالى ﴿للذين استضعفوا﴾ [٤] .

هذا ، وإن كان التبريزي قد أفاد من بيان الوظيفة النحوية في توضيح معنى البيت أو عوّل على المعنى في تحديد الوجه الإعرابي ، فإنه في مواضع أخرى من كتابه اهتم بالقياس وأعلى من شأنه ، وفرق بينه وبين الاستعمال ، ظهر ذلك فيما تعقب به الشاعر من ملاحظات نحوية ، كان فيها أبو تمام مخالفًا للقياس ، أو الاستعمال الشائع من أساليب العرب ، وكان التبريزي في أغلب شرحه يحاول جاهدًا أن يجد له مخرجًا على

---

(١) انظر : ابن يعيش : شرح المفصّل ، جـ ٢ ، ص ١٢٠ ، ابن الأنباري : الإنصاف في مسائل الخلاف ، جـ٢ ، ص ٧٢٦ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢١٧ .

(٣) سورة الأعراف ، آية ٧٥ .

(٤) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

وجه من وجوه الإعراب الجائزة . وهذا ما يؤكد عُمق منظوره اللغوي وموضوعية منهجه.

وفي القصيدة التي هجا فيها أبو تمام عتبة بن أبي عاصم - شاعر أهل حمص- أثبت التبريزي شرح أحد أبياتها وهو :

قَوْمٌ تَراهُمْ حينَ يَطْرُقُ مَعْشَرٌ   يَسْمُونَ للخَطْبِ الجَليلِ فيُطْرِقُ

ثم ذكر أن بعضهم يرويه "يَسْمونَ لِلْخَطْبِ الجَليْلِ فَيَصْدُقُوا" ، ثم قال : لحن في قوله « فيصدُقوا » وكان يجب أن يقول « فيصدقون» ؛ لأنه موضع رفع لا موضع نصب ولا جزم ، وهنا يفسح التبريزي المجال لأبي علي المرزوقي ليتولى الدفاع عن الطائي ، ورفع الظلم عنه ، فيذكر أن ما قاله الشاعر هو الرواية الأولى فبدّل الراوي لفظه ثم لحّنه، على أن لما رواه وجهًا يسلم فيه من اللحن وهو أن يجعل « يَصْدُقُ » فعلاً «لِلْخَطْب» والمعنى إذا سموا للخطب الجليل صدق لهم وصار خطة صدق [١] .

ومن الظواهر التي ترددت في شعر الطائي ذكر الضمير قبل الاسم الذي يرجع إليه ، وقد سبق أن أوردنا ردّ التبريزي على الآمدي حين عابه في قوله "هنّ عوادي يوسف" ونذكر هنا أن التبريزي قد وقف على هذه الظاهرة اللغوية في أماكن كثيرة من كتابه ، ونبّه إلى أنها عربية ، غير أنها قليلة [٢] . ومما أضمر فيه أبو تمام قبل الذكر ودلّ عليه التبريزي قوله :

بِكَ عَادَ النِّضَالُ دُونَ المَسَاعِي   وَاهْتَدِيْنَ النِّبَالُ لِلأغْرَاضِ [٣]

وقوله :

لَتَكَاءدْنَني غِمَارٌ منَ الأَحْـ   ـدَاث لَمْ أَدْرِ أَيُّهنَّ أَخُوضُ [٤]

ولا يعد المرزوقي وأبو العلاء المعري ما اتصل بالفعل في هذه الأساليب ضمائر ، بل هي علامة مؤذنة بالجمع أو التثنية أو التأنيث ، فالنون في « فاصطحبن فضولها » عند المرزوقي لم تجيء للضمير ، وإنما هي علامة تؤذن بالجمع ، كالتاء في قامت هند ، «واصطحبن» هي روايته كما نقل عنه ذلك التبريزي في شرحه لقول أبي تمام :

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٣٩٧ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٣ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣١٣ .

(٤) نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ .

أَغْرَتْ هُمومي فاسْتَلَبْنَ فُضُولُها نَوْمِي ، ونِمْنَ على فُضُولِ وِسَادِي[١]

كذلك حين وقف في شرحه على هذا البيت :

شَجًا في الحَشى تَرْدَادُهُ لَيْسَ يَفْتُرُ به صُمْنَ آمَالِي وإنِّي لَمُفْطِرُ

ذكر ما لاحظه المعري من أن الطائي كان يميل إلى إظهار علامة الجمع في الفعل ، مثل قوله « صمن آمالي » ولو قال « صام آمالي » لاستقام الوزن ، وقد جاء في شعره مثل ذلك ، وهو على منهاج قول الفرزدق : « يعصرن السليطَ أقاربُه »[٢] وسيبويه يذهب إلى أن هذه الحروف لها حالتان : حال تكون فيها أسماء وذلك إذا تقدمها ظاهر نحو قولك « الزيدان قاما » ، فالألف في قاما اسم وهو ضمير ، أمّا إذا قلت « قاما الزيدان» فالألف في قاما علامة مؤذنة بأن الفعل لاثنين[٣] .

وجملة القول أنه سيطول بنا الحديث إن أوردنا كل ما وقف عليه التبريزي في كتابه من مسائل نحوية أو توجيهات إعرابية عرضها بتمكن وبسط القول فيها ؛ وذلك لأن غرضه التعليمي كان يملى عليه أن يفصّل لطلابه معظم ما يصادفه من الظواهر النحوية في شعر الطائي ، فاستطرد في كثير من التفريعات التي قد لا يكون لها أدنى علاقة بإعراب البيت الذي هو بصدد شرحه . وبرز عمله في فهمه العميق لأصول الصناعة النحوية ، إذْ كان في مواضع من شرحه يفرق بين الاستعمال والقياس في التوجيه الإعرابي ، ويعلل باستعمال الكثرة ، وينبه إلى مَا نَدّ عن القياس ، أو إلى ما لم يكن له مثيل في كلام العرب ، كما أنه في مناقشاته وتعليلاته النحوية كان يستخدم بعض المصطلحات النحوية التي عرفت لها أسماء أخرى فيما بعد . من ذلك إطلاقه « اسم ما لم يسم فاعله » على نائب الفاعل[٤] ، أو « حروف الخفض » على حروف الجر[٥] ، أو « المنصوب على المصدر » على المفعول المطلق[٦] ، أو المنصوب على التفسير » على التمييز[٧] ، إلى غير ذلك .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ .

(٣) انظر : ابن يعيش : شرح المفصل ، جـ ٧ ، ص ٧ .

(٤) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٦) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨١ .

(٧) انظر : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٥٤٦ .

هكذا نجد التبريزي في كتابه قد وظف الجانب النحوي في خدمة المعنى ، وكان اهتمامه بالوجوه الإعرابية المختلفة محاولة جادة في الوصول إلى المعنى الأفضل والأدق . وذلك تبعًا لما تقتضيه التراكيب من الدلالات النحوية التي ينبثق منها الضوء في الكشف عن المعنى الشعري في الأبيات . وبناء على هذا فإن المنظور اللغوي يعد محوراً مهمًا من محاور شرح البيت لديوان أبي تمام وغيره من الشروح التي تصدى لها .

ثالثًا : المنظـور البلاغـــي والنقـــدي

لفت انتباه التبريزي - حين نظر إلى الشروح السابقة - مدى اعتماد الشُرَّاح على ما تقدّمه علوم اللغة من إسهامات في تحليل الشعر وتوضيح معناه ، فحرص على أن ينقل لطلابه وقرّاء كتابه - فيما بعد - خلاصة ما وجد في تلك الشروح . ثم أضاف إليها بعض ما جادت به قريحته ، وتفتّق به ذهنه من مسائل لغوية ونحوية أو لمحات بلاغية ونظرات نقدية ، أو قصص وأخبار تاريخية ، أو ما من شأنه أن يعين على فهم الشعر ويبين عن مقصود الشاعر .

وبعد أن وضحنا مدى إفادته من مجال اللغة والنحو واستخدامه لهما في تفسير شعر أبي تمام ، نفصّل الحديث عن كيفية استعانته بما تقدمه المباحث البلاغية والمعايير النقدية - في عصره - من مصطلحات ونظريات ، تسهم في الكشف عن بعض الأسرار البلاغية في شعر الطائي ومواطن الإبداع فيه .

المنظـور البلاغـي : لم يكن يخفى على التبريزي ما للعناصر البلاغية والصور الفنية من دور في وضوح الشعر أو غموضه ، وما للصياغة الأسلوبية من أهمية في إبراز المعنى ووضوح الدلالة ، لذا نجده يعرض في شرحه لأهم العناصر البلاغية ، والصيغ الأسلوبية التي تكشف عن بعض القيم التعبيرية والتصويرية في شعر أبي تمام .

ومن أهم ما وقف عليه التبريزي في شرحه من تلك العناصر : الاستعارة ، والتشبيه ، والكناية ، والمبالغة ، والجناس ، والطباق ، والمقابلة ، والتصدير ، والالتفات ، وغيرها . كان أبو تمام شاعرًا مولعًا بالاستعارة مسترسلاً فيها ، حتى كأنه - كما ذكر ابن سنان - "يعتقد أنّ الحسن في الشعر مقصور عليها ، فيورد منه لأجل التكلف ما لا غاية لقبحه ، ويسعده الخاطر في بعض المواضع فيأتي بالعجائب والغرائب" [١] ، ومن أجل ذلك فاقت عناية التبريزي بدراسة الاستعارة جميع العناصر البلاغية الأخرى، فأشار إليها فيما يزيد عن خمسين موضعًا [٢] ، فضلاً عن الاقتباسات الكثيرة ،

---

(١) ابن سنان : سر الفصاحة ، ص ١٣٥ .

(٢) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٢ ، ١٦٤ ، ٢٠٤ ، ٢٢٤ ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ ، ٢٥٥ ، ٣٨٦ ، جـ٣ ، ص ١٩٧ ، ٢٥٥ ، ٣٨٦ ، جـ ٤ ، ص ٣٣ ، ١٠١ .

والنقول الجمة من الشُرَّاح السابقين ، وخاصة من أستاذه أبي العلاء المعري ، ومن المرزوقي ، والصولي .

ومن الاستعارات التي نبه عليها ولم ينقلها عن غيره ، ما جاء في شرحه للقصيدة التي مدح بها أبو تمام مالك بن طوق التغلبي حين عُزِل عن الجزيرة ، ومطلعها :

أرْضٌ مُصَرَّدَةٌ وأُخرى تُنْجَمُ مِنْها التي رُزِقَتْ وأُخرَى تُحْرَمُ

حيث استعمل الطائي الاستعارة في هذه الأبيات المتوالية :

مَهْلاً بني عَمْرِو بن غَنم إنكم هَدَفُ الأَسِنَّة والقَنَا يَتَحَطَّمُ

المَجْدُ أَعنَقُ والدِّيارُ فَسيحَةٌ والعِزُّ أَقعَسُ والعَدِيدُ عَرَمْرَمُ

ما مِنْكُمُ إلاَّ مُرَدَّى بالحِجَا أَو مُبْشَرٌ بالأَحْوَذِيَّةِ مؤْدَمُ

فأشار التبريزي إلى أنه في البيت الأول " استعار « الهدف » للأسنة ، وإنما يعرف في السهام ، وذلك شائع " (١) .

لقد جعل الشاعر « الهدف » للأسنة - جمع سنان - على سبيل الاستعارة المكنية ، وهو في الحقيقة للنبال ، التي يرمى بها في اتجاه الهدف ، بينما يستخدم الرمح في الطعان ، وقد جاء في اللسان : " سنان الرمح حديدته لصقالتها وملاستها . . وسننت فلانًا بالرمح إذا طعنته به " (٢) وإعطاء أبي تمام الألفاظ معاني غير المعاني الأصلية الشائعة بين الناس جعل التبريزي يصرّح بأن " المستعار في شعره على وجوه كثيرة فيها ما يُعرف ويَبعُد ، وهذا من أقربها متناولاً " (٣) .

وفي البيت الثاني استخدم أبو تمام أسلوب التشخيص في عرض الصورة فجعل «المجد» طويل العنق ، وجعل « العزّ » أقعس الصدر ، للدلالة على طول المجد وامتداده ، وثبات العزّ وتمكّنه ، فذكر التبريزي أنه "استعاره من قولهم رجل أعنق . . . وأصل

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٩٧ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب : مادة «سنن» .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٩٧ .

القعس دخول الظهر وخروج الصدر ، وإنما يتقاعس الرجل إذا أراد أن يتشدّد ويجتذب قوة لنفسه ، فكثر ذلك حتى قالوا : عزّ أقعس ، أي شديد ، قال الشاعر :

فاحْدَبْ إذا قَعِسُوا وإقْعَسْ إذا حَدِبُوا ووَازِن الشَّر مِثْقالاً بمِثْقالِ

ويقال تقاعس الرجل إذا تباطأ عن الأمر ، وإن لم يكن ثَمَّ قعْس في الخلقة . فكأنهم أرادوا بالعِزّ الأقعس : الثابت البطيء الزّوال " (١) .

وفي البيت الثالث يصف الطائي الرجل من قوم مالك بن طوق بلين البشرة وصلابة الأدَمة ، إذ يقال للرجل إذا وُصف بالكمال إنه « مُبْشَر مُؤْدَم » وذكر التبريزي أن " أصل ذلك في الأديم ، ثم استعير في الناس ، و« البشرة » باطن الجلد - في القول الغالب - و« الأدمة » ظاهره ، وقال قوم « البشرة » لما ظهر . وهذان القولان متقاربان؛ لأنه يجوز أن يستعار أحد الاسمين للآخر من أجل المقاربة " (٢) .

ويلاحظ من النماذج السابقة أن التبريزي حاول أن يحلل الاستعارات الواردة في شعر الطائي ، وأن يذكر بعض العلل الفنية ، والخصائص الأسلوبية في الألفاظ ، أو العبارات التي استعملها استعمالاً مجازيًا . وهو في أغلب مواقفه يدافع عن استعاراته ، ويلتمس له الأعذار في استعارته بعض ما تعمق فيه وأغرق . بل إنه أحيانًا إذا وقف على استعارة قد جاء بها غريبة وغير مألوفة ، عدّ ذلك زيادة منه وابتكارًا يلائم أسلوبه الشعري ، وهو في هذا يجاري أستاذه أبا العلاء المعري ، الذي طالما برر استعارات أبي تمام ، فنقل التبريزي بعض عباراته ، وكررها في مواضع من كتابه ، وفي شرحه لهذا البيت :

عُرْفٌ غَدَا ضَرْبًا نَحِيفًا عنده شُكْرُ الرِّجالِ وإنَّهُ لَجَسِيمُ

أشار إلى أنه " استعار « الضَّرْب » للعرف ، ولم يُستعمل ذلك قبل الطائي " (٣) .

وفي موطن آخر ذكر أن الطائي ربما قصد بـ«جناح السُّموّ» في قوله :

كيْفَ يُضْحِي برأسِ عَلْيَاءَ مُضْحٍ وجَنَاحُ السُّموِّ مِنْهُ مَهِيضُ ؟

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٩٨ .

(٣) نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٩٢ .

أن يكون المعنى واقعًا على ما قصده المتكلم من شيء ، وإن اختلفت الأشياء ، وليس المقصود الجناح الذي يوصل به إلى السمو ، وعلى هذا يكون «جناح السمو» مستعارًا على ما جرت به عادة الطائى " [١] ويقصد بالعادة ما كان من إغرابه في الاستعارة التي عدها الآمدي حين استعرض طائفة منها في كتاب « الموازنة » خروجًا على تقاليد العرب الذين استخدموا الاستعارة " فيما يقارب المشبّه ويدانيه أو يُشْبهه في بعض أحواله ، أو يكون سببًا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذٍ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه " [٢] .

وموقف الآمدي هذا لم يعجب أستاذنا شوقي ضيف الذي يرى أن " التبريزي كان أكثر دقة من الآمدي حين قال إن أبا تمام له مذهب خاص في الاستعارة . ومادامت المسألة مسألة مذهب فقد كان يحسن بالآمدي وأمثاله من النقاد المحافظين أن يخضعوا لهذا المذهب الجديد ، وأن يعرفوا أن هذا نوع آخر في الاستعارة ليس هو الاستعارة المألوفة . . . " [٣] .

ويبدو أن الآمدي كان يحاكم شعر أبي تمام بما هو خارج عن نوق عصره ، إذ أخذ يعقد المقارنات بين استعاراته وما كان يجري في كلام العرب ، ونسب كثيرًا مما خالف فيه من الاستعارات إلى القبح والرداءة والهجنة .

ومن الغريب أن نجد لدى التبريزي قدرًا من الالتباس في بعض المصطلحات البيانية ، [٤] هذا رغم أنه عاش في عصر كانت فيه المصطلحات البلاغية أكثر تميزًا ودقة . فمثلاً الاستعارة التصريحية في قول الطائي :

رأيْتُ أَحسَنَ مَرْئيٍّ وأَقْبَحَهُ مُسْتَجْمِعَيْنِ لي : التَّوْدِيعَ والعَنَمَا

عدّها تشبيهًا . قال : أراد « بالعَنَم » البنان المخضوب ، لأنه يُشبّه بالعنم وهو نبت أحمر ، وهذا على حذف آلة التشبيه ، وقال أيضًا في آخر شرح البيت : «العَنَم»

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ .

(٣) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٢٣٥ .

(٤) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٣١ ، ٤٠٦ ، جـ ٢ ، ص ١٣ ، ٧٧ .

الأصابع المخضوبة ، لأنها قد وُضِعت في موضع العنم على التشبيه [(١)] ، وصحيح أن الاستعارة مبنية على أساس التشبيه البليغ ، لكن لابد من حذف أحد طرفيه ، إما المشبه وإما المشبه به . ولا يقتصر الأمر على حذف أداة التشبيه كما عوّل عليها التبريزي حين قال : " ولأجل هذه العلة استجاز بعض أهل اللغة أن يضع الأشياء في غير موضعها " [(٢)] . وأبو تمام هنا شبه الأصابع بالعنم فحذف المشبه / الأصابع، وصرح بالمشبه به / العنم ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

وقد لاحظ أحد الباحثين اختلاط بعض المصطلحات لدى التبريزي في مؤلفاته الأخرى ، وذكر أن التبريزي نفسه " كان يشعر بهذا الاختلاط لديه ، وبعسر التمييز الدقيق الكامل ، فيحاول أحيانًا تجنيب مصنفاته مغبة ذلك ، باستخدام اصطلاح عام ، يمكنه أن يطلق حيثما كانت صورة بيانية ، ألا وهو التمثيل . . . " [(٣)] .

ومما أطلق عليه مصطلح « مَثَلْ » ما ورد من استعارة في هذا البيت :

يَاسَائِلي عَنْ خَالدٍ وفَعَالِه   رِدْ فَاغْتَرِفْ عِلْمًا بِغَيْرِ رِشَاءِ

قال : " جعل العلم به كالعين الغزيرة القريبة مَثَلاً ، أي أصغِ إليّ سمعك ، وخذْ علم ما أردت سهلاً بغير مشقة ، كمن ورد ماءً فغرف منه بيديه دون رشاء ولا دلو " [(٤)] .

فالشاعر شبه الممدوح / خالد الشيباني في غزارة علمه وتيسيره للمتعلمين بالمنهل العذب القريب ، فحذف المشبه به وجاء بصفة من صفاته ، ثم أبقى المشبه على سبيل الاستعارة المكنية ، وهذا النوع من الاستعارات هو الذي أكثر منه أبو تمام واتخذه مذهبًا له ، يعرض من خلاله صورًا حية لأفكاره العميقة ومعانيه الفلسفية . ونشير إلى أن ابن المعتز هو أول من وجه نقاد أبي تمام إلى هذا الجانب ، حين رآه يكثر من الاستعارات المكنية ويغرب فيها إغرابًا لم يعرف لشاعر من قبله " [(٥)] .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق : جـ ٣ ، ص١٦٧ .

(٣) فخر الدين قباوة : منهج التبريزي في شروحه ، ص ٢٤٨ .

(٤) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٣ .

(٥) انظر : شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ، ص ١٣٠ .

ومن الصور البيانية التي استخدمها الطائي وعرض التبريزي لبعضها في شرحه التشبيه ، حيث يذكر - أحيانًا - طرفي التشبيه ويفسر ما بينهما من علاقة ووجْه شبه .

قال أبو تمام في مطلع قصيدة يمدح بها عياش بن لهيعة ويعاتبه :

وثنايَاكِ إنَّها إغْرِيـــضُ وَلآلٍ تُـــومٌ وبَرْقٌ وَمِيـــضُ

وأَقَاحٍ مُنَوَّرٌ في بِطـــاحٍ هَزَّهُ في الصَّبَاحِ رَوْضٌ أَرِيضُ

شبّه الطائى بياض الثنايا ببياض الطَّلّع ، وشبهها في البيت الثاني بالأقاحي ، لكنّ التبريزي يرى أنَّ " الغرض في تشبيه الثغر بالأقحوان إنما هو نَوْره ، وقد كثر ذلك حتى شبّهوه بالأقاحي مطلقة لعلم السامع أن الغرض إنما هو النَّوْر " (١) .

أما إذا خالف الطائى طريقة العرب في التشبيه ، فإنه يشير - أحيانًا - إلى ما هو متعارف عليه عند العرب في التشبيه . من أمثلة ذلك ما جاء في صفة فرسٍ وهبه الحسن بن وهب لأبي تمام :

هَادِيهِ جِذْعٌ مِنَ الأَرَاكِ ومَا خَلْفَ الصَّلا مِنْهُ صَخْرَةٌ جَلْسُ

ذكر التبريزي أنّ عادة العرب أن تشبِّه هوادي الخيل بجذوع النخل لا بالأراك . لكنه لم يلبث أن لجأ إلى المعري لينقل عنه ما برر به تشبيه هوادي الخيل بالأراك . قال : وإنما اختار الطائى جذع الأراك لأنه أملس " (٢) .

وقبل التبريزي أنكر أبو العباس أحمد بن عبيد الله القطربلي هذا التشبيه على أبي تمام ، وقال : "هذا من بعيد خطأه أن شبه عنق الفرس بالجذع ، ثم قال "جذع من الأراك" ومتى رأى عيدان الأراك تكون جذوعًا ؟ أوْ تشبّه بها أعناق الخيل " (٣) .

لكنّ الآمدي ردّ على أبي العباس بعض كلامه ، وذكر أنه قد "أخطأ في إنكاره على أبي تمام أن شبه عنق الفرس بالجذع ، وتلك عادة العرب ، وهو في أشعارها أكثر من

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٣) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ١٤١ .

أن يحصى ... وأصاب في إنكاره أن تكون عيدان الأراك جذوعًا . . . ؛ لأن عيدان الأراك لا تغلظ حتى تصير كالجذوع ..." [١] .

ويبدو أن المعري كان أكثر عمقًا وأصوب تقديراً في فهم علاقة التشبيه في بيت الطائى ، حين جعل حقيقة المشابهة في الملاسة وليست في الغلظة والصلابة والاستواء ، ولعل الشاعر قد قصد - إضافة إلى ذلك - ما يحمد في بعض الخيول من طيب رائحة عرقه عقب تحريكه عنقه وسرعة انثنائه فأصبح زكي الرائحة لين العنق كعيدان الأراك .

وعندما يريد أبو تمام أن يثبت معنى من المعاني بغير لفظه الذي وضع له في اللغة فإنه يلجأ - أحيانًا - إلى أسلوب الكناية فيومئ إليه ويجعله دليلاً عليه . وقد أفصح التبريزي في شرحه عن دلالة بعض الكنايات [٢] . من ذلك ما جاء في قصيدة الطائى التي مدح بها عمر بن طوق التغلبي :

ومُنَافِسٍ عُمَرَ بنَ طَوْقٍ مَالَهُ مِن ضِغْنِهِ غَيْرُ الحَصَى والأَثْلَبِ

وقد شرحه التبريزي بقوله : " ليس لمنافسه ذي الضغن من إدراك رغبته منه إلا الخيبة ، وكنّى عن ذلك بالحَصَى والأثلب ، وهو الحصى المخلوط بالتراب " [٣] .

فنبه هنا إلى كناية الصفة التي ذكر مكانها ألفاظًا تستلزمها ، فإذا قلنا كسب منافس الممدوح الحصى والتراب ، فالمعنى أنه لم يحصل إلا على الخيبة والندامة والحسرة .

كما وقف التبريزي عند بعض الألفاظ التي استخدمها الشاعر استخدامًا مجازيًا ، محللاً ، ومبينًا المعنى الحقيقي لها ، ومستدلاً بالشعر على بعض هذه الاستعمالات المجازية ، ومثال ذلك وقوفه عند البيت الرابع من المقطوعة التي قالها أبو تمام في «سَكَن» جارية هشام :

تُعْطِيكَ مَنْطِقَهَا فتَعلمُ أَنَّه لِجنَى عُذُوبَتِهِ يَمُرُّ بثَغْرِها

حيث ذهب إلى أنه "استعمل « المنطق » في معنى النطق على المجاز ، ولو حُمِل

---

(١) الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) انظر : شرحه ، جـ ١ ، ص ٢٥ ، ٤٢٦ ، جـ ٢ ، ص ١٤١ ، جـ ٣ ، ص ٢٢٦ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

على القياس لوجب أن يكون المنطق موضع النطق أي الفم " [١] .

ولا يصح أن يكون أراد أبو تمام بالمنطق الفم - كما قدره التبريزي - وذلك لدلالة الفعل "يَمُرُّ" في الشطر الثاني عليه ، وأن الذي يمر بالثغر هو الكلام ، ولا يصح المعنى على تقدير "الفم" إذ كيف يمر الفم بالثغر ؟!

والعنصر البديعي الذي أغرم به الطائي فأكثر من استخدامه حتى كان من أبرز ملامح مذهبه ، هو "الجناس" ، وهو الذي جعل الآمدي يصرح مراراً بأن "ما أفسد شعره ، وأحال أكثر معانيه ، وخبّله ، غير عشقه للطباق والتجنيس " [٢] .

عرض التبريزي في مواضع من كتابه لنماذج عديدة من الجناس في شعره وذكر من أنواعه "تجنيس القلب" مثل قوله :

بِيضُ الصَّفَائِحِ لا سُودُ الصَّحَائِفِ في مُتُونِهِنَّ جِلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

قال : " والذين يتكلمون في نقد الشعر يسمون مجيء الصحائف مع الصفائح تجنيس قلب لأن الهجاء متساوٍ ، وإنما قدمت الفاء " [٣] .

وثمة نوع ثان أسماه "تجنيس التركيب" أشار إليه عندما وقف عند قوله :

فتىً تَراهُ فَتَنْفِي العُسْرَ غُرَّتُه يُمْنًا وَيَنبُعُ مِنْ أَسْرَارِها اليُسُرُ

قال : "فتىً تراه فَتَنْفِي" ضرب من التجنيس ظريف ، لأنه إذا قال "فتىً تراه" فنوّن كان مشابهًا لصدر قوله "فتنفي" وهو من "تجنيس التركيب" لأنه ركب الفاء مع التاء والنون من « تَنفي» فصار في لفظ قولك "فتىً" إذا نوَّنت " [٤] .

أما النوع الثالث فقد أطلق عليه "تجنيس الصدر" - وقد أفاد فيه من المعري - ومثاله ، ما جاء في بيت الطائي :

حَتَّى التوَى مِنْ نَقْعِ قَسْطَلِها على حِيطَانِ قُسْطَنطِينةَ الإعْصارُ

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٢١٢ .

(٢) الآمدي : الموازنة ، جـ ٣ ، ص ٣٩٥ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٤١ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ .

فذكر أنه "جاء بقسطنطينة مع القسطل ، وهذا "تجنيس الصدر" لأن أول الكلميتن متشابه " [١].

ونشير إلى أن ما ذكره هنا يُعدّ عند أغلب علماء البلاغة من أنواع الجناس الناقص ، وأن ما سمّاه جناس الصدر ، وجناس التركيب ، قد أطلق عليه بعض البلاغيين "الجناس المذَيَّل" ، وهو ما اختلفت فيه الكلمتان في أعداد الحروف وكان الاختلاف بزيادة حرفيْن أو أكثر ، وأمثلته في كتب البلاغة كثيرة .

كذلك الحال بالنسبة للطباق ، فبالإضافة إلى ما نقل التبريزي عن بعض الشراح ، نبه على بعض ما جاء في شعر أبي تمام من هذا المحسّن البديعي ، من ذلك إشارته إلى الطباق الوارد في قوله :

لِمَدِينَةَ عَجْمَاءَ قَدْ أَمْسَى البِلَى فيها خَطِيبًا باللِّسَانِ المُعْرِبِ

« عجماء » لا ينطق فيها ناطق ، لكنّ البلى والتَّغيُّر بيِّنٌ فيها معربٌ عن ذهابها ، وطابق بين العجماء والمُعْرب " [٢] .

ونختم دراستنا للمنظور البلاغي عند التبريزي بموقف له من مبالغة أبي تمام في وصف الفرس ، من القصيدة التي يفخر فيها بقومه عند انصرافه من مصر :

طَوَى بَطْنَها الإِسآدُ حتَّى لو انَّه بَدا لك ما شكَّكْتَ في أَنَّه ظَهْرُ

قال : " « الإسآد » سير الليل ، يقال أسأد فهو مُسئِد . وقد بالغ في هذا البيت في صفة الضمر حتى خرجت المبالغة إلى ما لا يمكن أن يكون وذلك سائغ في مذاهب الشعر محكوم بأنه من ألطف الصنعة " [٣] .

إن المبالغة محسن معنوي مقبول في الشعر عند التبريزي ، إذ هي صنعة لطيفة إنما يجيدها الحذّاق من الشعراء ، ومعلوم أن الآمدي لا يؤيد موقف التبريزي في المبالغة ، فهو حين سمع مقولة « أجود الشعر أكذبه » قال : " ولا والله ، ما أجود الشعر

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٩٧ .

(٣) نفسه ، جـ ٤ ، ص ٥٧٦ .

إلاّ أصدقه ، إذا كان له من يخلِّصه هذا التخليص ، ويورده هذا الإيراد على حقيقة الباب " [١] .

ونحن مع رأي الآمدي ولسنا مع رأي التبريزي ، لأن المبالغة - في أحايين كثيرة - قد تضر بالشعر ، وتضعف من قيمة المعنى أو الصورة . وعلى الجملة فإن منظور التبريزي للبلاغة فيه بعض ما لا يمكن مجاراته فيه ، وموافقته عليه ، ولئن أصاب في بعض المواقف فإنه لم يكن كذلك في مواقف أخرى .

❁ ❁ ❁

المنظور النقدي : ذكر التبريزي في مقدمة كتابه أن من أهم الدوافع التي جعلته يتصدى لشعر أبي تمام بالشرح والتحليل ما أشار إليه من اختلاف الشراح والنقاد في شعره ، إذ إن منهم من تعصّب له ، ومنهم من أنصفه ، ومنهم من أنحى عليه فهجّن معانيه ، وزيّف استعاراته ، لذا فقد وعد بأنه سيرجح بعض أقوال العلماء في شعره على بعض ، ووعد أنه إذا احتمل البيت الواحد معنيين وكان أحدهما أقوى من الآخر فإنه سيذكر ذلك ويوضحه ، إذ " لا يميز بينهما إلا من حَسُن فهمه وصفا ذهنه ، لأن نقد الشعر أصعب من نظمه " [٢] .

غير أن الدراسة الموضوعية لحقيقة ما في شرحه من نقد ، تُظْهر عدم التزامه بما وعد به في المقدمة إلا في القليل النادر ، وأن معظم ما جاء في كتابه من آراء وقضايا نقدية منقول عن الشراح الذين سبقوه ، وبخاصة عن المعري ، فقد كان ينقل عنه كثيراً وينسب أقوال المعري إليه أحياناً ودون نسب في أحايين أخرى ، بل إنه قد يدمج بعض الآراء بكلامه فيوحي ذلك بأنه من نقده الخالص الأمر الذي أوقع بعض الباحثين في الوهم حين ظن أن ذلك من جهد التبريزي وفهمه وإبداعه [٣] .

---

(١) الآمدي : الموازنة ، جـ ٢ ، ص ٥٨ .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢ .

(٣) انظر : قباوة : منهج التبريزي في شروحه ، ص ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٦٢ .

ومن أمثلة ما نقله عن أبي العلاء المعري ما جاء في شرحه لقول أبي تمام :

فمَا صُقِلَ السَّيْفُ اليَمانِيُ لَمْشْهَدٍ كما صُقِلَتْ بالأمسِ تلك العَوارضُ

"و « العوارض » جمع عارض وهو الناب والضرس الذي يليه ، يريد أنَّ ثغرها واضح . والأجود ألاّ يجعله صُقِل بالبَشَام وعيدان السِّواك كما قال الفرزدق :

تَرَى قُضُبَ الأرَاكِ وهُنَّ خُضْرٌ بِمَجْنِبها وعِيدانَ البَشام

إلاَّ أن قوله " بالأمس" يدلُّ على أنه أراد السِّواك ، والأحسن في حكم الشعر أن يَدَّعي صقالها بالفطرة لا بالتصنع " [١] .

وفي شرحه للقصيدة المشهورة التي مدح بها الطائي محمد بن يوسف الثغري ، ومطلعها :

مِنْ سَجَايَا الطُّلُولِ أَلاَّ تُجِيبَا فَصَوابٌ مِنْ مُقْلَةٍ أَنْ تَصُوبَا

نقل التبريزي عن المعري شرحه ونقده لهذا البيت :

حَيَّةُ اللَّيْلِ يُشْمِسُ الحَزْمُ مِنْهُ إِنْ أَرَادَتْ شَمْسُ النَّهارِ الغُروبَا

ولم ينسبه إليه ، بل دمج معه شرحه دون تمييز أو إشارة ، ومنه :

" تقول العرب حيَّة الوادي وحيّة الجبل ، فأما حيّة الليل فيجوز ألا يكون أحد استعملها قَبْل الطائي ، ومعناه أنه يستعد لأعدائه فلا ينام ، وحزمه يضيء بالليل فيصير كاليوم الشامس " [٢] . فإلى قوله « ومعناه » من كلام المعري ، كما جاء في كتاب « النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام » لابن المستوفي . [٣] .

وقد عقب ابن المستوفي بأن عبارة « حية الليل » كلام صحيح ، لأن الحيّات توصف بالكمون في النهار وفي القمر ، وبالدّبيب في الظلمة . وتمثّل بقول خلف

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٦٨ .

(٣) انظر : ابن المستوفي ، جـ ١ ، ق ١٦٦ .

الأحمر : " تنسابُ في النَّحس وتَعْشَى في القَمَر " [١] .

ويلفت الانتباه في غير "حيّة الليل" من قول الطائي جمعه بين الليل المظلم والشمس المضيئة في شخص الممدوح في حال واحدة ، وهذا أسلوب مجازي أكثر منه حتى تميّز به . وكان حريًا بالشرّاح ألا يسرفوا في تطبيقه على الحقيقة .

وقد أطلق التبريزي على ما ابتكره أبو تمام من استعمالات وخالف فيه الاستعمال القديم مصطلح « الاجتراء » – وقد أخذه عن المعري – كما جاء في شرحه لقوله :

استَنْبَتَ القَلْبُ مِنْ لَوْعَاتِه شَجَرًا مِنَ الهُمُومِ فأَجَنَتْهُ الوسَاوِيسَا

ذكر أن : « الوساويس » يحتمل وجهينْ : أحدهما أن يكون جمع « الوَسْوسة » وزيدت الياء للحاجة كما زيدت في التوابيل والسواعيد ، والآخر أن يكون جمع وسواس .

فإذا كانت كذلك فليس في البيت ضرورة . و « الوسوسة » في الصوت الخفيّ والسر ، وأكثر ما تستعمل العرب "الوساوس" بغير الياء ، ويجوز أن يكون الطائي سمعه في الشعر القديم ، أو اجترأ على المجيء به لعلمه أن مثله كثير " [٢] .

كما نراه يصرح في موضع آخر من شرحه بأن عبارة "أَخْلَبَتْ البُرُوقُ" التي وردت في قول الطائي :

أَخْلَبَتْ بَعْدَهُ بُرُوقٌ مِنَ اللَّهوِ وجَفَّتْ غُدْرٌ مِنَ التَّشْبِيبِ

"غير مستعمل في الكلام القديم " [٣] . ويبدو أن قول التبريزي بأن « أَخْلَبَ البَرْقُ » غير مستعمل في القديم كلام غير صحيح ، إذ جاء في حديث الاستسقاء : " اللّهم سُقيا غير خُلّبٍ بَرْقُها " أي خال من المطر ، ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما : " كان أَسْرع مِنْ بَرْقِ الخُلّب " . وفي لسان العرب : " البَرْقُ الخُلّب : الذي لا غيث فيه كأنه خادع يومض حتى تطمع بمطره ثم يخلفك " [٤] ومقصد الشاعر أن لهوه وتشبيبه بغير

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ١٦٦ – ١٦٧ .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ ، جـ ٤ ، ص ٣٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١١٨ .

(٤) ابن منظور : لسان العرب ، مادة : خلب .

أحبته في تلك الديار غير صادق ، وإنما هو خداع بالقول اللطيف يَعِدُ ولا يُنجِز .

ولعل التبريزي قصد « بالكلام القديم » الشعر الجاهلي القديم ، وقد نقل عن المعري في شرح :

بِمُخْتَبَلٍ ساجٍ مِنَ الطَّرْفِ أَحْوَرٍ ومُقْتَبَلٍ صافٍ مِنَ الثَّغْرِ أَشْنَبِ

أن « مقتَبَل » إذا رويت بالفتح فهي من التقبيل ، وإن كسرت الباء فالأغلب عليه أن يكون من المقابلة ، ثم ذكر أن " الاقتبال من التقبيل معدوم في الشعر القديم " [١] غير أن الآمدي خالف هذه الرواية ، ورواه « بمُخْتَتَلٍ ساجٍ » ، أي يختل بنظر ، « ومُقْتَتَل صَافٍ » أي قتله الحب واقتتله الحب ، وذكر أن الشاعر اعتمد ازدواج اللفظتين بقوله مختتل ومقتتل [٢] .

لقد كان لكثرة ممارسة التبريزي لشعر أبي تمام أثر واضح في معرفة مذهبه ، فاستند في بعض توجيهاته النقدية على ما يراه منسجماً مع مذهب الشاعر الفني ؛ لذا نجد في نقده عبارات مثل « وهذا أشبه بمذهب الطائي » [٣] ، أو "هذا ما جرت به عادة الطائي" [٤] . . ونحو ذلك ، وعند حديثه عن معنى « العُكوبُ » وبيان مصدرها واشتقاقها عندما وقف عليها في هذا البيت :

مَزَّقْتُ ثَوْبَ عُكُوبِهَا بِرُكوبِها والنَّارُ تَنْبُعُ مِنْ حَصى المَعْزَاءِ

نجده قد وافق المعري في أنها تروى بضم العين وفتحها ، إلاَّ أن " الأشبه بمذهب الطائي ضَمَّ العين في « عُكوب » ، ليكون مشاكلاً لضمة الراء في « رُكوب » [٥] وهذا من التصنيع الذي كان يطلبه أبو تمام ويولع به ، إذ ذهب في تنقيح شعره وتثقيفه مذهب شعراء الحوليات " والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجانس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة ومعنى لمعنى " [٦] ، لذلك عده النقاد من أهل المعاني وأصحاب

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) الآمدي : الموازنة بين الطائيين ، جـ ٢ ، ص ١١٠ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٣٨ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٨٩ .

(٥) نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٥ .

(٦) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .

الصنعة ، وقد أشار التبريزي إلى تصنيعه في مواضع كثيرة ، منها ما أورده في شرح قوله :

شُعْلَةٌ في المَفَارقِ استَوْدَعَتْني في صَميم الفُؤَادِ ثُكْلاً صَميمًا

"يقال فرس أَشْعَل : إذا كان في ذنبه بياض ، وقال « شُعْلَةٌ في المَفَارِقِ » فصنّع بذلك ، لأن الشعلة جرت عادتها بأن تكون في الأذناب ، وهي هنا في المفارق ، فهي مخالفة لتلك " [١] .

لقد كان أبو تمام في بعض أبياته يضع الألفاظ في غير مواضعها المألوفة ، ويقيم بينها علاقات جديدة ، ويعبر عنها بمعان غير تلك المعاني المعتادة في الاستعمال [٢] .

كذلك في القصيدة التي رثى فيها يحيى بن عمران القُمّي ، وقف التبريزي عند البيت الثالث منها وهو :

أَلوَى بِتيجانِهم يَوْمٌ أُتيحَ لَهُ نَحْسٌ وأَثقَبَ فيهِ نارَهُ زُحَلُ

فذكر أن "في البيت صنعة ، وهو أن زحل يقال إنه بارد المزاج فجعله يثقب النار ، ولم يزل القارىء يستعير هذه الكلمة ، فيقول ثَقَبتْ نَارُ أَبي فلان إذا ظَفِرَ وبلغَ ما يُريد" [٣]. ويظهر هنا استخدام أبي تمام بعض الألفاظ ، استخدامًا دلاليًا خاصًا ، بل قد يطلق على بعض الأشياء عكس ما اعتاد الناس أن يطلقوه عليها .

وإذا كان مثل هذه الصنعة لا تعجب نقادًا كالآمدي أو الجرجاني ، لأن اختيار اللفظ لقصد المجانسة أو المطابقة أو لغيرها من الفنون البديعية والمعاني الفلسفية يذهب بجمال اللفظ في سبيل المعنى أو يخل بالمعنى في سبيل اللفظ ، فإن التبريزي استحسن بعض تصنيعه ، وعدّ استعماله لبعض الألفاظ أجود في صناعة الشعر . وحين شرح قوله :

مِنْ كُلِّ رِيم لَمْ تَرُمْ سُوءًا ولَمْ تَخْلِطْ صِبَى أَيَّامِها بِتَصَابِي

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .

(٣) نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٢١ .

ذكر أن الأصل في « ريم » الهمز ، ويجوز أن تُجعل الهمزة ياءً خالصة فيقال «ريم»، ثم قال « وتخفيف الرِّيم في هذا الموضع أجود في صناعة الشعر ، لأنه يصير مجانسًا لـ « تَرُمْ » من قِبَل أنك لو بنيت من «رام يروم »اسمًا على « فِعْل » لقلت «ريم» وإذا همزت « ريمًا » بَعُد من مشابهة قوله « تَرُمْ » " (١) .

إن إعجاب التبريزي بأبي تمام جعله يتسامح في بعض نظراته النقدية عن أخطائه واستعمالاته الشاذة ، بل إنه يجتهد في إيجاد بعض المبررات التي تُخْرِج الطائي من دائرة اللّوم حتى لو ألزمه ذلك التشكيك في نظم البيت ، فقد رأى في قوله :

يَنبُوعُها خَضِلٌ وحَلْيُ قَرِيضِها حَلْيُ الهَدِيِّ ونَسْجُها مَوْضُونُ

أنه " يجوز أن يكون الطائي لم يقله على هذا النظم ، لأن الينبوع لا يحسن أن يوصف بخضل ، ولكن لو قال « غَدِقٌ » لكان أشبه . . . وقد يحتمل أن يكون لما قال "ينبوعها" فاستعار هذه اللفظة أراد أن يلغز فقال : خَضِل ، لأنها لا ينبوع لها في الحقيقة ، وإنما يعني قلبه أو لسانه " (٢) . وإنما عنى الشاعر بالينبوع معين شعره ومصدر قصيدته ، لأنه في معرض الإشادة بقصيدته وامتداح شاعريته ، وهو يعني أن معين شاعريته بفضل الإمداد المتواصل والتجديد ، غزير لا ينضب .

كذلك حاول التبريزي أن يبرر بعض ما خالف فيه أبو تمام القياس ، فأشار إلى بيت :

فأُقسِمُ لَوْ سَأَلْتِ دُجَاهُ عنِّي لقَدْ أَنباكِ عَنْ وَجْدٍ عَظِيمِ

" هكذا يُروى على توحيد « الدُّجَى » ، والمعروف أنها جمع دجية ، ولكنّ المُحْدَثين يستعملونها في معنى الواحد ، وذلك جائز يحمل على معنى الجنس ، كما قال :

"مِثْل الفِرَاخِ نُتِفَتْ حَوَاصِلُهْ " فأما القياس فهو الجمع ، فلو قال : " لقد أَنْبَتْكِ" لخرج إلى الوجه الذي تستعمله العرب ، ويجوز أن يكون الطائي قاله كذلك " (٣) .

ومخالفة المُحْدَثين لاستعمال العرب في لفظة « الدُّجى » لم تقتصر على البنية

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٣٠ .

(٣) نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٦١ .

فحسب ، بل تعدته إلى المعنى ، فقد ذكر التبريزي في موضع آخر من شرحه أن «الدُّجى » جمع «دُجَيَة »ولا يقال «دجية» إلا لليل مع غيم ، فأما المُحْدثون فيعبرون بالدُّجَى عن الليل ، ولا يفرقون بين المقمر وغيره ، وكان المعري يرى أن جعل الدُّجى واحداً مثل «هدى» وَهْم من بعض المولّدين ، والصحيح أنه مثل « زُبْيَةٍ وزُبىً» [١] .

ومن اللفتات النقدية التي لاحظ فيها التبريزي مخالفة الطائي لاستعمال العرب ، حذف الألف واللام من بعض الأسماء ، فاستحسن ذلك في مواضع ورفضه في مواضع أخرى ، ورأى أن الأفضل في "المُعرّف" و "المَحصَّب" في البيت :

أَقْرِي السلامَ مُعرَّفًا ومُحَصَّبًا مِن خالدِ المَعْروفِ والهَيْجاءِ

أن يكون بالألف واللام ، إذ " ليس حذف الألف واللام من « المعرّف » كحذفها من العبّاس والضحّاك ، لأن العرب تستعمل بعض الأسماء مرة بالألف واللام ، ومرة بغير ألفٍ ولام ، ولم يجيء في أشعارهم مثل هذا منكّرًا إلا أن يكون شاذًا ، وليس امتناعه من المجيء أنه غير جائز ، ولكنه اتفاق يقع في اللفظ " [٢] .

وعندما يعرض لبعض الأسماء في قول أبي تمام :

حَطَطْتَ بها يومَ العَرُوبَةِ عِزَّهُ وكانَ مُقيمًا بَيْنَ نَسْرٍ وَفَرْقَدِ

ذكر أن " استعماله « نَسْرًا » و « فَرْقَدًا » بغير ألفٍ ولام : أحسن من قوله « كوَجْدِ فَرَزْدَقٍ » ، ومن قوله « ما بَيْنَ أَنْدَلُسٍ إلى صَنْعَاءِ » ؛ لأن « الفرزدق » و « الأندلس » لا يعرف غيرهما مما له هذا الاسم ، و «النسر والفرقد» : معهما غيرهما ، فيحسن فيهما التنكير ، لأجل الاشتراك " [٣] .

ومن الملاحظات النقدية التي اشتغل بها التبريزي في شرحه مما له علاقة باللفظ والمعنى ملاحظة مدى الاتفاق أو التشابه بين بعض معاني أبيات أبي تمام وألفاظه وبعض ما جاء عند الشعراء السابقين أو اللاحقين ، وهي قضية تندرج تحت ما أسماه النقاد « **بالموازنات والسرقات الشعرية** » التي تكشف عن تأثر الشاعر بغيره من

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٩ .

(٣) نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

الشعراء سواء في المعاني ، أو في الصياغة ، وتحدد من أين أخذ الشاعر معناه ، ومَنْ أحق الشاعرين بنسبة المعنى إليه ؟ وإذا كان " الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق ، واقتدى بمن سبق ، لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحًا ، أو في صيغة تتعلق بالعبارة . . . " [(١)] فإن التبريزي – كبقية الشراح – لم يطلق على تأثر الشعراء بغيرهم لفظة « سرقة » وإنما عبّر عن ذلك بالأخذ ، والإلمام ، والمماثلة ، والمشابهة ، والنحو . . وما هو قريب من هذه المصطلحات . وحين عرض لقول الطائي :

لَسْتُ مِنَ العِيْسِ أَوْ أُكلِّفَهَـا وَخداً يُداوِي المَرِيضَ مِنْ وَصَبِهْ

قال إنه مأخوذ من قول القطّامي :

وسَارَتْ سَيْرَةً تُرضِيْكَ مِنْهـا يَكَادُ وَسِيجُها يُشْفِي الصُّدَاعَا[(٢)]

لكنه لم يشر إلى وجه الأخذ أو كيفيته ، ويبدو أن مقصود البيتين هو حث المطايا على الإسراع في المشي إلى الممدوح ، وتكليفها غير الذي اعتادته من السير ، حتى تصل إلى الهدف ، وتحقق الغرض الذي يزول به هم النفس وعُدْم الفقر ، غير أن الشاعر ينفي ملكيته لهذه العيس إن لم تستجب لطلبه وتلبي رغبته . وهذا يدل على العلاقة الحميمة بين الراحلة وصاحبها ، وعلى أهمية القصد الذي كانت من أجله الرحلة .

وروى الخارزنجي : « لَسْتُ مَنا العِيْس » ، أي منيّتها وهلاكها " [(٣)] .

وقد جرت عادة العرب أن ينحروا رواحلهم إذا أوصلتهم إلى مقاصدهم شكراً لها على ذلك ، قال ذو الرمة :

إذا ابنُ أَبِي مُوسى بِلالاً بَلَغْتِهِ فقامَ بفاسٍ بيْنَ وَصْلَيكِ جَازِرُ

وقال الشمّاخ :

إذَا بلّغْتِني وَحَمَلْتِ رَحْلِي عُرَابَةَ فاشْرَقي بـدَمِ الوَتِينِ

---

(١) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، ص ٢٢٨ .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ .

(٣) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ١٢٦ .

ولا نتفق مع ابن المستوفي فيما ذهب إليه من أن قول الطائي " يُداوي المريضَ مِنْ وَصَبِهْ" ليس حسنًا في صفة الوخد ، وأنه لو قال : وخدًا يزيل عُدْم الفقراء ويجلب غناه ، لكان أليق به ولكان في موضعه " (١) .

لأن في لفظة « يُداوي » من الإيحاءات الشعرية والدلالات النفسية ما لا يمكن أن تنهض به لفظة "يُزيل" ، لأن الأولى توحي بأن الشاعر من شدة شوقه إلى لقاء الممدوح في حالة تشبه حالة المريض الذي ليس له شفاء من وجعه إلاّ اللقاء .

أما مصطلح « الإلمام » فقد استخدمه التبريزي في شرحه عدة مرات ، وشأنه فيه كشأنه مع معظم المصطلحات الأخرى التي استخدمها في شرحه ، دون أن يضع لها حدودًا أو تعريفات تميزها وتفصح عن المقصود بها ، وإنما اكتفى بدلالتها على تأثر الشاعر بغيره سواء في المعنى أو التعبير أو فيهما معًا .

وحين عرض لقول أبي تمام :

وضَعيفَةٌ فإذَا أَصَابَتْ فُرْصَـــةً ... قَتَلَتْ ، كَذلِك قُدْرَةُ الضُّعَفَاءِ

أشار إلى أنه ألمّ فيه بقول الشاعر :

ضَعَائِفُ يَقْتُلْنَ الرِّجَالَ بلا دَمٍ ... فيا عجبًا للقَاتلاتِ الضَّعائفِ (٢)

نسب ابن المستوفي هذا البيت إلى عمارة بن عقيل ، ثم علّق : "وإلمام أبي تمام ببيت عمارة أوضح من إلمامه ببيت جرير " (٣) .

يشير إلى ما ذكره الصولي من أن الطائي قد ألمّ في هذا البيت بقول جرير :

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لا حَرَاكَ بِهِ ... وهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا (٤)

ورجح ابن المستوفي أن يكون مصدر الإلمام من بيت عمارة بن عقيل الذي نص عليه التبريزي . لكن بيت الطائي يتميز بالإشارة إلى معنى جانبي ، وهو الفرصة التي يقتنصها الضعيف في لحظة ينقلب فيها العجز إلى قدرة والضعف إلى قوة .

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

(٣) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٤٢ .

(٤) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

ونظرًا لكثرة ما اتهم به أبو تمام من السرقة في الحركة النقدية التي أثارها شعره، فإننا نجد كثيرًا من الشراح إذا وقفوا عند بعض الأبيات التي نُسب إلى أبي تمام أنه أخذ معانيه منها ، فأنهم يشيرون إلى بعض مصادرها . وقد أثبت التبريزي في شرحه بعض ما ذكروه ، من ذلك أنه وافق المعري على أن أبا تمام نحا في المصراع الأخير من قوله :

مَزَّقْتُ ثَوْبَ عُكُوبِها بِرُكُوبِها　　　والنَّارُ تَنْبَعُ مِنْ حَصَى المَعْــزَاءِ[1]

نحا نحو قول ذي الرّمة :

يَرُحْنَ بِنَا والمَرْوُ حَامٍ كأنَّــمــا　　　يَطَأْنَ بِنَا مِنْه على عَجَلٍ جَمْرا

وسلّم مع المرزوقي بأن هذا البيت :

فما قُلْبي فيها لأوَّل نَـــازِحٍ　　　ولا سَــمُري فيها لأوَّلِ عَاضِــدِ

مأخوذ من قول الكُميْت :

ولا سَمُراتي يَبْتَغِيهنَّ عاضِــدٌ　　　ولا سَلَماتي في بَجِيلةَ تُعصَــبُ

وهذا الأخذ أو الاقتباس لا يدل - في رأي الباحث - على سرقة بقدر ما يؤكد سعة ثقافة أبي تمام وكثرة محصوله الشعري المحفوظ .

من ناحية أخرى لاحظ التبريزي مدى تأثر بعض الشعراء المعاصرين أو اللاحقين لأبي تمام بما جاء في شعره من معان وألفاظ ، فأشار إلى بعض ما أخذه البحتري ، وابن الرومي ، والمتنبي وغيرهم منه ؛ ومعنى ذلك أنه يرصد الظاهرة سلبًا وإيجابًا ، ويذكر ما للشاعر وما عليه ، وهذا يعكس موقفًا نقديًا معتدلاً . من ذلك ما ذكر من أن أبا تمام حين أراد أن يصف شدة صوت الفرس وصفائه شبهه بصوت الجَرَسْ : قائلاً :

صَهْصَلِقٌ في الصَّهِيل تَحْسَبُهُ　　　أُشْرِجَ حُلْقُومُــه على جَرَسِ

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٥ .

ذكر التبريزي أن البحتري في قصيدته اللامية احتذى قول أبي تمام في هذا المعنى، حين قال :

هَزَجُ الصَّهيلِ كأَنَّ في نَغَماتِه نَبَرَاتِ مَعْبَد في الثَّقيلِ الأَوَّلِ[١]

فكلا الشاعرين قصدا تشبيه صهيل الفرس بصوت الجَرَس ، غير أنهما اختلفا لفظًا وتعبيرًا ، فأبو تمام استخدم التجسيم واهتم بما يوضح شدة الصوت من الألفاظ مثل صَهْصَلِق ، وحُلْقُوم ، وجَرَس ، بينما لجأ البحتري إلى التشبيه ، فاختار الألفاظ التي توحي بتردد الصَّوت في خفة وسرعة مثل : هَزِجَ ، ونَغَمات ، ونَبَرات ، والهَزَج صوت مطرب ، قال أبو إسحاق : التهزُّج تردّد التحسين في الصّوت [٢] ، وهذا يجعل بين البيتين نوعًا من التمايز وإن كانت الفكرة واحدة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن التبريزي نقل هذا عن الصولي الذي كان يبالغ في اتهام البحتري بالسّرقة من أبي تمام [٣] .

وكعادة التبريزي - في إغفال بيان موطن الأخذ أو جهة الإلمام والمشابهة بين البيتين في المعنى أواللفظ - اكتفى في موضع آخر من شرحه بأن نبه إلى أن قول ابن الرُّومي:

إِذَا مَا المَدْحُ سَارَ بِلا ثَوَابٍ مِنْ المَمْدُوحِ كَانَ هُوَ الهِجَاءُ

مأخوذ من قول الطائي :

وإِنَّ المَدْحَ في الأَقوَامِ مَا لَمْ يُشَيَّعْ بالجَزاءِ هُوَ الهِجَاءُ[٤]

ولم يعلّق على الأخذ أو يبينه . لكن يتضح أن ابن الرومي قد أخذ المعنى وبعض الألفاظ عن أبي تمام ولم يبذل جهدًا في إخْفَاء الأخذ بزيادة في المعنى أو تغيير كبير في الصياغة الفنية للبيت .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، مادة : « هزج » .

(٣) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٧٩ .

(٤) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٤٤١ .

كذلك صرّح بأن المتنبي - مالىء الدنيا وشاغل الناس - قد ألمَّ في قوله :

"خَيْرُ صِلاتِ الكَرِيمِ أَعْوَدُها " بقول الطائي :

وتَقْفُو إلى الجَدْوَى بِجَدْوَى وإنَّما يَرُوقُك بَيْتُ الشِّعْرِ حِيْنَ يُصَرَّعُ[1]

والبيتان قيلا في معرض المدح والطلب من الممدوح ، ومقصودهما : أن الاستمرار في العطاء بعد العطاء أكمل في البر وحُسْنِ الصِّلة .

وفي مجال الموازنة والمقارنة نكتفي بما وقف عليه التبريزي في شرحه لهذا البيت :

وقَدْ تَأْلَفُ العَيْنُ الدُّجَى وهْوَ قَيْدُهَا ويُرْجَى شِفَاءُ السَّمِّ والسَّمُّ قَاتِلُ[2]

حيث عدّه مشابهًا لقول أبي الطيب المتنبي :

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أَنْ يَرى عَـدُوًّا لَه مَا مِنْ صَدَاقَتِـه بُـدُّ

لكنه أيضًا ، اقتصر على مجرد الإشارة للمشابهة ، ولم يحاول أن يكشف عن وجه حقيقتها . ويظهر أن الشاعرين يشيران إلى اضطرار المرء وقلة حيلته حينما يحتاج إلى من لا يأمن شره ، أو ما يتوقع ضرره ، فيعاني من هذا الأمر الذي لا يجد منه بُدًا . إنه لا يؤمِّل في صداقة العدوّ ودفع غائلته إلا بالقدر الذي يُرجى فيه الشفاء من السّم القاتل . ولكن البيتين يتفقان في التعبير عن مسألة الاضطرار إلى المكروه لا غير .

ومما سبق نخلص إلى أن التبريزي قد حصّل بطول الممارسة في شعر أبي تمام خبرة ودراية بمذهبه الفني في صناعة الشعر ، فاستطاع أن يقدّم في شرحه بعض الملاحظات النقدية المتميزة مقارنة بمن سبقه ، وهي وإن كانت قليلة فإنها تنم عن حسن معرفته بالأدوات النقدية والقضايا الأدبية الأخرى التي كانت محل عناية بعض النقاد في عصره .

وقد اعترف التبريزي في مقدمة شرحه لديوان أبي تمام بأن في شعره مواضع مشكلة ، تصعب على كثير من الناس ، وخاصة أولئك الذين لم يستأنسوا بطريقته ، لذلك فإنه في مواضع كثيرة من شرحه لجأ إلى الشروح التي بين يديه ، فنقل منها

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٢٨ .

بعض الآراء النقدية ، وذكر بعض ما دار بين الشُرَّاح من مناقشات ، وتعليقات ، وردود، وقد اعتمد على المعري والمرزوقي كثيراً في هذا الجانب .

وتراوحت أكثر المآخذ النقدية التي سجلها التبريزي على أبي تمام بين مآخذ لغوية تتعلق بألفاظ البيت وتراكيبه ، وأخرى دلالية خالف فيها الطائي ما كان مستقراً في أذهان بعض الناس من العادات والتقاليد ، أو خرج بها عن أقيسة العرب ونظام لغتهم .

كما سلط الضوء على تأثر الطائي بالشعراء الآخرين وتأثرهم به . وقد استخدم في التعبير عن ذلك مصطلحات مختلفة لم يصرح - مباشرة - بقصده منها . وهي فيما قد يبدو مستوية الدلالة ، تشير إلى أخذ الشاعر المعنى ممن سبقه من الشعراء .

لقد كان في تتبع التبريزي لأبي تمام في شعره ، وللشراح في آرائهم وأقوالهم ، وتعليقه عليها ونقده لبعضها ، ما يُعدُّ إسهامًا مميّزًا في شرح شعره وإزالة الحُجُب والأستار عنه ، ومحاولة غير مسبوقة في جمع الشروح السابقة في شرح واحد عن طريق الاختيار والتهذيب ، وذلك من أجل تحقيق الغاية التعليمية التي من أجلها ألف التبريزي شرحه . ولا ريب في أن التبريزي - باعتباره مشغولاً بقضية التعليم - حاول أن يجعل شروحه أكثر شمولية وإحاطة من شرح غيْره . بل لقد احتفظ في شرحه ببعض إشارات مطوّلة لبعض الشروح التي لم تصل إلينا . وهذا يُعطى شرحه أهمية خاصة .

رابعاً : المنـــظـــور العروضـــي:

اهتم التبريزي بموسيقى الشعر ، و ألّف كتاباً في العروض والقوافي أسماه «الكافي في العروض والقوافي» [١] ، تحدث فيه عن بحور الشعر ، ومصطلحات العروض والقوافي . وفي شرحه لديوان أبي تمام حاول أن يوظف ما لديه من معلومات عروضية وأن يطبّقها في نقده على بعض ما جاء مخالفاً من الأوزان والقوافي في شعر أبي تمام. فبالإضافة إلى ما ذكرنا ـ عند الحديث عن منهجه ـ من اهتمامه بتحديد وزن الشعر وأضربه وقوافيه في مطلع شرحه لكل قصيدة ، فإنه كان يهتم ببيان ما جاء في ثنايا شعره من الأوزان الشاذة والقوافي المتطلّبة والأضرب المستحدثة ، كما اهتم بتعريف بعض المصطلحات العروضية التي استخدمها في الشرح ، وعرض لبعض آراء العروضيين في ذلك .

ونقف أولاً عند ملاحظته المهمة التي سجلها في أثناء شرحه للسّينية التي مدح بها أبو تمام الحسن بن وهب . ومطلعها :

هَلْ أَثَرٌ مِنْ دِيارِهِمْ دَعْسُ حَيْثُ تَلاقَى الأَجْراعُ والوَعْسُ

فقد أشار التبريزي إلى أن " هذا الضرب لم يذكره الخليل في العروض ، وذكره غيره في المنسرح ، وجعل العروض الأولى ضربين ، هذا الثاني منهما ، وتستعمل بردف وبغير ردف ، والرِّدف أحسن ، ولم يستعمله القدماء وهو قليل في أشعار المحدثين " [٢] .

والمنسرح على ثلاث تفعيلات في كل شطر ـ « مستفعلن مفعولات مستفعلن » ـ مرتين . وله ثلاث أعاريض وثلاثة أضرب ، وعروضه الأولى سالمة وضربها مطويّ . ولم يذكر التبريزي في كتابه الذي ألفه في علم العروض ضرباً آخر للعروض الأولى ، غير أنه أشار إلى أن العروض الثالثة مكشوفة منهوكة وهي الضرب ، وقد استعملوا ضرباً آخر لم يذكره الخليل ، ووزنه مفعولن ، ومثّل له بقول عبد الغفار الخزاعي :

ذاك وقد أَذعَرَ الوحوشَ بصَلْـ ـتِ الخَدِّ رَحْبٍ لَبانةٌ مُجْفَر [٣]

---

(١) التبريزي : الكافي في العروض والقوافي ، ت : الحساني حسن عبد الله ، ط : مكتبة الخانجي ، الثالثة ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٣) انظر : التبريزي : الكافي في العروض والقوافي ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

ولعله يقصد هذا الضرب ، وذكر بعض العروضيين أن هذا الضرب مما استحسنه المحدثون ، وأكثروا منه لحسن اتساقه وعنوبة مساقه حتى استعملوه غير مردوف [١] ، كما جاء في قصيدة أبي تمام ، والرّدْفُ يكون ياءً ، أو واوًا ، أو ألفًا قبل حرف الروي لاصقة به تلزم جميع أبيات القصيدة ، فإن أردف بيتًا وترك آخر فهذا سناد ، وهو عيب في القافية [٢].

وفي معرض افتخار أبي تمام بقصائده وسلامة مبانيها ومعانيها من العيوب ، قال في قصيدة بعث بها إلى أحمد بن أبي دؤاد :

إليْكَ بَعَثْتُ أَبكـــارَ المعَانـي يَليهَا سائقٌ عَجِلٌ وحَـــادي

جَوائرَ عن ذُنابَى القَوْمِ حَيْرَى هواديَ للجمَاجمِ والهَوَادي

شدادَ الأَسْرِ سالَمَةَ النّواحـــي منَ الإقواءِ فيها والسِّـــنَاد

فامتدح أبو تمام قصيدته بخلوها مما يشينها من عيوب الإقواء والسّناد . وذكر التبريزي في شرحه لهذه المصطلحات ، أن الإقواء مختلف فيه ، غير أنه مجمع على أنه عيب ، ثم ذكر أن أظهر الأقوال وأكثرها فيه أنه اختلاف (حركة) الإعراب في القافية .

وقال قوم : هو الإكفاء [٣] . وقال آخرون الإقواء كل عيب يجيء في آخر البيت . ورُوي عن أبي عبيدة أنه كان يجعل الإقواء مثل قول الشاعر [٤] :

لَمّا رَأَتْ ماء السَّلَى مَشرُوبَها والفَرْثُ يُعصَرُ بالأَكُفّ أَرَنَّت

---

(١) انظر : بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني : العيون الغامزة على خبايا الرامزة ، المطبعة الخيرية ، سنة ١٣٢٣هـ ، ص ٧٤ .

(٢) انظر : المرزباني :الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص ١٩ .

(٣) الإكفاء : قال ابن رشيق : "هو الإقواء بعينه عند جِلّة العلماء : كأبي عمرو بن العلاء ، والخليل ، ويونس ، وثعلب ..." أما عند المفضّل الضبي ، والمبرد ، والأخفش ، فهو : اختلاف الحروف في الروي" . انظر : ابن رشيق : العمدة ، جـ ١ ، ص ١٦٦ .

(٤) البيت في لسان العرب : لحجْل بن نضلة . انظر : اللسان ، مادة «سلا» ، وفي القاموس : حجل ابن حنظلة .

أمّا السناد فيشير التبريزي إلى أنه عيب كانوا يذكرونه قديمًا ، كما أشار إلى هذا عدي بن الرّقاع :

وقَصيدةٍ قد بِتُّ أَجمعُ شَمْلَها حتّى أقوّمَ مَيْلَها وسِنادهَا

وقد يقال : كل عيب في القافية سناد ، أمّا المحققون من أهل العلم فيجعلون السناد ضروبًا ، وهو تغير حركة أو حرف ، مثل أن يجيء « سالم » مع « آدم » أو « جَمَل » مع « ثَمِل » في الشعر المقيّد ، أو « يُوري » مع « شُكْري » ، ونحو ذلك [١] .

ونظرًا لاختلاف الناس في تحديد بعض هذه المصطلحات ، فإن كسرة الحاء في «تنسحِب» من قول أبي تمام :

فَكَيْفَ أَصْبحتَ ولا زِلْتَ في عَافِيَةٍ أَذيالُهَا تَنْسَحِبْ ؟

على حدّ قول التبريزي : " سناد عند الخليل ، وعند الأخفش ليس بسناد " [٢] . ومردُّ ذلك إلى أن الخليل يجوّز الكسرة مع الضمة ، ولا يجوّز مع الفتحة غيرها [٣] . وجاءت في بيت أبي تمام مع الفتحة في قوافي « الأدَب » ، « الوصَب » .

وقد وصف ابن رشيق أبا تمام بأنه كان " ينصب القافية للبيت ؛ ليعلّق الأعجاز بالصدور ، وذلك هو التصدير في الشعر ، ولا يأتي به كثيرًا إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه " [٤] .

وعناية أبي تمام بالقافية جعلت التبريزي يتوقف في شرحه عند بعض القوافي التي استخدمها في شعره ، ولم يكن لها كبير فائدة في معنى البيت ، من ذلك اختياره كلمة «التَّنوم » قافية لهذا البيت :

فَعَنِيقُها يَعْضِيدُها ووَسِيجُها سَعدَانُهَا وذَمِيلُها تَنُّومُها

البيت من الكامل ، والقافية متدارك .

قال التبريزي في شرحه : " و « التّنّوم » ضرب من النَّبْت ، وإنما جاء « بالتّنّوم » للقافية ، وليست الإبل موصوفة برَعْي التّنّوم ، وإنما تحب السّعدان واليعضيد" [٥] .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٨١ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٧ .

(٣) انظر : المرزباني : الموشح ، ص ٢٠ .

(٤) ابن رشيق : العمدة ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ .

(٥) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٧٧ .

وكذلك الحال في قوله :

سَكَبَتْ ذَخِيرةَ دَمْعَةٍ مُصفَرَّةٍ في وَجْنَةٍ مُحمَرَّةِ التَّوْرِيدِ

إذ يرى التبريزي أنه قال « مُحمرَّة التَّورِيد » ولم يقتصر على « مُحمرَّة » من أجل القافية [١] . وهذه القصيدة دالية في مدح محمد بن المُستهل وهي من الكامل ، وقافيتها متواترة ، والذي يبدو أن أبا تمام لم يتكلف القافية هنا ، بل أوقعها في موقعها المناسب، ولا يمكن أن يستغنى عنها في البيت دون إخلال بالمعنى ، لذا فإن التبريزي يستدرك على نفسه ، ويجعل احتمال مجيء لفظة «التوريد » للإبانة عن زيادة على لون الحمرة ، لأن التوريد في الوجنة المحمرّة زيادة حسن على حمرتها . وقد عدّ التبريزي أبا تمام مخالفًا لعادة الشعر في عدم التزامه بأصل القافية في قوله :

رأى الرُّومُ صُبْحًا أنَّها هي إذْ رَأوْا غَدَاةَ التقَى الزَّحْفان أنَّهما هُما

فمجيئه بالألف قبل الهاء في قوله « أنهما هما» ردئ في حكم القافية ، وذلك لأن العادة جرت إذا جاءت الألف في هذا الموضع ، بأن تكون الأبيات كلها كذلك [٢] . والقافية التي التزمها أبو تمام في هذه القصيدة ليس فيها الألف إلاّ في هذا البيت ، فقافية البيت الذي قبله كلمة « رُسْتما » مطلقة ، والبيت الذي يليه قافيته «منْهما» فشكلّت قافية البيت السابق بدخول الألف فيها نشازًا في موسيقى القصيدة المتناغم في وقع القوافي دون ضرورة ملحّة .

ومن القوافي التي جاءت ضرورة في شعر أبي تمام و عرض لها التبريزي في شرحه تخفيف ياء « الرُّدَيْنيّ » في قوله :

فما أَبقَيْتَ لِلسَّيْفِ اليَمانِي شَجًا فيهمْ ولا الرُّمْحِ الرُّدَيْني

قال التبريزي مبررًا لأبي تمام اللجوء إلى الضرورة في تخفيف التشديد " خفّف ياء «الرُّدَينيّ» للضرورة ، وذلك في القافية كثير ، وهم يحذفون الأصول في الفواصل ، فما بال الفروع ؟ " [٣] .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ١٤١ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٤١ .

(٣) نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٩٩ .

يمكن القول بأن اللجوء إلى الضرورة حق للشعراء المحدثين كما كان حقًا للقدماء، وليس فيه دليل على ضعف الشاعر أو قصوره ، إذا لم يتجاوز الحد المسموح به منها ، بل ربما يدل على ثقته بنفسه ومعرفته برخص الشعر ، وقديمًا قال الخليل : "الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنّى شاءوا ، وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم . . . " [١] .

أمّا فيما يختص باضطراب الوزن ومجيء الزحاف في بعض شعره ، فقد وقف التبريزي عند بعض الملاحظات البسيطة مما لم يتكره الآمدي في الموازنة ، وكان الآمدي قد ذكر سبعة أبيات أكثر فيها أبو تمام من الزحافات الجائزة غير المنكرة إذا قلّت ، فأما إذا جاءت في بيت واحد في أكثر أجزائه فإن هذا - عند الآمدي - يُعدُّ في غاية القبح ويكون بالكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون [٢] ، وفي قوله :

جِلَّةُ أَنْمَارِهِ وَهَمْدَانِهِ والشُّمُّ مِنْ أَزْدِهِ وَمِنْ أُدَدِهْ

زحافات قد تفسد البيت عروضيًا بكثرتها ، إذ حذف الفاء من «مستفعلن» الأولى ، فصارت «مفتعلن» ، وحذف الواو من «مفعولات» الأولى ، « ومفعولات » الثانية فصارت «فاعلات» ، وحذف الفاء من «مستفعلن» الأخيرة فصارت « مفتعلن » . وتقطيعه :

جِلْلَتَأن / مارهيو / همدانهي وششممن / أزدهي و / منأدده

متفعلن فاعلات مستفعلن مستفعلن فاعلات متفعلن

وأشار الآمدي إلى أن هذا كثير في شعره لو تتبعته [٣] ، غير أن التبريزي لم يتتبع ذلك ، بل إنه لم يعرض إلا لبيتين افترض أنه قد حدث فيهما زحاف في روايات مغايرة ، من ذلك ما ذكره من أن قول أبي تمام :

بِني حُمَيْدِ اللَّهُ فَضَّلَكمْ أَبْقَى لكُمْ أَصرمًا فأَسْعَدكُمْ

---

(١) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ١٤٣ .

(٢) انظر : الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ .

" لو نوّن فيه «حُمَيْد» وكسر التنوين لالتقاء الساكنين لظهر فيه زحاف ، يزعم الخليل أنه جائز ، وهو مفقود في الشعر القديم ، ولو زيدت الواو قبل اسم «اللَّه» لسلم من الزحاف وقطع ألف الوصل" [١] .

والموضع الآخر الذي نبه فيه على ما قد يحصل من زحاف ، في شرحه للبيت الذي قبل آخر بيت في القصيدة التي مدح بها أبو تمام إسحاق بن إبراهيم ، وهو قوله :

مَنْ يَسْأَلِ اللّهَ أَنْ يُبْقِي سراتكُمُ فإنَّما سَالَه أن يُبْقِيَ الكَرما

في هذا البيت أتى أبو تمام بالفعل «سأل» على لغتين ، مهموز في الشطر الأول وغير مهموز في الشطر الثاني ، والتبريزي يرى أن الهمز في الفعل «يسأل» هنا أحسن وإن اختلفت اللغتان ، وإن كان ترك الهمز جائزًا ، فالاختيار للهمز ، لأنه أصح للوزن ، ثم أشار إلى أن الطائي قد زاحف في هذه القصيدة مثل هذا الزّحاف في قوله :

«أَرْسَلَكَ اللّهُ للأَعْداءِ مُنْتَقِمًا » [٢] .

ويبدو أن التبريزي قد كتب شطر البيت المثبت هنا من ذاكرته ، حيث أخطأ فيه ، ونصّ البيت كما أثبته هو في متن القصيدة :

حتَّى إذا أَينَعتْ أَثمارُ مُدَّتِهمْ أرسلَكَ اللّه لِلأَعمارِ مُصْطَرِمَا [٣]

ونظن أن الطائي قال «مصطرما» ولم يقل « منتقما » وذلك لما في الأخيرة من الإيطاء مع مثيلتها في قافية البيت التاسع [٤] من القصيدة نفسها ، ولا يمكن أن يخفى مثل هذا على أبي تمام .

كما ذكر التبريزي في بعض مواطن من شرحه أن الطائي ربما استبدل بعض الكلمات بأخرى أو أضاف بعض الكلمات في حشو البيت ، من أجل إقامة الوزن والمحافظة على إيقاع القصيدة في البحر الذي وردت فيه ، من ذلك ما جاء في تعليقه على هذا البيت :

وَطابَتْ بلادٌ أَنْتَ فيها فأَصْبَحَتْ ومَرْبعها غورٌ ومُصْطَافُهَا نَجْدُ

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٧٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق، جـ ٣ ، ص ١٧٥ .

(٣) نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٧١ .

(٤) نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٦٨ .

" إنّما قال : «مربعها» لإقامة الوزن ، ولأنه لم يقدر أن يقول «مشتاها» فاستغنى «بالمربع» ، وهو منزل القوم في الربيع ، والأغوار في الشتاء تكون قليلة البرد ، وتكون النجود في القيظ قليلة الحر " [١] .

والبيت من وزن الطويل ، ضربه سالم صحيح ووزنه «مفاعيلن» ، وعروضه مقبوضة ووزنها «مفاعلن» ، وجاءت «فعولن »التي في أول الشطر الثاني . والتي تقابل جزءاً من الكلمة التي اجتلبها الطائي لإقامة الوزن على حدّ قول التبريزي ، مقبوضة أيضاً ووزنها «فعول» حُذف منه خامسه الساكن ، ويستحسن قليله دون كثيره .

كذلك رأى التبريزي أن الطائي جاء بكلمة «ابن» في قوله :

سَأَخْرِقُ الخَرْقَ بابْنِ خَرْقَاء كَالـ هِيْقِ إِذَا مَا اسْتَحَمَّ في نَجَدِهْ

لإقامة الوزن [٢] . وهذا البيت من القصيدة التي أورد الآمدي منها بيتين من سبعة ذكرها تحت باب (فيما كثر في شعره من الزحاف واضطراب الوزن) [٣] ، وكأن التبريزي هنا يدافع عن أبي تمام أمام الآمدي ولسان حاله يقول : إن اختل وزن شعره في بعض الأبيات فإنه في الباقي صالح ، ويجتلب من الألفاظ ما يقوّم به وزنه ، غير أن ما لاحظه الآمدي من كثرة الزحافات في بيتي هذه القصيدة ينطبق كذلك على هذا البيت، فهو من المنسرح ، وفي الشطر الأول منه ، حذف السين من «مستفعلن» فبقي «متفعلن» ، وحذف الواو من «مفعولات» فصار «مفعلات» ونقل إلى «فاعلات» ، وفي الشطر الثاني حذف الفاء من «مستفعلن» الأخيرة فبقي «مستعلن» ونقل إلى «مفتعلن» ويقال لضربه مطويّ لذهاب رابعه ، ويلاحظ أن أغلب الزحافات التي جاءت في شعره تتمثل في إسقاط السواكن فيرتكز الشعر على توالي الحركات وطغيانها مما يعطي موسيقى فخمة تتسق مع المعنى العام ، والجو النفسي للقصيدة ، "فما وافق انفعالات النفس من الأوزان ، والوحدات الإيقاعية حالة تصوير تلك الانفعالات كان ذلك صورة صادقة لطبائع النفوس المبدعة ، وبهذا لا يكون الوزن منفصلاً عن غيره من عناصر القصيدة الأخرى" [٤] .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٢٩ .

(٣) انظر : الآمدي : الموازنة ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ .

(٤) محمد الحارثي : عمود الشعر العربي : النشأة والمفهوم ، ط : نادي مكة الثقافي الأدبي ، الأولى ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ص ٥٢٨ .

ونختم عرضنا لبعض الملاحظات العروضية التي وقف عليها التبريزي في شرحه لديوان أبي تمام بملاحظة نقدية سجلها التبريزي في شرحه ، تتعلق بالضرب والعروض في غير ابتداء القصيدة ، فقبل نهاية القصيدة التي مدح الشاعر فيها الحسن بن وهب بثمانية أبيات قال :

وإذَا رَأَيْتُكَ والكـلامُ لآلىءٌ   تُومٌ فبِكْرٌ في النِّظامِ وثَيِّبُ

فكأَنَّ قُسًّا في عُكاظٍ يَخْطُبُ   وكأَنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةَ تَنْدُبُ

وكَثِير عَزَّةَ يومَ بَيْنٍ يَنْسُبُ   وابْنَ المُقَفَّعِ في اليَتِيمَةِ يُسْهِبُ

فأشار التبريزي إلى أن أبا تمام "صرّع هذين البيتين في غير أول القصيدة ، والغالب في شعر العرب وغيرهم أن يكون التصريع في البيت الأول ، وربما جاء التصريع في تضاعيف الأبيات وذلك قليل " [(١)] .

والتصريع هو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه [(٢)] . والذي عناه التبريزي في قول أبي تمام السابق تصريعه في البيت الثاني بين العروض «يَخْطُبُ» والضرب «تَنْدُبُ» ، وكذلك في البيت الثالث في «يَنْسُبُ» و «يُسْهِبُ» . وقد كان أبو تمام مغرمًا بهذا اللون من التقفية فاستكثر منه في شعره ، وصرّع مرارًا في غير موضع التصريع[(٣)] ، بل إنه سجل إعجابه بالتصريع وبيان فضله في الشعر ، حين قال :

وتقفو إلى الجَدْوَى بجَدْوَى ، وإنّما   يروقُكَ بيتُ الشِّعرِ حينَ يُصَرَّعُ

والتصريع في غير موضعه قد يكون دليلاً على قوة الطبع ، وكثرة المادة ، غير أنه إذا كثر في القصيدة دلّ على التكلف في غير فائدة ، وما سبب التصريع في أول القصيدة إلا مبادرة الشاعر القافية ليُعلم في أول وَهْلة أنه آخذ في كلام موزون غير منثور ، لذلك وقع في أول الشعر [(٤)] .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص١٣٤- ١٣٥

(٢) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، جـ ١ ، ص ١٧٣ .

(٣) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٩٤ ، ١١٤ ، ٢٩٣ ، جـ ٢ ، ص ٤٩ ، ٣٧٢ ، ٤٣٣ ، جـ ٣ ، ص ١٦٨ ، ٢٠١ ، جـ ٤ ، ص ٧٢ ، ٩٤ ، ٢٢٧ .

(٤) انظر : ابن رشيق : العمدة ، جـ ١ ، ص ١٧٤ .

مما سبق يمكن أن نخلص إلى أن التبريزي قد قدّم في دراسته للأوزان والقوافي في شعر أبي تمام مناقشات عروضية ، دلت على قوة استيعابه وحسن فهمه لكثير من أصول هذا العلم وفروعه ، وقد أثمر كثير من تفسيراته في تحليل بعض الأوزان والقوافي والتقسيمات الموسيقية التي خالف فيها الطائي بعض قواعد العروض وأسس الإيقاع الشعري ، فحدث بسببه اضطراب في النغم الموسيقي المتلاحق في بعض أبيات قصائده . وكشف التبريزي عن موقفه من الشاعر ، وهو موافق لرأي أستاذه أبي العلاء المعري الذي يرى أن ذلك لم يكن من عدم معرفة أبي تمام بنظام القريض والشعر العربي ، وإنما هو موافق لبعض لغات الشعر وإن كانت رديئة . لذا نجد التبريزي في بعض مواطن من شرحه يتبع المعري في تخريج بعض مخالفات أبي تمام ، وتبرير أخطائه ، والإشادة بالحس الموسيقي عنده ، خاصة حينما يتدخل في إقامة وزن الشعر وإصلاح قوافيه [١] .

إن شرح التبريزي بفضل جهد مؤلفه وما أفاده من الشروح السابقة ، **يحتوي في هذا المجال على مادة نقدية غزيرة** ، تميزه عن بقية الشروح الأخرى ، وبخاصة تلك الشروح التي لا تعدّ الوقوف على أوزان الشعر ، وأضربه ، وقوافيه ، عنصراً من العناصر النقدية المهمة في الشرح الأدبي للشعر .

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٣٢٦ .

خامساً :المنظور الدلالي :

لا يغيب عن ذهن شارح الشعر أن مهمته الأساسية في الشرح هي توصيل المعنى الصحيح إلى القارىء ، وبيان مقصود الشاعر منه ، ولسنا نكرر الحديث حين نشير إلى أن التبريزي هرع إلى الشروح المختلفة التي بسطت القول في معاني شعر أبي تمام لينقل منها ما يعبر عن المعنى الأصوب والأفضل في نظره ، لذا فإن شرحه أشبه ما يكون بمعرض يضم إلى شرحه ، آراء وتأويلات الشراح السابقين ، فقد كان ينقل في مواضع من شرحه – في شرح بيت واحد – أقوال عدد من الشراح ، تتضافر أحياناً في أداء المعنى الكلي وتتباين في أحايين أخرى . ويضيف التبريزي على ما قدموا من معانٍ محتملة وقد لا يضيف ، ينسب إليهم أقوالهم وآراءهم وربما نقل دون أن ينسب – أحياناً، فمثلاً لم يشر إلى المعري ولا إلى الصولي حين نقل عنهما معنى قول أبي تمام :

شِعَارُهَا اسْمُكَ إِنْ عُدَّتْ مَحَاسِنُهَا إِذِ اسمُ حاسِدِكَ الأَدْنَى لَها لَقَبُ

فالمعري قال في معناه : " فاسمك شعار الخلافة لأنها تحبك وتعرف موضعك وتعلم أنك ردء ، أي عون ، إذ اسم حاسدك كاللقب لها إذ كانت تبغضه ولا تسمّيه كما يكره الإنسان أن يذكر لقبه المكروه . . . " وفسره الصولي بقوله : "الخلافة إذا عَدّت محاسنها تسمّت باسمك أنك وزيرها ، فهذا اسم لك حقًا ، ومن سُمِّي به سواك فهو لقب له " [١] .

ولم يكن للتبريزي جهد في شرح معنى هذا البيت ، سوى ما فسّر به لفظة «الشعار» الواردة في أول البيت ، حيث ذكر أنه "ما يُدعى به القوم في الحرب ليتميزوا من أعدائهم وليعرفوا أصحابهم ، مثل أن يقولوا : يا آلَ مُضر ونحو ذلك . . . " [٢] .

واتكاؤه على الشراح في تحليل المعنى غير مستقصٍ ، وهو أكثر من أن نسوق عليه

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ .

الشواهد ، فقد أسرف في النقل عن المعري [١] ، ثم عن الصولي [٢] ، كما أخذ كثيراً من المرزوقي [٣] ، ونقل عن الخارزنجي [٤] ، والآمدي [٥] ، والخطيب البغدادي [٦] ، والعَبْدي [٧] ، وغيرهم ، أتى بأقوالهم منفردة ، وضم بعضها إلى بعض في شرح البيت الواحد - أحياناً . غير أن هذا لا يعني أن عمله قد اقتصر في هذا الجانب على جمع الأقوال وسردها كما هي ، لكنه بالإضافة إلى ما يقوم به من تنسيق بين الشروح ، كان يضيف إليها بعض ما يعنّ له من آراء وتأويلات ، وشواهد ، وأشباه ونظائر ، وغيرها ، مما يعبّر عن وجهة نظرٍ خاصة في تحليل معنى البيت المشروح ، ويسهم في كشف الغموض عنه . ظهر هذا بجلاء في الجزئين ، الأول والثاني من شرحه ، حيث كان يكثر فيهما من النقل ، ثم يذكر رأيه في هذه النقول بالزيادة أو الحذف أو بالاختصار والتهذيب .

أما بالنسبة لشروحه وتحليلاته الخاصة ، التي اعتمد فيها على نفسه ، وكانت من إبداعه وبنات أفكاره ، فهي وإن كانت مبثوثة في كتابه إلا أنها تتمثل بوضوح ، في الجزئين الأخيرين من شرحه ؛ لأن كثرة دراسته لشعر الطائي واشتغاله به واطلاعه المتواصل في الشروح ، قد أكسبه مع تقدمه في الشرح فهماً لما أشكل من شعره ، وخبرة في استجلاء معانيه الدقيقة ، ومهارة في العرض والتحليل والتعليل ، لذا نجده كلما تقدم في الشرح يكثر من الاعتماد على نفسه ويتخفف من النقول ، ويميل إلى الاختصار في شرح المعنى بأيسر الألفاظ وأسهل الطرق .

وسنحاول أن نرصد بعض السبل التي سلكها في شرح المعنى ، والأدوات التي

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٩٧ ، ٣٦١ ، جـ ٢ ، ص ٧٤ ، ٢٣٧ ، ٣٦٩ .

(٢) انظر : المصدر السابق : جـ ١ ، ص ١٩٦ ، ٢١٤ ، ٢٩٢ ، جـ ٢ ، ص ٨٢ ، ٩٦ .

(٣) انظر : نفسه : جـ ١ ، ص ١١٩ ، ٣٦١ ، جـ ٢ ، ص ٧٨ ، ١١٨ .

(٤) انظر : نفسه : جـ ١ ، ص ٢٦٣ ، ٢٧٥ ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ .

(٥) انظر : نفسه : جـ ١ ، ص ١٥١ ، ٢١٦ ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ ، ٢٣٦ .

(٦) انظر : نفسه : جـ ٢ ، ص ١١٦ ، ٢٨٤ .

(٧) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ ، ٣٣٢ ، جـ ٣ ، ص ١١٨ ، ٣٤٦ .

استخدمها في تحليل العبارات والتراكيب لبيان وجه الدلالة الشعرية فيها ، وذلك فيما كان من خالص فكره وعلمه ، وليس مما نقله عن غيره وأثبته في شرحه .

يذكر ابن طباطبا أن الشاعر إذا أراد بناء القصيدة "مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه ، والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس له القول عليه ، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته " (١) .

من هذا المنطلق فإن ما يحاوله التبريزي - وغيره من الشراح - هو تقديم معنى البيت الشعري بالصورة النثرية التي كانت في مخيلة الشاعر سلفًا ، فلجأ في مواضع كثيرة من شرحه إلى توظيف أدواته المختلفة ؛ اللغوية والبلاغية ، والتاريخية ، وغيرها ، في تحليل الشعر ونقْل معناه إلى القارىء .

وكانت الصبغة الغالبة على شرحه في سبيل إيضاح المعنى هي الانتقال التدريجي من بيان دلالة الألفاظ وتفسير العبارات المشكلة إلى بسط المعنى الكلي للبيت أو للأبيات الشعرية المتناولة . وكثيراً ما نجده يشير إلى أصول المعاني في الألفاظ وتطور دلالة المفردة من معنى قديم إلى معنى آخر جديد أو ما يطلق عليه التطور الدلالي للكلمة ، وقد ذكرنا سلفًا ملاحظته تفاوت الدلالة في كلمة «الدُّجى» بين المعنى القديم واستخدام المحدثين لها . ونحو ذلك ، ، لفظة «كَابَر» في قول الطائي :

قَدْ كَابَرَ الأَحْدَاثَ حتَّى كَذَّبَتْ عَنْهُ ولكنَّ القَضَاءَ يُكَابِرُهْ

فأصل المكابرة - كما نقله عن المعري - أن تكون بين اثنين يفعل كلٌّ واحدٍ منهما بالآخر كبيراً من الأمر ، ثم عقب على ذلك بقوله "والناس اليوم يستعملون المكابرة في إنكار الحق ، فيقولون كابر فلان فلانًا إذا كان له عليه مال فجحده ، أو قال قولاً فادّعى المنكر غيره ، وأصله ما تقدم " (٢) .

---

(١) ابن طباطبا : عيار الشعر ، ت : طه الحاجري ، ط : المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦م ، ص ٥ .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢١٢ .

إن الألفاظ ركائز أساسية في تكوين العبارات ، ومن ثَمَّ في بناء البيت الذي ينهض بالمعنى العام ، وكانت ألفاظ شعر أبي تمام محل اهتمام الشراح جميعًا ، وقد لاحظ التبريزي تنوع استخدام أبي تمام للألفاظ بين استخدام مألوف يقتصر فيه على الدلالة المعجمية المشتركة ، واستخدام فني تتباين فيه الدلالة وتتغاير بحسب السياقات التي ترد فيها ، فالأصَمّ : تعني الذي لا يسمع لانسداد أذنه وثقل سمعه [١] ، وقد فسرها في قول أبي تمام :

إِذَا كُنْتَ لِلأَلْوى الأَصَمِّ مُقَوِّمًا فَأَوْرِدْ وَرِيْدَيْهِ الأَصَمَّ المُقَوَّمَا

بأن " « الأَصَمّ » في أول البيت يراد به الذي لا يسمع العذل ولا يصغي إليه ، ولا يعني به الصّمم في الأُذُن ، وهذا على إرادة التشبيه ثم حذف آلته على المجاز ، و«الأصَمَّ» الثاني هو الرُّمح الذي ليس بأجوف " [٢] .

وقد وصفت الآية الكريمة الذين لا يهتدون بقول الحق ولا يقبلونه « بالصُّم » مع أنهم يسمعونه بآذانهم ، لكن لمّا لم ينتفعوا به ولم يعوا به ما سمعوا كانوا بمنزلة من لا يسمع ، قال تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [٣] .

ومن أجل المعنى الكلي للبيت نجد التبريزي يقف على بعض العبارات المشكلة في معناها ، ويسلط الضوء على بعض المعاني الدقيقة التي يتأسس عليها الفهم الصحيح للمعنى الشعري ، وبسبب من إشكال العبارة نجد أحيانًا بعض الشراح مختلفين في فهم معنى بيت واحد وفي تفسيره ، فعبارة « كانَ الزَّمَانُ بِكُمْ كَلْبًا » في قول أبي تمام من قصيدته الميمية التي مدح بها مالك بن طوق التغلبي :

كانَ الزَّمانُ بِكُمْ كَلْبًا فَغَادَرَكُمْ بالسَّيْفِ والدَّهْرُ فِيكُمْ أَشْهُرُ الحُرُمِ

المقصود بها عند التبريزي أن قبيلة كَلْب بن وَبْرَةَ لا تُحرّم الأشهر الحُرُم وتستحل فيها الحرب وسفك الدماء ، وعلى هذا يكون المعنى الكلي ، أي كنتم تستحلون فيه ما

---

(١) ابن منظور : لسان العرب : مادة : صمم .

(٢) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٣٨ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٨ .

تستحله كَلْب من إحلال الأشهر الحُرُم ، فغادركم هذا الممدوح والدهر كلّه عندكم كهذه الشّهور [١] . ونظرًا لأن الصولي فهم غير ما أوحت به العبارة إلى التبريزي فإنه يجعل معناه "أي تَعْدُونَ على كل أحد كالكلب ، فغادركم ، أي تركككم بسيفه كأنكم في الأُشْهر الحُرُم من قلة أذاكم " [٢] .

وقد يحصل الإشكال في العبارة بسبب تأليف ألفاظها وترتيبها فيما يشبه المعاظلة اللفظية ، الأمر الذي يضطر الشارح - أحيانًا - إلى إعادة ترتيب ألفاظ العبارة نثرًا ، ليزيل اللبس ، ويكشف الدلالة المقصودة . وفي شرحه للقصيدة التي مدح بها الطائي المأمون في سنة ٢١٧ هجرية ، وهو يومئذٍ في غزو الروم ، وقف التبريزي عند قول الطائي:

يَا يَوْمَ شَرَّدَ يَوْمَ لَهْوِي لَهْوُهُ بِصَبَابَتِي وأَذَلَّ عِزَّ تَجلُّدِي

وحاول إعادة ترتيب العبارة بشيء من التقديم والتأخير في ألفاظ البيت ، فأشار إلى أن "تقديره : يا يوم شرّد لَهْوُه بصبابتي يوم لهوي " [٣] ، وهذا التقدير يبدو مستقى من شرح المرزوقي حين ذكر أن الشاعر يريد : "يا أيها اليوم الذي شرد لهوه يوم لهوي، وأزال ما كان مصونًا من صبري " [٤] .

بعد توضيح بعض الجوانب الدلالية في ألفاظ البيت وعباراته يعرض التبريزي للمعنى العام فيبسطه - غالبًا - فيما لا يجاوز سطرين أو ثلاثة أسطر ، متوخيًا الألفاظ السهلة والعبارات السلسة في أسلوب غير متكلف ، قال أبو تمام :

شُعْلَةٌ في المَفَارِقِ اسْتَوْدَعَتْني في صَمِيمِ الفُؤَادِ ثُكْلاً صَمِيمَا

تَسْتَثِيرُ الهمُومُ ما اكتَنّ مِنْها صُعُدًا وهْيَ تَسْتَثِيرُ الهُمُومَا

شرحه التبريزي بقوله : "إن هذه الشعلة من الشيب تستثيرها الهموم المكتنة ؛ لأن

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ١٩٠ .

(٢) الصولي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٣٥١ .

(٣) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٤٥ .

(٤) المرزوقي : شرح مشكلات ديوان أبي تمام ، ص ٩ .

الناس يقولون إن الهمّ والحزن وما يلقاه الرجل من الشدائد ، يعجل الشيب ، وكذلك قالوا أمرٌ يشيب له الوليد ، أي يفزع منه ، فيتقدّم شيبه في غير وقته " [١] .

كثيراً ما يتخطى التبريزي بيان الدلالة في الألفاظ والعبارات إلى شرح المعنى العام مباشرة ، فلا يورد غير المعنى شيئًا من عناصر الشرح الأخرى [٢] ، غير أنه غالبًا ما يتعامل بهذه الطريقة مع الأبيات الواضحة ، التي تخلو من الألفاظ الغريبة والعبارات المشكلة ، من ذلك اقتصاره على إيضاح المعنى في قوله :

لَوْ لَم يَمُتْ بينَ أَطرافِ الرِّماحِ إذًا لَمَاتَ إِذْ لَم يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الحَزَنِ

قال : " المعنى أنه كان يكره أن يموت حتف أنفه وعلى فراشه ، فلو لم يمت في المعركة والرماح تتناوله لمات من شدة حزنه أنه لم يمت كذلك ، لأن الموت على هذا الوجه يُعدّ فخرًا " [٣] .

وإذا رجعنا إلى خطبة كتابه نجد أن التبريزي قد وعد بذكر المعاني المحتملة في البيت الواحد ، وبيان المعنى الأقوى منها ، غير أنه بعد التمحيص فيما كان من عمله وجهده الخاص في الشرح اتضح عدم برّه بما وعد به إلاّ في القليل النادر ، ومن الأبيات التي ذكر لها أكثر من وجه ، قول الطائي :

وَجَّهَ العِيسَ وهْيَ عِيسٌ إلى اللـ ـه فآلَتْ مِثْلَ القِسِيِّ حَطِيما

حيث ذكر أنه " إنما يريد أحد أمرين : إما أن يعني ما أثّرت فيها الرحال والأقتاب من العقور والجلب ، فجعلها كالشامات : وإما أن يعني مواضع أجسادها ظهر فيها العَرَق ، فكان مخالفًا للونها " [٤] .

المعنى الثاني عند التبريزي أشبه بالأول ، أي أنه أقرب إلى مراد الشاعر ، وقد استند التبريزي في ترجيحه للمعنى الثاني وتقويته له على ما ورد في سياق الشعر

العربي ، فهم يصفون الإبل بأن العَرَق يُجلّلها ، قال الشاعر :

صَبَغَ الهَواجرَ لونُها فكأنَّما يجتابُ فوقَ جُلُودِها الأَمْسَاحَا

وقال الراجز : جُوْنًا كأنَّ العَرَقَ المَنْتُوحَا

ألبَسَهُ القَطْرانَ والمُسُوحَا[١]

لقد استخدم التبريزي عبارات مثل ، أحسن [٢] ، وأجود [٣] ، وأبلغ ، أحيانًا ، للمفاضلة بين المعاني المختلفة ، وللدلالة على أن أحد الوجوه أرجح من غيره ، ذلك على نحو ما نجد في تأويلاته في هذا البيت :

صَاغَهُمُ ذُو الجَلالِ مِنْ جَوْهرِ المجْـ ـدِ وصَاغَ الأَنَامَ مِنْ عَرَضِهْ

" هذا مأخوذ من الجوهر والعَرَض اللذين وضعهما المتكلمون ، لأن «الجوهر» عندهم أثبت من العرض ، والذي أحوج إلى هذا التأويل مجيء «العَرَض» في الشطر الثاني ، ويجوز أن يُجعل «الجوهر» ها هنا من الجواهر التي هي دُرٌّ وياقوت ، ونحو ذلك، وهو أبلغ من الوجه الأول ، ويحمل التبريزي مجيء « العرض » على معنى التورية ، لأن العرض قد جرت عادته أن يُذكر مع الجوهر الذي يستعمل في صناعة الكلام [٤] .

تجدر الإشارة إلى أنه استعان في شرحه بعدد من الوسائل والأدوات التي تسهم في توضيح المعنى ، وإزالة بعض أسباب الغموض ودواعيه التي تحيط بالمعنى ، نذكر منها ؛ **اعتماده على السياق العام للقصيدة في تفسير بعض الأبيات** ، بحيث يزيح الإشكال والغموض عن معاني بعض الأبيات بالاستدلال ببعض ما ورد قبل البيت أو بعده من أبيات القصيدة نفسها ، وقد تكرر في شرحه عبارات ، مثل ، "يدل على هذا ما بعده " [٥] أو "الذي بعده يدلّ عليه " [٦] وغيرها [٧] .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٢٦ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٧٧ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٧٥ .

(٦) انظر : نفسه : جـ ١ ، ص ٣٦ .

(٧) انظر : نفسه : جـ ١ ، ص ١٠٤ .

وفي كثير من الأحوال تكون معرفة معنى البيت والقطع بوجه من وجوه المعاني المحتملة فيه محتاجة إلى إعادة البيت إلى سياقه الذي وقع فيه ، لأن البيت إذا انفرد احتمل تأويلات كثيرة ، لذلك عندما وقف التبريزي على قول الطائي :

أَجْدِرْ بِجِمْرةِ لَوْعةٍ إِطْفَاؤُها بالدَّمْعِ أَنْ تزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

ذكر أن قوله السابق :

مَالِي بِرَبْعٍ منْهُمُ مَعْهُـــود إلاَّ الأَسَى وعَزِيمَةُ المَجْلُـــودِ

دلّ على أن المعنى في الأبيات بعده "هو الإعراض عن البكاء على الرَّبْع والتسلي عنه بالصبر " [١] .

كذلك حين أشكل المراد من عبارته "في صَهْوَتَيْهِ العَيْنُ" الواردة في الأبيات التي وصف بها الشاعر فرسًا حمله عليه الحسن بن وهب ، لجأ التبريزي إلى السياق لمعرفة المراد :

إِمليسُه إِمليـــدُه لَوْ عُلِّقَـــتْ في صَهْوَتَيْهِ العَيْنُ لم تَتَعلَّـــقِ

يُرقَى وما هو بالسَّلِيمِ ويَغْتَدِي دُوْنَ السِّلاحِ سِلاحَ أَرْوَعَ مُمْلِقِ

فأشار إلى أن "مجيء « يُرْقَى » في أول هذا البيت يدل على أنه أراد «بالعَيْن» في البيت الأول : التي تُصيب الإنسان ، " ثم قال : " ومثل هذا كثير يتفق في الشعر ، يكون البيت يحتمل وجوهًا فإذا سمع البيت الذي يليه قصره على واحد من تلك الوجوه . . . " [٢] .

إنّ مما يعدّ للتبريزي في هذا المجال ويحسب له : هو وعيه المبكر لقضية السياق العام للأبيات ، وأن بعض الشعر لا يفهم معناه إذا عُزِلَ عن سياقه .

كما عوّل التبريزي في فهم المعنى على بعض المعارف والأحداث والأخبار التاريخية والحروب والأيام والأنساب والقصص التي لا يمكن أن يفهم البيت في معزلٍ عنها ، أو

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٨٨ .

(٢) المصدر السابق : جـ ٢ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .

أنها تسلط الضوء على جانب كبير من المعنى ، ينتج عن عدم الاهتمام به تعدد التوجيه المعنوي في البيت واختلاف تفسيره ، وكثير من شعر أبي تمام يتصل بالتاريخ اتصالاً وثيقًا ، حيث تغنّى الشاعر بأمجاد الأمة الإسلامية في عصره ، فأنشد في حرب الثغور والغزوات ، والفتوحات ، ورثى الخلفاء والوزراء والقواد ، واستلهم بعض مواقف من تاريخ العرب القديم ، وأيامهم ، وأنسابهم ، وسجل كثيراً من ذلك في شعره ، فأصبح فهم عدد غير قليل من أبياته متوقفًا على معرفة ما يتضمنه البيت من الأحداث التاريخية . وتعلّق بعض الأبيات بذكر أيام العرب جعل بعض الشراح يقف عند هذه الأبيات لتقديم المعارف التاريخية عن هذه الأيام ، التي يصعب فهم المعنى بمعزل عنها ، وفي القصيدة التي مدح بها أبو تمام إسحاق بن إبراهيم ، وذكر إيقاعه بالمحمرّة ، أصحاب بابك ، ومطلعها :

خَشُنْتِ عليهِ أُختَ بَني خُشَيْنِ وأَنجَحَ فيكِ قَوْلُ العَاذِلَيْنِ

حشد الشاعر أسماء عدد من الأيام والوقائع التي حفل بها التاريخ العربي على مرّ العصور المختلفة ، وقد وقف التبريزي عند بعضها ليوضح المراد ويبسط المعنى على ضوء ثقافته التاريخية ، من ذلك تفسيره لما جاء في قوله :

ويَوْمَ البِشْرِ أَنْسَتْهُ وهَدَّتْ وقَائعَ رَاهطٍ وبَنَاتِ قَيْنِ

حيث ذكر أن « البشر » موضع معروف ، تنزل به البادية إلى اليوم ، وقد سُمّي البشر باسم رجل كان فيه ، يعرف ببشر بن مالك ، وإنما عنى الطائي وقعة الجحاف بن حكيم السُّلمي ببني تغلب في هذا الموضع ، فقتل الأطفال ، وبَقَرَ بطون الحبالى ، فقال الأخطل :

لَقَدْ أَوْقَعَ الجحَّافُ بالبِشْرِ وَقْعَةً إلى اللَّه منها المُشْتَكى والمُعوَّلُ

« ومرج راهط » - و « راهط » رجل من قضاعة - كانت فيه الوقعة بين آل مروان وابن الزبير ، وكانت قيس مع ابن الزبير ، وكلب مع مروان ، وفيه قُتل الضَّحّاك بن قيس

الفهريّ . « ويوم بنات ـ قين » : يوم أوقعت فيه فزارة ومن ضامَّها بكلب وَبْرَة " [١] .

إن شرح البيت لا يمكن أن يتم إلا بذكر أخبار تلك الأيام التي وردت فيه ، بل إن تفسير بعض الأبيات السابقة في القصيدة وفهم معناها متعلق بها ، لأن الشاعر إنما عدّد هذه الأيام في معرض الإشادة بوقعة الممدوح بأصحاب بابك ، فيقول : إن وقعتك بهم أربت على وقعات من كان قبلك ، وأنست حروب الملوك المتقدمة [٢] .

كذلك استعان التبريزي بمعرفته الواسعة بأنساب العرب وقبائلهم ورجالهم المشهورين في شرح المعنى وبيان مراد الشاعر ببعض الأسماء التي ترد في بعض الأبيات ، ومن الغامض في شعر أبي تمام قوله في مطلع المقطوعة التي مدح بها مالك ابن طوق :

قُلْ لابنِ طَوْقٍ رَحَى سَعْدٍ إِذَا خَبَطَتْ نَوائِبُ الدَّهْرِ أَعْلاها وأَسْفَلَها

وسبب الإشكال عدم معرفة المراد « برَحَى سَعْد » على وجه الدقة ، لذا فإن التبريزي يذهب إلى أن الأرحاء هي أرحاء العرب وهي فيما ذكر أبو عبيدة ستّ ، اثنتان في مُضَر ، وهما كنانة بن خزيمة ، وتميم بن مُرّ ، واثنتان في ربيعة وهما بَكْر بن وائل ، وعبد القيس بن أفصى ، واثنتان في اليمن وهما طيىء بن أُدد ، وكلب بن وَبْرَة ، وعلى هذا يكون مراد الطائي « برحى سعد » عنده ، أن هذا الممدوح عماد لقومه يطيفون به ، وأومأ إلى أنه كأحد هذه الأرحاء المتقدّم ذكرها في عظم الشأن وحماية البلاد ، ومن ذلك قيل رحى العرب أي معظمها وموضع مجالها ، كما جوّز أن يكون المراد بالرّحى «الأرض المرتفعة المستديرة» وشُبّهت القبيلة بها كما تشبه بالجبل والهضب [٣] .

كان أبو تمام إذا مدح رفع من شأن ممدوحه وأشهر مناقبه ، وبيّن شرف قبيلته ومآثر قومه ، وتحدث عن أهل الشرف من أهله ، لذلك نرى شعره يزخر بذكر كثير من أسماء الأعلام والقبائل التي اختلف الشراح في تفسيرها وفي مراد الشاعر منها [٤] .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٢) انظر : المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ٣٠٠ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٨٦ .

كما عوّل التبريزي في شرح المعنى الكلي للبيت على حصيلته الثقافية مما اختزنه في ذاكرته أو كان مدونًا في الكتب التي بين يديه ، فاستعان في شرح المعنى في بعض الأبيات بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة [١] ، ووظف التراث الشعري في فهم شعر أبي تمام وجعله سياقًا له في كثير من المعاني الظاهرة أو المجازية [٢] ، كذلك استخدم بعض الأمثال المضروبة مما له قيمة فنية ومعنوية في تفسير بعض الأبيات التي تنطوي على حكمة غائبة أو معنى شارد ، يساعد المثل في الدلالة عليه [٣] ، ولكي نلاحظ مدى استفادته من التراث في شرح المعنى نقتصر على مثال واحد عوّل فيه التبريزي – في سبيل بسط المعنى – على عادة العرب وتقاليدهم في الجاهلية ، فحين مدح أبو تمام أبا سعيد الثغري بقوله :

سَمَقَتْ بِهِ أَعْرَاقُه في مَعْشَرٍ قُطْبُ الوَغَى نُصُبٌ لهُمْ ودَوَارُ

ذكر في الشطر الثاني من البيت ما يتعلق بعادة كانت للعرب في الجاهلية ، قال التبريزي : "« النُّصُب » : ما كان ينصب في الجاهلية من الأصنام وما يتصل بها ، فالنصب على نوعين : أحدهما لم يكن يدار به ، وإنما ينصب ليذبح عليه ، أو يتبرك به ، والآخر : هو ما يعظمونه أكثر من تعظيم الأول ، لأنهم يتقربون إلى هذا بأن يطوفوا حوله " [٤] واستشهد التبريزي على تفسيره هذا بقول امرىء القيس :

"عَذارَى دَوَارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّل"

وبقول عامر بن الطفيل :

ألا يا ليتَ أَخْوالي غَنِيًّا عليهم كلَّما أَضْحوْا دَوَارُ

ثم قال : " فأمّا بيت الطائي فلا ينبغي أن ينشد «دَوَار» إلا بفتح الدال ، لأنه لم يعن إلا الشيء الذي يدار به " [٥] .

---

(١) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٤٦٣ .

(٢) انظر : المصدر السابق : جـ ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ١٢١ ، جـ ٣ ، ص ٢٤ ، جـ ٤ ، ص ٥٦١ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ .

وبرغم الاستطراد في الشرح والاستشهاد ، فإن التبريزي يوقفنا على جذور معنى البيت ، فيكون مراد الشاعر ، أن قوم هذا الممدوح جعلوا قطب الحرب لهم كالصنم يطوفون به ويعكفون عليه ترعاه أعراقهم وتحميه من نيل الأعداء ، وأن مدار الحرب عليهم وهم أصحابها .

بقي أن نشير إلى **نقطة مهمة** : وهي أن التبريزي مع ما بذله من اهتمام بالجوانب الدلالية في البيت الشعري ، فإنه في بعض مواضع من شرحه قد جانبه التوفيق والصواب ، فلم يسلم من الزلل والوقوع في بعض الخطأ ، حيث فسر بعض الأبيات على غير مراد الشاعر ، بل ربما جاء بضده ، وقد تعقبه ابن المستوفي في شرحه لعدد من الأبيات ، وردّ عليه تفسيره وبيّن له المعنى الصحيح الذي قصده أبو تمام ، في غير سخرية ولا تهكم ، من ذلك ما جاء في تفسيره لهذا البيت :

سَرَى رِدَاءَ الهَوَى في حِينَ جِدَّتِهِ وَاهًا لَهُ ، مِنْهُ مَسْرُوّاً ومَلْبُوسَا !

حيث ذهب التبريزي إلى أن معناه "أنه نزع رداء لهوه في شبابه ، ثم أخذ يتعجب من رداء اللهو منزوعًا وملبوساً ، لتناهيه في الحالتين جميعًا ، يقول : لو لبسته لتناهيت وتماديت في استعمال اللهو ، فكذلك إذا نزعته تناهيت في الزهد والعفة ، فصار هذا الرداء متعجباً منه في الحالتين ، ويعني في الحقيقة التعجب من فعله " (١) .

وردّ ابن المستوفي على أبي زكريا ، فذكر أن الأمر ليس كما ادّعاه من التناهي في حالتي نزعه ولبسه فقد يلهو الإنسان ولا يتناهى في اللهو ، ويزهد ولا يتناهى في الزهد، وقد يكون له في كل واحدة من الحالتين قوام بينهما " (٢) .

إن شدة خفاء المعنى – في البيت – جعلت الشراح مختلفين حول تحديد المعنى الدقيق المخبوء في ألفاظ البيت . وليس هناك ما يشير إلى أن الشاعر قصد التناهي في الزهد في حالة نزعه ثوب الهوى أو التناهي في اللهو في حالة لبسه على سبيل الاستعارة ، ويبدو أنه أراد : أنه خلع رداء الهوى وهو لا يزال جديداً ، ولم يله به إلاّ مدة

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٤ .

قصيرة ، ثم تعجب من حاله مع الهوى ، إن تركه حنّ إليه وإن انساق معه أنفَ منه ورغب عنه ، لذا فإنه في معاناة ومقاساة من لوعات قلبه وهمومه ومن تذكر مرابع اللذات والمناظر الأنيقة ، كما عبّر عن ذلك في الأبيات التي تلي البيت السابق . وعلى هذا فإن رأي ابن المستوفي أرجح في نظرنا من رأي التبريزي .

وجملة القول: إن التبريزي قد أسهم بجهده في تنوير النصّ الشعري لديوان أبي تمام ، بتفسير بعض المفردات الغريبة ، وشرح بعض العبارات الغامضة ، وبسط المعنى الكلي لبعض الأبيات ، وقد سلك من أجل ذلك سبلاً مختلفة واستعان بأدوات متنوعة سهّلت في مواضع كثيرة فهم المعنى الشعري ، وساعدت في بيان غرض الشاعر وكشف حقيقة مراده ، فعوّل في شرحه للمعنى على الشعر العربي عامة ، وعلى سياق شعر أبي تمام خاصة ، وعلى مذاهب العرب وطرق نظمهم للشعر . كما استعان في سبيل ذلك بما لديه من معارف ثقافية وأدبية وتاريخية ، من أجل تدعيم ما ذهب إليه من توجيهات معنوية ، فقدم الشواهد ، والأمثال ، والأشباه والنظائر، وغيرها .

لقد أتاح التبريزي - للقراء - بما نقله من بعض شروح السابقين وما ذهبوا إليه من توجيهات معنوية ، وما دار بينهم من مناقشات ، وما صدر منهم من تعقيبات فرصتين : الأولى : الوقوف على بعض ما جاء في بعض الشروح المفقودة التي لم يصل إلينا منها إلا هذه النقول ، والثانية : فرصة الاطلاع على أقوال وآراء الشراح المختلفة ومعرفة مواضع الاتفاق والاختلاف ونقاط الالتقاء والافتراق فيها . ومن ثم يكون اختيار كل قارىء حسب ذوقه وميله .

إن ما يحمله شرح التبريزي بين دفتيه سواء في المادة والمنهج ، أو فيما تناوله من قضايا وعالجه من مشكلات في شعر أبي تمام تعد أموراً ذات قيمة نقدية وأدبية تميّزه عن غيره من الشراح الذين وقفوا عند شرح ديوان أبي تمام . كما أن شرحه يعد حلقة متميّزة في تاريخ شروح الشعر العربي القديم .

الفصل الثالث

شرح ابن المستوفي

تقديم :

يذكر ابن خلكان الذي عاصر ابن المستوفي وقابله وسمع منه في إربل - أن اسمه ، أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب اللخمي ، الملقب شرف الدين ، المعروف بابن المستوفي الإربلي [١] .

وقد سَمّى ابن المستوفي نفسه في مواضع كثيرة في كتابه « النظام » وبعض مؤلفاته الأخرى ؛ «المبارك بن أحمد» ؛ إذ يقول على طريقة المؤلفين القدماء : " قال المبارك بن أحمد " أو " قال المبارك بن أحمد المبارك " [٢] . وهذه هي التسمية الصحيحة التي أجمعت عليها كتب التراجم ؛ ولم تختلف إلا في ذكر بعض الكُنى والألقاب ، فهو عند السيوطي"المبارك بن أحمد بن أبي البركات المبارك بن موهوب بن غنيمة.." [٣]. والزركلي يسمّيه : " المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإربلي المعروف بابن المستوفي " [٤] . بينما نجد بروكلمان يختصر اسمه إلى " شرف الدين المبارك بن أحمد المعروف بابن المستوفي " [٥] .

كان مولده في النصف من شوال سنة أربع وستين وخمسمائة بقلعة إربل ، وهو من بيت كبير كان فيه جماعة من الرؤساء والأدباء ، فقد تولى أبوه «أبو الفتح أحمد» وعمه « علي بن المبارك » وظيفة كبيرة لسرقتكين الزيني حاكم إربل ، كما تولى ابن المستوفي في تلك البلاد ديوان الاستيفاء ، ثم تولى بعد ذلك الوزارة في سنة تسع وعشرين وستمائة ، فكان جليل القدر ، كثير التواضع ، واسع الكرم ، وفي هذه السنة مات مظفر الدين فأخذ الخليفة العباسي المستنصر بالله إربل ، فترك ابن المستوفي وظيفته ولزم بيته ، وحين استولى التتار على إربل انتقل إلى الموصل وأقام بها حتى توفي يوم الأحد لخمس خلون من المحرم سنة سبع وثلاثين وستمائة هجرية [٦] .

---

(١) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٤٧ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام : جـ ١ ، ص ٤٨٧ ، ٥٣١ ، ٥٤٥ ، جـ ٢ ، ص ٥٦ ، ٦٣ ، ١١٢ .
وانظر : ابن المستوفي : تاريخ إربل : ت : سامي الصقار ،
ط : وزراة الثقافة والإعلام ، العراق ، ١٩٨٠م ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

(٣) السيوطي : بغية الوعاة ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٤) الزركلي : الأعلام ، جـ ٦ ، ص ٢٤٩ .

(٥) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، جـ ٥ ، ص ١٧٦ .

(٦) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٤٧ ، ١٥١ .
وانظر : ابن المستوفي : تاريخ إربل : جـ ١ ، ص ٢٠ .

ثقافتـــه : لم تتحدث المصادر الأدبية والتاريخية عن حياة ابن المستوفي العلمية كثيراً ، وما عثرنا عليه عن حياته العلمية هو شذرات تشير إلى أنه كان ماهراً في عدد من فروع العلم والمعرفة ، وكان إمامًا وعَلَمًا بارزًا في عصره ، كثير المحفوظ ، جيد النظم والنثر ، وعنده من الكتب النفيسة شيء كثير [١] . وابن المستوفي يعد ابن بيئته ونتاج عصره ، نشأ بإربل مسقط رأسه ، ثم انتقل في آخر حياته إلى الموصل ، وكانت هاتان المدينتان من حواضر العلم والمعرفة ، تزخران بالعلم والعلماء ، ففيهما مجمع العلماء وملتقى الطلاب والأدباء والشعراء ، وقد شجّع الأتابكةُ العلماءَ والطلاب ، فبنوا المدارس ودور العلم وبذلوا المال للعلماء ، فنشطت الحركة العلمية ، وانتشر العلم والعلماء ، فتهيأ لابن المستوفي أن يجلس في عدد من حلقات العلم آنذاك ، ويتعلم على يد عدد من العلماء في إربل دون أن يرحل إلى غيرها من المدن [٢] ، بل إن من أسرة ابن المستوفي نفسه – كما ذكرنا – علماء وأدباء ، فعمّه « علي بن المبارك بن موهوب » هو الذي نقل « نصيحة الملوك » تصنيف حجة الإسلام أبي حامد الغزالي من اللغة الفارسية إلى العربية [٣] .

وقد بدأ ابن المستوفي حياته العلمية – كما ذكر عن نفسه – وهو صغير في جامع القلعة ، وفي دار الحديث بإربل [٤] ، وقرأ القرآن الكريم ، والأدب على محمد بن يوسف البحراني ، ومكي بن ريان ، وسمع من ابن طبرزد وحنبل بن عبد الله [٥] ، قال ابن خلكان : " سمعت بقراءته على المشايخ الواردين على إربل شيئًا كثيراً ، فإنه كان يعتمد القراءة بنفسه " ولم يصل إلى إربل أحد من الفضلاء إلا وبادر إلى زيارته وحمل إليه ما يليق بحاله ، ويقرب إلى قلبه بكل طريق ، وخصوصًا أرباب الأدب فقد كانت سوقهم لديه نافقة ، وكان جمَّ الفضائل عارفًا بعدة فنون ، منها الحديث وعلومه ،

---

(١) انظر : السيوطي : بغية الوعاة ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

(٣) انظر :ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٥١ .

(٤) انظر : ابن المستوفي : تاريخ إربل ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

(٥) انظر : السيوطي : بغية الوعاة ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ .

وأسماء رجاله ، وجميع ما يتعلق به ، حتى أصبح إماماً فيه [١] ، وقد ظهر أثر دراسته علوم الحديث في موقفه من رواية شعر أبي تمام والمتنبي ، حيث كان حريصاً على توثيق الرواية والتثبت من صحتها . ومن العلوم التي درسها وتفوّق فيها علم الأدب وما يتعلق به من النحو ، واللغة والعروض ، والقوافي ، وعلم البيان ، وأشعار العرب ، وأخبارهم ، وأيامهم ، ووقائعهم وأمثالهم ، وقد ساعده هذا على تذوق شعر أبي تمام ، والكشف عن بعض غوامضه ومعانيه الدقيقة ، وأكسبه قدرة أدبية ولغوية كبيرة ناقش بها الشراح وتعقبهم في بعض شروحهم ، وعلّق على كثير من أقوالهم .

وأخيراً ما كان لابن المستوفي أن يتولى الوزارة وديوان الاستيفاء في عصره ، لولا ثقافته ، وغزارة علمه ، واطلاعه على كثير من الكتب الدينية والأدبية والتاريخية، وبراعته في كثير من أصناف العلم ، وخاصة فيما يتعلق بعلم الديوان وحسابه ، وضبط قوانينه على الأوضاع المعتبرة في عصره . يقول محقق كتابه « النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام » : " ويخيّل إليّ أن هذا - علم الديوان - أحدث أثره في ذهنيّة الرجل فظهر في معالجته لمسائل الأدب ، واللغة ، والضبط ، والقياس ، فهو عندما يقرأ شعر الشاعرين ، ويقرأ الشروح التي تناولت شعريهما يقرأهما بإمعان ودقة ، وبنظرة ثاقبة ، فإذا تبيّن له خلل في الشعر ذكره ، وإذا تبين له الخلل في الشرح نقده ، وإذا كان الخلل في عدم مطابقة الشرح للنص بزيادة أو نقصان نبّه إليه ، وكأنه يعتمد مقياساً يحاول من خلاله أن يكشف الزائد أو الناقص كما يفعل أهل الحساب ، ليكشف الغلط " [٢] .

كان ابن المستوفي يعاصر جماعة من العلماء المشهورين ، منهم أبناء الأثير ؛ مجد الدين أبو السعادات ، وعز الدين أبو الحسن ، صاحب كتاب « الكامل » في التاريخ ، وضياء الدين أبو الفتح ، صاحب كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، ومنهم طائفة من العلماء ، عرفوا « بعلماء البيت الإربلي » وغيرهم من العلماء ، والأدباء ، والشعراء في ذلك العصر [٣] .

---

(١) انظر :ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٤٧ .

(٢) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ١٥٣ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٣٨ .

ولقد كان لإلمام ابن المستوفي بكثير من علوم القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وعلوم الأدب ، واللغة ، والتاريخ دور بارز في تنوع ثقافته ونضج شخصيته ، لذلك جاءت مؤلفاته في علوم متعددة ، تشتمل على موضوعات مختلفة ، ومن أهم مصنفاته :

« **النِّظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام** » ، في عشرة مجلدات ، وهو موضع دراستنا من مؤلفاته وسنعرض له بالوصف والدراسة المفصلة فيما بعد .

« **تاريخ إربل** » في أربعة مجلدات [١] ، أحال عليه ابن خلكان في مواضع عديدة من كتابه « وفيات الأعيان » [٢] .

«**إثبات المحصَّل في نسبة أبيات المفصَّل**» يقع في مجلدين ، شرح فيه الأبيات التي استشهد بها الزمخشري في « المفصّل » .

« **سر الصنيعة** » ، وهو عند صاحب وفيات الأعيان يسمى « سر الصنعة » [٣] .

« **أبا قماش** » كتاب جمع فيه أدباً كثيراً ونوادر وغيرها .

ومن مؤلفاته التي ذكرها في شرحه ، كتاب « **الأمثال والأضداد** » [٤] .

وله **ديوان شعر** أجاد فيه ، ومن أشعاره التي يُتغنى بها :

يا ليلةً حتّى الصَّباح سهرتُها ... قَابلتُ فِيها بَدْرَها بأخِـيه
سَمَحَ الزَّمَانُ بِها فَكَانَتْ ليلةً ... عَذُبَ العتَابُ بها لمُجْتَذبيه
أَحْيَيْتُها وأمتُّها عَنْ حَاسِـدٍ ... مَا هَمُّهُ إلاَّ الحَدِيثُ يَشِـيه

وله أيضاً :

رعَى الله لَيْلات تَقَضَّتْ بِقُرْبِكم ... قِصَاراً وحَيَّاهَا الحَيَا وسَقَاهَا
فما قُلْتُ إيْه بَعْدَها لمُسَـافِرٍ ... منَ النَّاسِ إلاَّ قَالَ قَلْبِي آهَا[٥]

---

(١) حققه سامي الصقار ، ونشرته وزارة الثقافة والإعلام العراقية سنة ١٩٨٠م .

(٢) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٤٧ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٤٧ .

(٤) ابن المستوفي : النظام : جـ ٢ ، ص ١١٤ .

(٥) انظر :ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

وقد حظيتْ هذه المؤلفات باهتمام الدارسين ، وعناية العلماء ، فتناولوها بالشرح والتحليل ، واستمدوا منها كثيراً من المعلومات والأخبار والأشعار ، وأحالوا عليها في بعض مؤلفاتهم وكتبهم ، كما حظي صاحبها بتقدير كثير من العلماء والأدباء ، فأنزلوه منزلة عالية وأشادوا بمكانته ، وقد رثاه بعد وفاته - أبوالعز يوسف بن النفيس الإربلي بقصيدة منها :

أَبَا البركاتِ لو دَرَتِ المَنَايَا بأَنَّكَ فرْدُ عَصْرِكَ لَمْ تُصبِكَا

كَفَى الإسلام رُزْأً فَقْدُ شَخْصٍ عَلَيْه بأَعْيُنِ الثَّقَلين يُبْكَى [١]

❁ ❁ ❁

رؤيـــة وصـفيـــة:

ذكرت بعض الكتب التي ترجمت لابن المستوفي أنه ألّف كتاب «النّظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام» في عشرة مجلدات جمع فيها كل ما وصل إليه من شروح شعر هذين الشاعرين الكبيرَيْن [٢] ، غير أنه لم يصل إلينا من هذه المجلدات العشرة إلا جزءان من نسختين خطيتين مختلفتين ، هما ما عوّل عليه الباحث في أثناء دراسته لشرح ابن المستوفي على شعر أبي تمام ، أمّا ما تبقى من كتاب ابن المستوفي ، وهو يشكّل الجزء الثالث من الكتاب ، ويحتوي بقية قصائد أبي تمام على حروف اللام والميم والنون ... حتى الياء ، وقصائد المتنبي من اللام إلى الياء أيضًا ، فلا يزال مفقوداً ، لم يُعثر عليه حتى اليوم .

وقد ذكر بعض الباحثين [٣] أن كتاب «النظام» يتكون من أربعة أجزاء دون أن يستند إلى دليل مادي يثبت ذلك ، والحق أن النظام يتكون من ثلاثة أجزاء كبيرة ، يوجد

---

(١) انظر :ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٥١ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٤٧ .

(٣) المعري : معجز أحمد ، ت : عبد المجيد دياب ،
ط : دارالمعارف ، الثانية ، القاهرة ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م ، جـ١ ، ص ٨٥ .

لدينا جزءان من المخطوط ، أما الجزء الثالث الذي يستغرق شرح بقية القوافي من حرف اللام إلى الياء فهو مفقود .

الجزء الأول: مصور في ثلاثة مجلدات ، عن نسخة مصورة في مجلدين محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٠٦٤٠ ز ، وأصلها المحفوظ بمكتبة سوهاج ، برقم ١٣٥ أدب ، وهو مما كانت تحتويه مكتبة آل رفاعة الطهطاوي ، ثم أهدي أخيراً إلى مكتبة سوهاج . ويقع هذا الجزء في ٧٧٢ ورقة ، في كل منها ٢٩ سطراً ، مكتوب بقلم تعليق (فارسي) ، من القرن الحادي عشر تقريبًا ، ويبتدىء بهمزيات أبي تمام والمتنبي ، وينتهي بآخر شرح قصيدة أبي الطيب المتنبي الدالية التي مطلعها :

كَمْ قَتِيلٍ ، كَمَا قُتِلْتُ ، شَهِيدِ بِبَيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ

وفي آخر هذا الجزء ما نصه :

"تمّ الجزء الأول ، والحمد لله رب العالمين ، يتلوه الجزء الثاني : قال أبو الطيب يمدح علي بن إبراهيم التنوخي" [١] ولم يذكر الشعر الذي في أول الجزء التالي ، وقد بينه الناسخ على الهامش بقوله : ويتلوه في المجلد الثاني :

"أُحادٌ أمْ سُداسٌ في أُحَادِ" [٢]

الجزء الثاني: مصور من نسخة أخرى تقع في مجلدين ، وهي مصورة عن النسخة التي صورتها بعثة الإدارة الثقافية ، بجامعة الدول العربية إلى استامبول سنة ١٩٤٩م من الأصل المحفوظ بمكتبة « يني جامع » برقم ١٠١٥ ، ويقع هذا الجزء في ٥٤٤ ورقة ، في كل ورقة ٢٧ سطراً ، وهو يبتدىء بقول أبي الطيب :

أُحَادٌ أَمْ سُداسٌ في أُحادِ لُيَيْلَتُنا المنوطةُ بالتَّنَادِي

وينتهي بشرح القصيدة اللامية التي قالها أبو تمام في مدح محمد بن عبد الملك

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ٧٧٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٧٧٢ ،
وانظر : نفسه ، مقدمة المحقق جـ ١ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ،
وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ص ٣٥ .

الزيات ، ومطلعها :

مَتَى أَنتَ عن ذُهليَّةِ الحيِّ ذاهلُ وقلبُك منها مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِلُ

وفي آخر هذا الجزء قال الكاتب : "تم الجزء الثاني ويتلوه الجزء الثالث - إن شاء الله تعالى - وقال أبو تمام يمدح المعتصم ، ويمدح فتح الخرمية" .

هـذا الجزء نسخه محمد بن إسماعيل بن حسن بن أبي الحسين بن علي الهرقلي ، وكتبه بخط نسخي جميل مشكول ، ولم يذكر مطلع القصيدة التي في أول الجزء الثالث ، وأرّخ لكتابة هذا الجزء بالحادي عشر من شهر شعبان سنة ثمان وسبعين وستمائة[1] . وعلى الرغم من أن الجزء الأول من نسخة تختلف عن نسخة الجزء الثاني فإنه قُدّر أن يكون الجزء الثاني متممًا للجزء الأول بلا فاصل بينهما ، وهذا يعزز الأمل فيما لو تم العثور على الجزء الثالث من أي النسختين فإن كتاب «النظام» سيكون كاملاً بأجزائه الثلاثة .

ويجب أن نذكر أن مصورة الجزء الأول كانت رديئة ، فأكثر صفحاتها وسطورها غير واضحة ، وفيها طمس وتصحيف وتحريف في كثير من الكلمات والعبارات . وقد عانى الباحث كثيرًا في قراءة هذا الجزء ، لأن ما أنجزه خلف رشيد نعمان الذي شرع في تحقيق كتاب «النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام » - فيما يتعلق بشعر أبي تمام - حتى الآن ، ليس سوى قصائده على حرفي الهمزة والباء .

ومع أن خلف نعمان قد بذل جهداً في ضبط رواية بعض الأبيات ، ومقابلة الشروح التي أوردها ابن المستوفي بما يماثلها من شروح الآخرين في كتبهم ، وذكر بعض الأبيات والقصائد التي أغفلها ابن المستوفي ونبّه عليها في الهوامش ، غير أنه مما يثير العجب والاستغراب هو ما ذكره من عزمه على كتابة الجزء الثالث المفقود على وفق المنهج الذي نهجه ابن المستوفي في شرحه ، قال : "ذكرت أن الموجود من هذا الكتاب إنما هو الجزء الأول والثاني ، وأن الجزء الثالث مفقود ، فليس من تمام العمل

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ٥٤٤ ،
وانظر مقدمة المحقق جـ ١ ، ص ١٨٠ .

أن يترك هذا الجزء ... بدون ذكر وشرح ... فقد عزمت على كتابة هذا الجزء وتناول أبياته على وفق المنهج الذي نهجه ابن المستوفي في شرحه لشعر الشاعريْن ..." [١] .

ونتساءل : ما فائدة عمله هذا ، وهل يصح أن يندفع وراء حماسته في تقديم شرح كامل لديوانَيْ المتنبي وأبي تمام فينسب لهذا العالم الجليل ما ليس له أو يقوّله ما لم يقل ؟! .

يتكون عمل ابن المستوفي في كتاب «النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام» من **مقدمةوقسمتطبيقي** : أما **المقدمة** فهي بمثابة مدخل نظري للكتاب ، ذكر فيه المؤلف بعض الأسباب التي حفزته على وضع كتابه ، وما جعله يجمع بين شروح شعر الشاعرين المتنبي وأبي تمام :

"فإني وجدت الناس كثيراً ما يتجاذبون القول فيما أشكل من معاني أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، وأبي الطيب أحمد بن الحسين الجعفي ، لميلهما كثيراً عن الطبع إلى التكلف ، وعدولهما غالباً عن العفو إلى المستكره ، إلا أن أبا الطيب أعظمهما معنى مستغلقًا ، وأكثرهما تركيبًا مستبهمًا . والناس في شعره اثنان : محامٍ عنه مفرط، ومتعصب عليه مفرط . وكلاهما متجاوز به حدّه غال فيه حكمه ، دفاعًا عنه وتحاملاً عليه ، وهم مع ذلك عن معانيه أشد سؤالاً ، وأكثر في كل مقام مقالاً . وأنا أجمع من أقوال العلماء في ذلك ما أدّاني البحث عنه إليه ، ووقفني العلم به عليه ، مختصراً ما أورده بوسع جهدي ، وملخصه بقدر طاقتي ، وناسبه إلى قائله ، ومسنده إلى ناقله" [٢] .

لفت انتباه ابن المستوفي ما يحدث بين الدارسين من خصام وما يدور بينهم من جدال حول شعر هذين الشاعرين ، فالناس يتجاذبون الحديث في مذهبيهما وما أشكل من معاني شعريهما وهما فيهما صنفان : متعصب لهما ، أو متعصب عليهما ، لأن الشاعرين قد مالا عن الطبع إلى التكلف ، وعن السماحة واليسر إلى التوعر والابتداع ،

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ١٨٦- ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

وتعمقا في المعاني ، ونشأ عن هذا التعمق إشكال وغموض ، فرغب ابن المستوفي أن يجمع أقوال الشراح وآراء النقاد في شعريهما ؛ ويسهم بدرايته وثقافته وفكره في تسليط الضوء على بعض الجوانب التي لم يتمكن السابقون من توضيحها ، وكشف غامضها ، ليضع ذلك كله أمام القراء ، ليكون خير معين لهم في فهم شعر هذين الشاعرين الكبيرين . كما ذكر ابن المستوفي في مقدمة كتابه طرفًا من أخبار أبي تمام ونسبه ، وطرفًا من أخبار أبي الطيب المتنبي ونسبه ، ولكون ابن المستوفي من أئمة أهل الحديث النبوي فقد التزم في سرده لهذه الأخبار طريقتهم في تسلسل الإسناد وتواصله ، بل إنه استخدم بعض عباراتهم الخاصة ، مثل : أجاز لي ، حدّثنا ، أخبرنا ، وغيرها . ظهر ذلك بوضوح في هذا الخبر الذي أورده فيما ذكر من أخبار أبي تمام ، "أجاز لي أبو البركات عمر بن المعمّر السقلاطوني ، قال :قرىء على أبي منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون الدباس المقرىء ، وأجاز لي ، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد ابن علي بن ثابت البغدادي . وأجاز لي أبو محمد القاسم بن علي بن الحسن الشافعي ، قال : أجاز لي أبو الحسن علي بن أحمد بن منصور ، قال : حدثنا أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ، قال : حبيب بن أوس أبو تمام الطائي الشاعر ، شامي الأصل ، كان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء وأخذ عنهم ، وتعلّم منهم ، وكان فطنًا فهمًا ، وكان يحب الشعر ، فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر فأجاد ، وشاع ذكره وسار شعره..." [١] .

استفاد ابن المستوفي من ضوابط الإسناد التي أسسها علماء الحديث في توثيق الخبر ، وهذا يدل على تحرّيه الدقة المتناهية في الرواية وفي تأصيل الخبر ، ونراه يبدي قدرة فائقة وثقة عالية حين رفع نسب أبي تمام إلى عدي بن طيء ، ورواية أخرى إلى يعرب بن قحطان ، قال : "وأجاز لي أبو القاسم بن علي بن عساكر ، قال : أخبرنا والدي أبو القاسم علي بن الحسن - رحمه الله - في كتاب تاريخ دمشق : حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى بن مرينا بن سهم بن خلجان الكاتب بن

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ١٩٣ .

مروان بن ذفافة بن مرّ بن سعد بن كاهل بن عامر ، ويقال : ابن عمرو بن عدي بن طيء..." [١] .

وتعامل ابن المستوفي مع أخبار أبي الطيب بالطريقة نفسها ، لكنه أورد بعض أخباره ، بطرق متعددة ، وبوجوه مختلفة .

وقد خصّص ابن المستوفي جزءاً من مقدمته بيّن فيه كيفية رواية ديوان أبي تمام ثم أعقبه بذكر كيفية رواية ديوان شعر المتنبي ، ثم أخضعها لتسلسل الأسانيد حتى وصل بها إلى أبي تمام والمتنبي نفسيهما ، مع ذكر زمن القراءة ومكانها . وهذا - كما ذُكر - من تأثير دراسته للحديث النبوي .

وفي خاتمة مقدمته عدّد الشروح التي اعتمدها في شرحه لديوان أبي تمام والمصادر التي استقى منها بعض الأقوال والآراء والمعلومات التي استعان بها في شرح شعر أبي تمام [٢] ، بينما أجّل ذكر مصادره في شرح ديوان أبي الطيب حتى فراغه من شرح همزيات أبي تمام [٣]. وسنتعرض لبيان روايته لديوان أبي تمام ومصادر شرحه فيه بشكل مفصّل فيما بعد - إن شاء الله تعالى .

أما القسم التطبيقي ، وهو متن الكتاب وأساس مادته : فيتمثل فيما قدمه ابن المستوفي من شروح على شعر أبي الطيب المتنبي وشعر أبي تمام ، حيث جمع أغلب الشروح السابقة التي شرحت شعر الشاعرين على امتداد أربعة قرون ، محاولاً اختيار ما يلائم منهجه في الشرح ، عارضًا قصائد الشاعرين حسب أحرف الهجاء ، مبتدئًا بالهمزة ومنتهيًا بالياء . ويبدأ بشعر أبي تمام على الحرف المعيّن ثم يردفه بشعر المتنبي، ويعرض الشروح - غالبًا - غير متداخلة في بعضها ، ثم يعلّق عليها ، ويستدرك على الشراح ما أخلت به شروحهم ، متحريًا الدقة والأمانة العلمية في نسبة الأقوال والشروح إلى أصحابها في معظم كتابه .

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ١٩٤ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠١ - ٢٠٦ .

(٣) انظر : نفسه : جـ ١ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ .

وبعد هذه الرؤية الوصفية الموجزة لكتاب ابن المستوفي ، فإنه ينبغي أن نفرّق - هنا - بين شرح ابن المستوفي لشعر المتنبي وشرحه لشعر أبي تمام ، إذ إن ما يتعلق بشعر المتنبي يقع خارج دائرة البحث ، لذا فإن الباحث سيغفل الحديث عنه إلا ما كان على سبيل الاستشهاد أو الاستئناس . أما شرحه لشعر أبي تمام فهو الذي يتصل بموضوع البحث ، لذا فإننا سنركز على دراسة الجزء المتعلق بأبي تمام وشرح شعره من كتاب «النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام» .

مصادر الشرح :

ألّف ابن المستوفي كتابه «النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام» في مرحلة عنيت بجمع العلوم والمعارف من مصنفات السابقين ومؤلفاتهم ، واعتمد الكُتّاب على ما عند القدماء من زادٍ معرفي وحصيلة ثقافية ، على اختلاف في المناهج والأساليب وتعدد في الأهداف والغايات .

وقد حاول ابن المستوفي أن يجمع في كتابه من أقوال الشراح والعلماء ، ما أوصله البحث إليه ، فرجع إلى معظم الشروح السابقة ، واطلع على كثير من المصادر اللغوية والأدبية ، واستعان بها في تفسير شعر أبي تمام . كما استند في شواهده على مصادر نثرية وشعرية متنوعة ، أعلاها القران الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، ومنها دواوين الشعراء على اختلاف عصورهم ، وموسوعات الأدب ، وكتب الأمثال وغيرها .

وإذا عدنا إلى مقدمة كتابه نجده قد حدّد بعض الشروح والمصادر التي اعتمدها في شرحه لديوان أبي تمام ، فذكر أنه اعتمد على كتاب أبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، وهو يعني شرحه ، وهو أول شرح على ديوان أبي تمام [١] ، وقد أشار في

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

ثنايا شرحه إلى أنه يملك أكثر من نسخة من كتاب الصولي [١] وأغلب ما نقل عنه في جانبي الرواية وتفسير الغريب من الألفاظ ، وكان اعتماده على شرحه في الجزء الأول من كتابه أظهر منه في الجزء الثاني . كذلك اعتمد ابن المستوفي على كتاب «ذكرى حبيب» لأبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ، وقد عوّل عليه كثيراً في مجال اللغة ونقد الرواية وبعض الظواهر التي اختص بها مذهب أبي تمام . فهو مثلاً ينقل عنه شرحه لمطلع القصيدة التي عزّى فيها أبو تمام محمد بن سعيد :

أَمُحَمَّدَ بنَ سَعِيد إن جَوَى[٢] الأَسى فيها رُوَاءُ الحُرِّ يومَ ظِمَائِه

ذكر المعري أن قوله "«رواء الحُرّ» أراد به : ريَّه ، وإنما أقام الرواء مقام الري ، لأنه يروى به ، ومن روى «دواء» بالدال فقد صحّف ، لأن مذهب الطائي في الصناعة طريق معروف ولم يكن يعدل عن الرواء في البيت . ومدّ «الظَّماء» وهو مقصور . يقول : ظماء مثل خطاء . وقد فعل ذلك في غير هذا الموضع ، والقياس يطلق ذلك وما هو أشد منه" [٣] . ومعلوم أن المعري نظر إلى تحقق المطابقة في مذهب أبي تمام بين «الرواء» و«الظماء» .

كما اعتمد ابن المبارك في شرحه على ما ذكره أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي في كتابيه : «تفسير معاني أبيات أبي تمام» و «الموازنة بين الطائيين» . وقد صرّح باسم الكتابين في مواضع متفرقة من شرحه ، ففي تعقيبه على المرزوقي حين نقد الآمدي ولم يصرّح باسمه بل كنّى بقوله « هذا الإنسان » قال ابن المستوفي : " وأظن المرزوقي أراد بالإنسان الذي ذكره أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، فإنّه قال في كتابه «الموازنة بين الطّائيين » وأنشد قول أبي تمام :

" لو كان في عاجلٍ من آجلٍ بَدل»

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ١٣٦ .

(٢) رواية التبريزي "ادَّخر الأَسَى" انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٣٧ .

(٣) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ .

... وقال : وهذا أيضًا غلط ، لأن العاجل أبدًا أفضل من الآجل فكيف لا يكون بدلاً منه" [١] .

أما كتاب الآمدي « تفسير معاني أبيات أبي تمام » فقد ورد ذكره في «النظام» بعدة أسماء فمرة « معاني مشكل أبيات أبي تمام » [٢]، وأخرى « الأبيات المفردة »[٣] ، وثالثة « تفسير معاني شعر أبي تمام »[٤] ، لكنه يعني الكتاب نفسه الذي أشار إلى أنه نسخه في سنة ٥٨٩ هجرية " قال المبارك : لما نسخت كتاب الآمدي « في معاني شعر أبي تمام » عرض لي إذ ذاك ما كتبته في طرة نسختي . . . " [٥] .

ومن المصادر المهمة التي اعتمدها ابن المستوفي كتابا المرزوقي : الأول : «شرح مشكل أبيات أبي تمام المفردة» ، والثاني : «الانتصار لأبي تمام من ظلمته» ، ونظراً لاهتمام المرزوقي بقضية المعنى وإبرازها في صور وهيئات مختلفة ، فإن جُلَّ ما نقله ابن المستوفي عنه يتعلق بالمعنى وتأويلاته المختلفة ، وبخاصة في شرح الأبيات المشكلة من شعر أبي تمام ، وإن عبارات التقدير والتبجيل التي كان يقرنها ابن المستوفي باسم المرزوقي مثل : "قال أبو علي أدام اللّه عزّه ، أو "قال الشيخ أدام الله عزّه" لتدل على منزلة المرزوقي ومكانة شرحه عنده ولا بد أن نشير إلى أن ما نقله عنه من «كتاب الانتصار» كان أقل مادة عمّا نقله من كتاب «شرح مشكل أبيات أبي تمام» ، لذا فإنه حين ينقل من كتاب الانتصار كان - غالبًا - ما ينبّه إلى ذلك بعبارات مثل " قال في كتاب الانتصار " [٦] أو " ومن الانتصار " [٧] وغيرها .

كذلك نصّ ابن المستوفي على أنه اعتمد في شرحه على بعض كلام الخارزنجي . ونظرًا لأن أبرز ما في شرح الخارزنجي هما عنصرا الرواية ، وشرح المعنى ، فإن ابن

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ٢٤٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٦٠٢.

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٧٦ ، ٨٣ .

(٤) نفسه ، جـ ٣، ص ٢٥٠ .

(٥) نفسه ، جـ ١ ، ق٦١٣ .

(٦) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٤٢ ، جـ٢ ، ق ٤٦ ، ٢٤٢ .

(٧) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٦ .

المستوفي استند كثيراً عليه في الرواية وضبط الشعر ، كما تعمّد أن يجعل شرحه في كثير من المواضع خاتمة الشروح وأخرها ، وذلك لِمَا فيه من دقة واختصار وتلخيص للمعنى - كما يظهر من كتابه .

وقد اعتمد - أيضًا - على «النسخة العجميّة» أو «الطرّة العجميّة» كما سمّاها في بعض المواضع من شرحه [١] ، وهي نسخة من ديوان أبي تمام يوجد في حواشيها جملة شروح بالعربية ،وفيها أيضًا شرح يسير بالفارسية ، وبجانبه بعض الروايات والحواشي المجهولة ، وقد وصف ابن المستوفي هذه النسخة في مقدمته ، فقال : "ووقع إليّ كلام أبي تمام وعلى حواشيه جملة من تفسير ، وفي أوّله فوق البسملة : قال مولانا الصاحب الأجل السيد عين الكفاة ، تاج الوزراء ، صدر الإسلام والمسلمين ، وناصح الملوك ، ولي النعم أبو القاسم عبد الحميد بن أكفى الكفاة أحمد أدام الله علوّه ، قرأت على الإمام أبي المظفر ناصر بن منصور البستي رحمه الله سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، قال : قرأت على الإمام أبي علي الحسين بن أحمد النوزادي ، قال : قرأت على أبي علي محمد الحسن بن محمد صاحب المرزباني [٢] ، قال قرأت على أبي عبيد الله [٣] محمد بن عمران بن موسى المرزباني قال : قرأت على أبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، وذكر الخطبة [٤] . وهذه النسخة من نسخ العجم ، وربما وقع في حواشيها شيء يسير من شرح بالعجمية فإذا عنيت : وفي النسخة العجمية ، أو في طُرَّة النسخة العجمية ، أو في حاشية النسخة العجمية أيًا ما ذكرت فإنما أعني إياها ..." [٥] .

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، جـ ٢ ، ق ١٤٥، ١٤٦، جـ٣ ، ص ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ .

(٢) الذي أثبته خلف نعمان : «صاحب المرزوقي» وهو خطأ . انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

(٣) أثبته خلف نعمان "على أبي عبيد" والصحيح "على أبي عبيد الله" . انظر : المصدر السابق ، جـ ١، ص ٢٠٥ .

(٤) أثبت المحقق هذه العبارة على النحو التالي : "وذكر في الخطبة" وهذا يوهم بأن الكلام اللاحق عليها من صاحب النسخة ، بينما هو من كلام ابن المستوفي . انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .

(٥) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

ويبدو أن ابن المستوفي كان ينقل من هذه النسخة معظم ما يجده من تفسيرات وتعليقات ، وبخاصة ما كان يحوي إضافات وزيادات ليست موجودة في الشروح الأخرى [١] .

أمّا آخر نسخة من الشروح التي اعتمدها صاحب «النظام» فهي النسخة الليثية، وهي في أصلها نسخة من ديوان شعر أبي تمام بشرح الصولي ، صححها إبراهيم بن أحمد بن الليث بنسخة كانت لأحمد بن بكر العَبْدي ، ومن وصف ابن المستوفي لها أنه كان مكتوبًا على حاشية الورقة الأولى منها ما نصّه : "يقول محمد بن جعفر التميمي : قرأ عليّ هذا الديوان الشيخ أبو طالب أحمد بن بكر العبدي أيده الله ، ورويته له عن أبي بكر الصولي وعن أبي مالك صاحب أبي تمام . قال إبراهيم : العبارات المنقولة إلى الحواشي هي منقولة من هذه النسخة «نسخة العبدي» على اختلاط وتقارب ألفاظها ، وإن كانت المعاني صحيحة" [٢] .

وأشار ابن المستوفي إلى أن في حواشي هذه النسخة شيئًا معيّنًا من كلام المرزوقي ، وفيها حواشٍ أُخر غير معينة ، ثم نبّه إلى أن أي إشارة إلى ما في هذه النسخ أو إلى الحواشي أو ما كان بخطّه فإن المقصود به نسخة إبراهيم بن أحمد بن الليث .

هذا هو المصدر الأول والأساس الذي جمع منه ابن المستوفي مادة كتابه ، فنقل أقوال معظم شراح ديوان أبي تمام منذ زمن الصولي ، أول شارح لشعر أبي تمام حتى عصره الذي ألّف فيه كتاب «النظام» ، وقد كان يشير إلى هذه المصادر - غالبًا - بدقة وأمانة . كما أن هناك كتبًا ومصادر أخرى غير الشروح ، ذكرها في أثناء شرحه أو ذكر أسماء مؤلفيها ، تدلّ على أنه اطلع عليها وأفاد منها في مواضع مختلفة من شرحه ، فنقل منها الأخبار التاريخية وأخبار الشعر والشعراء ، وبعض أقوال اللغويين والنحاة وبعض الآراء النقدية والملاحظات البلاغية والعروضية إلى غير ذلك مما عزّز به شرحه وأيد به وجهة نظره في المسائل التي عرض لها في كتابه ، ومن المصادر التي أفاد منها وحددها بدقة في شرحه : كتاب « تاريخ دمشق » لابن عساكر « ت : ٥٢٧هـ » [٣] ،

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١، ص ٢٤٣ ، ٣١٨ ، جـ ٣ ، ص٧٧ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ١٩٠.

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ١٩٤ .

وكتاب «أخبار أبي تمام» لأبي بكر الصولي « ت : ٣٣٥هـ» [١] ، وكتاب «المفوّف» لمحمد بن حبيب « ت : ٢٤٥هـ» [٢] ، وكتاب « التكملة » لأبي حامد الخارزنجي « ت : ٣٤٨هـ» [٣]، وكتاب «الجمهرة» لابن دريد «ت : ٣٢١هـ» [٤] ،وكتاب «المسائل والأجوبة» لابن البطليوسي «ت : ٥٢١هـ» [٥] ، وكتاب «الموازنة» للآمدي «ت : ٣٧٠هـ»[٦] ، وكتاب «درر القلائد وغرر الفرائد» للمرتضى «ت : ٤٣٦هـ» [٧] ، وغيرها من المصنفات التي استقى منها ابن المستوفي معظم معلوماته الغزيرة والمفيدة في تفسير شعر أبي تمام .

وتجنبًا للاستطراد سنكتفي بإيراد نموذج واحد للدلالة على رجوعه إلى الكتب الأدبية واللغوية ومدى الاستعانة بها في كتابه . من ذلك اعتماده في شرحه لبيت أبي تمام :

رَقِيقِ حَواشِي الحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ بكَفَّيْكَ ما مَارَيْتَ في أَنَّهُ بُرْدُ

على ما ذكره ابن قتيبة في كتاب «الخط والقلم» إذ بعد أن عرض أقوال الشراح والخلاف الذي دار بين النقاد حول هذا البيت قال : "وجدت في كتاب «الخط والقلم» تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال : كان هارون معجبًا بخط إسماعيل بن صُبيح ، فقال لأعرابي : صفه ، فقال : ما رأيت أطيش من قلمه ولا أثبت من حلمه ، فقال اجعل نثرك نظمًا ، فقال :

رَقِيقُ حَواشِي الحِلْمِ حِيْنَ تَثُورُه يُرِيْكَ الهُوِيْنَى والأُمُورُ تَطِيرُ

يُنَاجِيْكَ عَمَّا في ضَمِيرِكَ لَحْظُهُ ويَفْتَحُ نُجْحَ الأَمْرِ وهْوَ عَسِيرُ

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ١٩٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ق ١٠٨ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ق ١٧٢ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ق ٢٤٢ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ق ٦٩٩ .

(٦) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ق ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩.

(٧) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ق ٥٣٣ .

وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٥٩ .

لَـهُ قَلَمَـا بَؤْسٍ ونُعمَى كِلاَهُـمَا سَحَـابَتُـهُ لِـلْحَـالِـبِينَ دَرُورُ

ومن هذا نقل أبو تمام قوله : "رقيق حواشي الحلم" ، وزادعليه بما لم يمنعه العائب له أن يتعقبه بما تعقبه به ..." [١] .

لقد أورد ابن المستوفي كلام ابن قتيبة كاملاً ، ونقل قبله كلامًا للبطليوسي من كتاب «المسائل والأجوبة» في معرض ردّه على أبي العباس القرطبلي والآمدي حين أنكرا على أبي تمام هذا البيت وخطّآه فيه ، وإنما يفعل ابن المستوفي ذلك ليقدّم للقارىء - زيادة على الشرح - بعض الآراء النقدية والتعقيبات عليها مما لم يتوفر مثله في الشروح السابقة . كذلك استعان ابن المستوفي بأقوال وآراء عدد من علماء اللغة والنحو والأدب ، حيث لجأ إليهم في كثير من المسائل التي اعترضته في أثناء الشرح ، وكانت آراؤهم وأقوالهم بمثابة الحجة والبرهان في تدعيم ما يذهب إليه ، بل كان يحتجّ بها ويدفع أقوال المخالفين لتفسيراته وأقواله .

وقد تكرر اسم الجوهري صاحب كتاب «الصّحاح» كثيرًا في كتابه ، وكان لا يتوانى في تعزيز شرحه اللغوي ببعض أقواله. [٢] ومن الأعلام الذين استند إلى آرائهم في شرحه : سيبويه ، والأصمعي ، والفراء ، والأخفش ، وأحمد بن فارس ، وابن درستويه، وأبو إسحاق الزجاج ، وأبو سعيد السيرافي ، وابن دريد ، وأبو العباس المبرد ، وأبو عبيدة ، ومحمد بن حبيب ، وأبو الفتح عثمان بن جني ، وأبو محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة ، وأبو هلال العسكري ، والزمخشري ، وابن سنان .. وغيرهم . وبما أن الأصمعي من أساطين اللغة ومن أعلمهم بالشعر وأتقنهم للغة [٣] ، فإننا نجد ابن المستوفي يلجأ إليه في مواضع متفرقة من شرحه ، من ذلك تفسيره للفظة «العُدواء» في بيت الطائى :

بِيدٍ لِنَسْلِ العِيدِ في امْلِيدَها ما ارْتِيدَ من هِيدٍ ومِنْ عُدَواءِ

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ٧٠٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ ، ٣٠٧ ، جـ ٣ ، ص ٧٧ ، ١٤٨ ، ١٧٢ ، ١٩٩.

(٣) انظر : أبو الطيب اللغوي : مراتب النحويين ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : دار نهضة مصر ، الثانية ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، ص ٤٨ .

فإنه ينقله من الأصمعي مباشرة : "والعُدواء ، قال الأصمعي : العدواء : على وزن الغُلواء : المكان الذي لا يطمئن من قعد عليه" [١] .

وفي موضع آخر ذكر أن أبا محمد عبد الله بن محمد بن سنان قد عاب لفظة «حوباواتها» الواردة في قول أبي تمام :

العِيسُ تَعْلَمُ أَنّ حاوبَواتها ... رِيحٌ إِذَا بلغَتْكَ إِنْ لَم تُنْحَرِ

وجعل طول الكلمة وكثرة حروفها خارجًا عن وجهٍ من وجوه الفصاحة [٢] .

وكانت لدى ابن المستوفي رغبة في مناقشة رأى "ابن سنان في هذه الكلمة ، لكنه لا يرى أن هذا موضعه ، لذلك أسرع إلى الانتقال من أجل تحرير معنى البيت ، دون خوض في مسائل لا علاقة لها بالمعنى .

يمكن أن نختم بمثال آخر نرى فيه مدى إفادة ابن المستوفي من أقوال العلماء واستعانته بهم في شرح الشعر وبيان معانيه ، إذ يلاحظ أنه اعتمد على الجوهري وابن دريد في بيان معنى كلمة «مناقب» في هذا البيت :

بِحَسْبِكَ مِنْ نَيل المناقبِ أن تُرى ... عَلِيمًا بأنْ لَيْسَتْ تُنالُ مَنَاقِبُهْ

"قال الجوهري : المنقبة ضد المثلبة .

قال ابن دريد : هي ما في الرجل من الخصال الجميلة" [٣] .

هكذا كان ابن المستوفي يستعين بأقوال العلماء في شرحه ، وليس القصد هنا تتبعها ورصدها ، فهي كثيرة جمة ، ولعل ما قدم من أمثلة قد أفصح عن المراد .

أما مصادر شواهده في أثناء الشرح سواء من أجل بيان المعنى وتوضيحه ، أو من أجل قضايا اللغة والنحو ، أو غير ذلك ، فإنها لا تعدو تلك المصادر التي اعتمدها

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٥٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ق ٥٩ .
وانظر : ابن سنان : سر الفصاحة ، ص ٨٩ .

(٣) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ٧٥ .

الشراح والنقاد وأصحاب اللغة في شواهدهم ، من : القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والقراءات القرآنية ، والأشعار ، والأرجاز ، وأقوال البلغاء والفصحاء من العرب ، والأمثال والحكم .

ويحتل **الشاهد الشعري** عنده مرتبة متقدمة من حيث الكثرة والتنوع ، وذلك للصلة الوثيقة التي تربطه بالمادة المشروحه . غير أنه لم يلتزم بالحدود التي تواضع عليها العلماء من قصر الاستشهاد على شعراء عصور الاحتجاج اللغوي ، فجاء في بعض شواهده بأشعار للمحدثين الذين لا يحتج بشعرهم أمثال : مسلم بن الوليد ، وأبي نواس ، وابن الرومي ، والمتنبي ، والراعي النميري ، وغيرهم ، بل إنه يتجاوز ذلك فيستشهد بشعر بعض المعاصرين له [١] . أما الشعراء الذين يحتج بشعرهم فنذكر منهم : امرأ القيس ، وبشر بن أبي خازم الأسدي ، وعروة بن الورد ، والأعشى ، وزهير ابن أبي سلمى ، وجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وذا الرُّمة ، والطرمّاح ، والشماخ ، والكميت ، وأبا ذؤيب الهذلي ، وغيرهم .

وفي شرحه لقول أبي تمام :

غَرَضُ الحَوَادثِ ما تَزالُ مَلِمَّةٌ ترْمِيهِ عن شَزَنٍ بأُمِّ حَبَوْكَرِ

وافق ابن المستوفي الجوهري في أن الحبوكر هي الداهية وكذلك الحبوكرى ، ومعنى أم حبوكر في بيت أبي تمام أي أعظم الدواهي ، وقد احتج - من قال بذلك - بقول ابن أحمر :

فلمّا غَسَى ليلي وأيقنتُ أنَّها هي الأُرَبَى جاءت بأم حَبَوْكَرَى

لذلك رأى ابن المستوفي أنه إذا صح أن الحبوكر اسم للداهية فإن أبا تمام قد استعمله بغير ألف ولام ، وذلك على ما جرت به عادته في استعمال الأمثال نحو قوله :

" مَا بَيْن أنْدَلُسٍ إلى صَنْعاء "

ثم قال : " وإذا قدرنا أن ابن أحمر لم يصرف « حبَوْكر » وجب فتحُ الراء ، لأنها مجرورة وأشبعها فنشأت الألف للإطلاق لا لقطع الترنّم ، لأن الألف لا يلحق الروي

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص٦٧ .

لقطع الترنم ، وإنما الذي يقطع به الترنم ، هو تنوين يقوم مقام حرف الإطلاق ، وذلك في إنشاد التميمين نحو قول جرير :

أَقِلّي اللَّومَ عَاذلَ والعِتابَنْ وقُولي إنْ أَصَبْتُ لَقَد أَصَابَنْ [١]

يلاحظ في هذا المثال تنوع الاستشهاد عند ابن المستوفي وتعدد مجالاته ، فهو يستشهد ببيت ابن أحمر على معنى كلمة «حَبَوْكر» ويستشهد بشعر أبي تمام نفسه على عادته في استعمال بعض الأسماء مجرداً من الألف واللام ، ثم يستشهد بقول جرير لشرح الفرق بين الألف التي تلحق الروي للإطلاق ، وتنوين الترنم الذي يقوم مقام حرف الإطلاق في الإنشاد عند قبيلة تميم .

كذلك استشهد ببعض **الآيات القرآنية** ، والقراءات القرآنية المختلفة [٢] ، واستضاء بها في توضيح بعض معاني شعر أبي تمام . وفي تعليل بعض التراكيب التي استعملها . من ذلك تعلق «الباء» في قول الطائي :

سَلِ المُلْكَ عن خالدٍ والمُلُوكَ بِقَمْعِ العِدَى وبِنَفْيِ العَدَاء

حيث ذكر [٣] أن الباء في قوله « بقمع العِدى » مثلها في قوله تعالى :

﴿فسئل به خبيراً﴾ [٤] . و«به» في الآية فيها وجهان : أحدهما : الباء تتعلق بـ «خبيراً» فيكون «خبيراً» مفعول : اسأل . والثاني : أن الباء بمعنى عن ، فتتعلق باسأل ، ويكون التقدير فاسأل بسؤالك عنه خبيراً [٥] . وتقدير البيت : اسأل عن قمع خالد للعدى ، ونفيه للعداء ، أي اسأل عن دفعه الظلم ونحره للإبل .

ومن **الحديث النبوي الشريف** استشهد - على سبيل المثال - بحديث المرأة التي نحرت ناقتها لمّا أدتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها الرسول صلى الله عليه

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ٥٩ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٦٥ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٥ .

(٤) سورة الفرقان ، آية ٥٩ .

(٥) انظر : العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، ت : علي محمد البجاوي ، ط : دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د : ت ، جـ ٢ ، ص ٩٨٩ .

وسلم لقد ظلمتيها ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : "أطعمونا من كبد هذه المظلومة" . قال ابن المستوفي : فأراد أبو تمام أنّ العيس إذا بلغت الممدوح ولم تنحر ، فإن أنفسها ريح ، وأشار بذلك إلى ما جرت به عادة العرب فخالفها وتبع مذهب من أراح الإبل إذا بلّغته مقصده ، كما قال أبو نواس :

وإِذَا المَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ على الرِّجَالِ حَرَامُ [(١)]

كما استشهد -أيضًا- ببعض الأقوال المأثورة عن الصحابة والخلفاء والمشاهير، أمثال عمر بن الخطاب[(٢)] ، والحجّاج بن يوسف الثقفي [(٣)] ، وغيرهما . كذلك استدل بعدد من الأمثال السائرة [(٤)] ، وشَرَح العلاقة بين هذه الشواهد وبين ما تنطوي عليه أبيات أبي تمام من معان وموضوعات .

إن هذه الشواهد تمنح الباحث كثيرًا من الاطمئنان والثقة فيما بين يديه من شروح وتأويلات وآراء ، وتمده بوابلٍ من المعارف والفوائد المهمة في فهم معنى الشعر ، كما أنها تدل على الجهد الذي بذله الشارح في حشد هذه المعلومات ، وصدق تحريه الصواب .

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ٦٠ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ق ٥٤٤ .

منهج الشرح :

قد يكون لمدلول كلمة «النّظام» التي أطلقها ابن المستوفي عنوانًا لكتابه علاقة بالمنهج الذي سلكه فيه ، فالنظم : هو التأليف ، وكلُّ شيء قرنته بآخر أوضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته ، ومنه نظمت الشعر ، والنّظام :ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره [١] . ومنهج ابن المستوفي في «النظام» ربما لا يتجاوز هذه الدلالة المباشرة ، فهو يجمع أقوال الشرّاح والعلماء السابقين ويؤلف بينها في منظومة واحدة ، مضيفًا إليها من ثاقب فكره وخالص علمه وثقافته شروحًا خاصة ، تحوي نقدًا واستدراكات ، ومناقشات ، تجعله من أبرز من تصدى لشرح ديوان أبي تمام ، ومن أفضلهم فهمًا لشعره ، لما يمتاز به من موضوعية وعمق في التناول والتحليل ، وقد حدد منهجه في مقدمته باختصار شديد ، قال : "وأنا أجمع من أقوال العلماء في ذلك ما أدّاني البحث عنه إليه ، ووقفني العلم به عليه ، مختصرًا ما أورده بوسع جهدي ، وملخصه بقدر طاقتي ، وناسبه إلى قائله ، ومسنده إلى ناقله" [٢] .

ثم كرر الإشارة إلى ذلك في أثناء كلامه عن مصادره في شرح شعر أبي الطيب المتنبي حيث قال : "عنى الأئمة العلماء بشرح شعره ، فأثبتُ من ذلك بما وقع إليّ من كتبهم ، مختصرًا بعضه ، وحاكيًا أكثره بنصه" [٣] .

من النصين السابقين ، ومن التتبع الدقيق لما جاء في كتابه ، يمكن أن نحدد سمات عامة – يندرج تحتها بعض الجزئيات – تمثل أبرز الخصائص لمنهج شرح ابن المستوفي :

أولاً : رتب قصائد الديوان على حروف المعجم «الألف بائي» : فهو مثلاً يأخذ حرف الألف ثم يذكر تحته قصائد أبي تمام التي تكون قافيتها ألفاً في مختلف الأغراض الشعرية ، فمثلاً قافية الألف تضم قصائد من أبواب المديح ، والرثاء ، والهجاء ، والعتاب ، والوصف ، والغزل . . . ثم ينتقل إلى حرف الباء ويسلسل قصائد هذه القافية في جميع الأغراض الشعرية في ديوان أبي تمام ، وكذلك حرف التاء ، ثم الثاء ، وهكذا إلى آخر حروف المعجم . وقد ذكر المحقق أن ابن المستوفي اعتمد ترتيب

---

(١) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة : «نظم» .

(٢) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

(٣) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢٥ .

أبي بكر الصولي في شرحه لديوان أبي تمام [١] ، غير أن مقارنة بسيطة تثبت عدم صحة هذه المقولة ، لأن شرح الصولي كان الغرضُ الشعري فيه يمثل الباب الذي تنتظم تحته قصائد الشاعر وفق حروف المعجم ، بينما مثّل حرف المعجم في شرح ابن المستوفي الباب الذي تسلسل فيه قصائد الشاعر في جميع الأغراض الشعرية ، وإنْ قصد - المحقق - أن ابن المستوفي كان يعمد إلى شرح الصولي فيأخذ القصائد التي على قافية واحدة وفق ترتيبها في الأغراض الواردة في شرح الصولي ، فهذا أيضًا لا يثبت ، لأن المتتبع للأغراض الشعرية في القصائد التي جاءت تحت قافية واحدة في شرح ابن المستوفي يلاحظ أنه لا ينطبق على ما جاء في شرح الصولي . فأغراض القصائد التي على حرف الألف في شرح ابن المستوفي على هذا النحو : مديح ، ورثاء، وغزل ، وهجاء ، ووصف ، بينما ترتيب أبواب شرح الصولي كالتالي : مديح ، وهجاء ، ورثاء ، وغزل ، وعتاب ، ووصف ... الخ .

بناءً على هذا يمكن القول بأن ترتيب شرح ابن المستوفي يختلف تمامًا عن ترتيب الصولي لقصائد ديوان أبي تمام ، ولكي نستخرج قصيدة ما من شرح ابن المستوفي يجب أن نعرف القافية أولاً ثم الغرض بعد ذلك ، وإذا أردنا ذلك من شرح الصولي يجب أن نعرف الغرض أولاً ثم نبحث في القافية .

ثانيًا : تناول معظم أبيات القصيدة التي أثبتها في كتابه غالبًا : ولم يترك إلا بعض الأبيات القليلة ، وكثيرًا ما تناول قصائد طويلة ولم يُخْلِ أي بيت من الشرح . كما فعل في همزية أبي تمام التي رثى بها خالد بن يزيد الشيباني ، وقد أورد منها سبعة وستين بيتًا ، بينما وقفت عند الصولي والتبريزي على أربعة وستين بيتًا ، لذلك فإن القول بأنه "نهج في شرحه نهج الكتب التي تناولت شرح المُشْكل ..." [٢] لا يصدق على منهجه ، خاصة إذا علمنا أن المرزوقي - مثلاً - في شرح المشكلات قد اقتصر أحيانًا على بيتين أو ثلاثة من قصائد تناول ابن المستوفي منها أكثر من ستين بيتًا [٣] .

لكن هذا لا يعني أنه شرح جميع القصائد التي في ديوان أبي تمام ، شأنه في

---

(١) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ١٧٥ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ١٧٤ .

(٣) انظر : المرزوقي : شرح مشكلات ديوان أبي تمام ، ص ٧٩ ، ١٨٤ .
وانظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٥٩ ، جـ ٣ ، ص ٨١ .

ذلك شأن أصحاب الشروح الأخرى للديوان ، إذ نجد قصائد في شرح الصولي لم يذكرها التبريزي ، ونجد عند التبريزي قصائد لم يطّلع عليها الصولي ، كذلك ابن المستوفي أهمل قصائد ومقطوعات كثيرة [١] وجدت في شرحيهما وفي بعض شروح مُشْكِل ديوان أبي تمام ، فهو - مثلاً - أغفل قصيدة هجا فيها أبو تمام عَبْس بن يزيد الجُلُودي حين انهزم من النويرة ، والقصيدة - كما وردت في شرحي الصولي والتبريزي - مؤلفة من ثلاثين بيتًا ، ولم يكن لهما عليها أي شرح أو تفسير ، وأولها :

صحبي قفُوا مَليتكم صحْبا ... قضوْا بنا من ربْعها نَخبا

دارٌ كأن يدُ الزمان بأنـ ... ـواع البِلى نَشرتْ بها كُتُبا

أين الأُولى كانُوا بعقوته ... والدهرُ يسكبُ ماءهَا سَكْبا [٢]

كما سقطت قصيدة أخرى هجا بها أبو تمام رجلاً سرق شعره ، ذكر التبريزي أنه محمد بن يزيد الأموي ، كان أبو تمام قال شعرًا وكتبه في كتاب فسرقه ، وسار به إلى الممدوح وادّعاه لنفسه فهجاه بهذه القصيدة التي مطلعها :

مَنْ بنو عامر مَنْ ابنُ الحباب ... من بنو تغلب غداة الكُلاب ؟ [٣]

كذلك الحال بالنسبة للأبيات ، حيث سقط من بعض القصائد والمقطوعات أبياتٌ قد يفوق عددها في بعض المواضع عشرة أبيات [٤] ، ويبدو أن سبب تركه لهذه الأبيات - في الغالب - هو عدم اهتمام الشراح السابقين بها ، حيث أغفلوها من أي شرح ، واكتفوا بإثباتها في متون القصائد التي وردت في شروحهم ، لذلك فضل ابن المستوفي - الذي كان عمله منصبًا على جمع آراء الشراح - إهمال هذه الأبيات وإسقاطها من

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، جـ ٣ ، ص ٢٣١ - ٢٤٣ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .
وانظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٩٣ .
وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٣٢٠ .

(٣) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .
وانظر : الصولي : شرح الديون ، جـ ٣ ، ص ٧٨ .
وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٣٠٨ .

(٤) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ١٧٤ ، ٢١٨ .

«النظام» كلية . فالقصيدة التي رثى فيها أبو تمام محمد بن الفضل الحميري تتألف من اثنين وعشرين بيتًا ، مطلعها :

رَيبُ دَهْرٍ أَصَمَّ دُونَ العِتابِ مُرْصِدٌ بالأَوجَالِ والأوصَابِ

ولم يثبت ابن المستوفي في كتابه إلا ثمانية أبيات هي التي وجد لها شرحًا عند كل من الصولي والمعري والتبريزي ، وأسقط ما عداها [١] .

غير أن هذا لم يَحُل دون أن يحقق ابن المستوفي تميّزًا في تفسير بعض القصائد فيشرح أبياتًا أهملت من قبل الشراح ، وينصرف عن أخرى نالت عناية بعضهم، من حيث قدّر أهمية البيت الشعري ، ومدى نسبة الغموض والوضوح فيه ، والعلاقة المعنوية التي تربطه بالأبيات المشروحة قبله أو بعده .

فلا نجد للشراح - مثلاً - في قول أبي تمام في فتح عمورية :

إن كان بَيْنَ صُرُوفِ الدَّهْرِ من رَحِمٍ مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ

أيَّ شرحٍ أو تعليق [٢] ، بينما ينفرد ابن المستوفي بذكر الرواية الأخرى وتفضيلها معللاً بقوله : " وفي نسخة " إن كان بين صروف الدهر " والذي أراه أن " مرور الدهر " أحسن ، لأن النصر في بار ، وعمورية ليس من صروف الدهر ، بل من حسناته " [٣] .

ربط ابن المستوفي في تعليله للرواية التي فضلها بين المعنى العام للقصيدة وهو فتح عمورية وانتصار المسلمين ، وبين الدلالة الخاصة لكلمة «صروف» التي تعني نوائب الدهر وحدثانه ، ومن ثَمَّ استحسنها . ولا نسقط من تقييمنا تلك الأبيات التي زادها ابن المستوفي في بعض القصائد ولم ترد في أصول شروح الصولي والتبريزي [٤]

---

(١)انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ص ١٦٦ - ١٦٩ .
وانظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٧ .
وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٤٣ - ٤٦ .

(٢) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .
وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٧٣ .

(٣) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ١١٠ .

(٤) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٤٥ .
وانظر : التبريزي ، جـ ٤ ، ص ٣٦ .

من ذلك ثلاثة أبيات ذكر أنها مما زاده أبو العلاء المعري في أخر همزية أبي تمام التي رثى بها خالد بن يزيد الشيباني . وهي :

فما أَنْتَ منْ رَجْعِ رَبْعٍ قَوَى   سألتَ لِريّا وربعٍ خلاءِ

يُعَاقِبُهُ مُغْدقٌ مُطْبِقٌ   مَلِيءُ العزالَى بوبْلٍ رِوَاءِ

وتَصْنَعُ فيه كَوَشْيِ البُرُودِ   ذُيُولُ الشمالِ مع السافياءِ (١)

كما زاد أربعة أبيات في أخر الهمزية التي مدح الطائيّ محمد بن حسان ، وذكر أنها من طرة النسخة الأعجمية ، مما زاده ابن درستويه ، ومنها :

ساويتَهم أدبًا وجودُك شاهد   بل حَالِفٌ أنْ لَسْتُما بسواءِ

لم يَبْقَ ذو غدرٍ لِرَيْبِ مُلِمَّةٍ   إلاّ وقد ألجمتَهُ بِوفَاءِ (٢)

ولم ترد هذه الأبيات عند أي شارح من شراح شعر أبي تمام ، ولم يورد ابن المستوفي معها أي تفسير أو شرح أو رواية ، إذْ من الجائز -أن أحدًا من الشراح السابقين لم يتوقف عندها .

بل نجد ابن المستوفي يثبت في كتابه قصيدة تزيد عن ستين بيتًا ليس لها أي ذكر عند الصولي والتبريزي ، وقد أثبت المرزوقي بعض أبياتها ومنها :

أطْلالَ بِنْتِ العَامِرِيِّ بِمَنْبِجِ   غِنَاؤكِ مَحْظُورٌ على الدَنِفِ الشَّجِي

فَلِلْعَينِ منْهَا أنْ تَرى سَحْقَ أيصر   قِلادَةَ مُلْقَى بالعَرَاءِ مُشَجَّجِ

وَمَاطُورة منْ غير كُرْهٍ ولا رِضَى   على دَاثرٍ بالِي السَّمَاوة أخْرجِ (٣)

ولعل هذه القصيدة موجودة في نسخة لم تصل إلى الصولي أو التبريزي ووقعت بين يدي ابن المستوفي فأثبتها في كتابه ، وقد وقعت في يد كل من المعري والخارزنجي

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٢٧ .

(٣) انظر : المرزوقي : شرح مشكلات ديوان أبي تمام ، ص ٢٥٧ .

اللذين قد نقل عنهما ابن المستوفي شروحًا في أغلب أبيات هذه القصيدة ،[١]

ثالثًا : جمع أقوال الشراح السابقين حول البيت الشعري الذي يتناوله : حيث يذكر اسم صاحب الشرح ثم يسرد شرحه ، ثم يذكر الشارح الآخر ويورد شرحه وهكذا ، ولم يتخذ في عرض هذه الشروح منهجية مطّردة ، أو يلتزم تسلسلاً تاريخيًّا معينًا ، فنراه تارة يبدأ بشرح الصولي [٢] ، وتارة يبدأ بشرح المعري [٣] ، وثالثة بشرح التبريزي [٤] ، ورابعة بشرح الخارزنجي[٥] ... وهكذا في غير اطّراد ، ونسوق هذا المثال لننظر كيف يعرض الشروح في كتابه ، قال أبو تمام في العينية التي مدح بها محمد بن يوسف الثغري :

نَضَا ضَوْءُها صِبْغَ الدُّجنَّةِ فانطَوَى لِبَهْجَتِها ثَوْبُ السَّماءِ المُجَزَّعُ

جاء شرحه في «النظام» كما يلي "قال أبو العلاء : نضا أي نزع ، والدجنة : ظلمة الليل ، وأراد أن الشمس إذا طلعت غاب لون السماء الذي يظهر بالليل ، وجعله مُجزّعًا لأجل النجوم ، والتجزيع في الشيء أن يكون فيه لونان مختلفان ، وأكثر ما يستعمل ذلك في البسر إذا أخذ فيه الإرطاب .

وروى الخارزنجي : « نفى ضوءها » وقال : «صبغ الدجنة» سواد الليل ، و«المجزّع» الأسود كسواد الجزع ، ومنه يقال جزع البسر إذا لوّن واسود فصار فيه نقط الإرطاب ، والمعنى : يقول : كشف ضوء وجهها ظلمة الليل وأضاءت بهجتها سواد السماء كما يكشفه ضوء الشمس وبياض النهار ويطمس عليه . آخر كلامه .

وقال المرزوقي : أراد قُبيل المغرب ، لأن الضوء يكون حينئذٍ منتشرًا من ناحية المغرب فتكون الظلمة ملتبسة من ناحية المشرق فيحصل في الجو سواد وبياض كلون الجزع ، فيقول تطوي هذه المرأة بإشراق لونها في العشيّات الظلمة ، آخر كلمه . ن هـ .

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١، ق ٤٩٣ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٨٢ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١١٧ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢١٢ .

قال المبارك بن أحمد : يقول : جمع ضوءها بين أن نضا صبغ الليل وهي ظلمته وبين أن طوى ثوب السماء المجزع ، وأراد بالمجزّع الذي يشبه لون الجَزْع من الخرز ، وهو معروف ، وأحسن ما تكون السماء نهاراً إذا خالط زرقتها الصافية شيء من البياض الخالص ، وأكثر ما يوجد ذلك في أيام الربيع مع صفاء الجوّ ، وهذا ظاهر مشاهد ، فأراد أبو تمام أن ضوءها أضاء الليل وأثّر في ضوء النهار فكسف لونه .

قال الصولي : ويرويه أبو مالك «المولّع» أراد أن لون السماء فيه بياض وسواد، وذلك قبل الليل ، الضوء من المغرب ، والظلمة من المشرق [(١)] .

هكذا جعل ابن المستوفي كتابه مجالاً واسعًا ، يعرض فيه أقوال الشراح السابقين على اختلاف مناهجهم وتخصصاتهم ، سواء اتفقت آراؤهم أم تضاربت ، فهو يضعها جنباً إلى جنب أمام القارىء ليختار منها ما يطمئن إليه . قال : " وإنما آتي بكل ما يقع إليّ من تفسير مُشْكل شعره حرصًا على أن أجمع بين أقوال العلماء في ذلك اتفقت أو اختلفت " [(٢)] .

يلاحظ في النموذج السابق أن ابن المستوفي بدأ بعرض شرح المعري ، ثم شرح الخارزنجي ، ثم شرح المرزوقي ، ثم تدخل فأدلى برأيه حول معنى البيت وأخيراً ختم بشرح الصولي ، الذي جاء فيه رواية عن أبي مالك صاحب أبي تمام ، دون أي اعتبار لمسألة الزمن الذي يقضي بأن يتقدّم شرح الصولي على جميع الشروح ، كما أن ابن المستوفي لم يلزم نفسه في شرح البيت ذكر أقوال كل الشراح فكان يقتصر في مواضع كثيرة من كتابه على شرحيْن أو ثلاثة ، بل إنه في بعض الأبيات قد لا يورد إلا قول شارحٍ واحد . ففي أثناء حديثه عن اللامية التي مدح بها أبو تمام أمير المؤمنين المعتصم ، اكتفى ابن المستوفي بشرح الصولي عن بقية الشروح لهذا البيت :

وقَدْ ظُلِّلَتْ عِقْبانُ راياتِه ضُحَىً بعِقْبان طَيْرٍ في الدِّماءِ نَوَاهِلِ

"قال الصولي : العقبان الأولى الرايات الواحدة عقاب ، والأخرى جمع العقاب الطائر ، وهذا هو التجنيس من الشعر ، يقول إن الطيور قد وثقت بنصره وقتله من

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ١٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧٧ .

حاربه ، فهي تسير مع أعلامهم لتأكل من جِيَفهم" [١] .

وفي شرح القصيدة نفسها ينقل شرح أبي العلاء فقط ، حول قول أبي تمام :

وما هُوَ إلاّ الوحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ تُميلُ ظُبَاه أخدَعَيْ كُلِّ مَائِلِ

" قال أبو العلاء : ما هو إلا أن يتبع الإنسان الوحي أو يضرب بالسيف لخروجه عن الإسلام . فحذف المضاف إلى الشيء لعلم السامع بالغرض " [٢]. وفي البيت الذي يليه لا نجد إلا كلام المرزوقي [٣] ، وفي مواضع أخرى يذكر في شرح البيت كلام أبي زكريا منفردًا [٤] ، وأحيانًا يرى أن قول الخارزنجي يُغني عن كل شرح فلا يذكر معه غيره [٥] .

وحين ينقل ابن المستوفي هذه الشروح إلى كتابه يكون في كل شرح عناصر تختلف قليلاً أو كثيرًا عما في الشرح الآخر ، لذا فإنه لم يلتزم بنقل عنصرٍ معيّن من شارح محدد ، غير أنه إذا أراد أن يذكر معنى البيت ملخصًا ومختصرًا وبجانبه بعض الروايات فإنه غالبًا ما يعمد إلى شرح الخارزنجي أو الصولي ، أما إذا رأى حتمية الدخول في مسائل لغوية أو نحوية - لا يتضح معنى البيت إلا بتجليتها ومعرفة دقائقها - فإنه يلجأ غالبًا إلى أبي العلاء المعري الذي يتميز بفهمه الدقيق لكل ما توحي به اللغة من أسرار ، ويوثق ذلك بما يذكره الجوهري في معجمه اللغوي ، أما حين يعتقد أن للبيت معاني مُتعددة ، فإنه غالبًا ما يستعين بشرح أبي علي المرزوقي الذي كثيرًا ما يتجاوز تفسيره للأبيات إلى وجهين أو ثلاثة ، ثم يأخذ من بقية الشروح الإضافات المتممة لشرح البيت من روايات ونقد وتفسير ألفاظ وغير ذلك . وليسَ هناك حاجة إلى سوق أمثلة على هذا ، لكثرته في عموم الشرح ، وتفاوته من بيت إلى آخر .

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ٢٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ق ٢٦٣ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ق ٢٦٣ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ق ٢٥٧ ، ٢٧١ ، ٢٦٧ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ٢ ، ق ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ .

وتجدر الإشارة إلى أنه عندما ينقل النصوص قد يذكرها كاملة ، وربما اجتزأ منها ما ناسب شرح البيت ، وأحيانًا يلخّص الشرح فيسقط منه الاستشهادات [١] ، والأخبار[٢] ، والأمثلة [٣] ، والأشباه والنظائر [٤] ، وغيرها . وقد نصّ على اعتماده على هذه الطرق الثلاثة في قوله : "... فأثبتُّ من ذلك بما وقع إليّ من كتبهم مختصرًا بعضه، وحاكيًا أكثره بنصه " [٥] . وفي موضع آخر "... مختصرًا ما أُورده بوسع جَهدي ، وملُخصه بقدر طاقتي..." [٦] ، فنراه يتصرفُ أحيانًا في النصوص التي بين يديه بالاختصار والتهذيب والتلخيص ، ليجمع عناصر شرح البيت الواحد من مصادر مختلفة ثم يضعها جنبًا إلى جنب ، وينسّق بينها فتصبح الشروح المتعددة مادة مختارة صالحة للتّتبع والتقويم ، وقد صرّح في مواضع من كتابه بأنه ترك بعض الشروح الطويلة التي وردت في شرح بعض الأبيات ، لأنها ظاهرة المعنى ، وأنه لولا اتباع الشراح السابقين لاكتفى بالقليل .

ففي شرحه للقصيدة التي مدح بها أبو تمام أبا عبد الله حفص بن عمر الأزدي ، عرض لقوله :

ولا تَسْأَلاني عن هَوى قد طَعِمْتُما جَواهُ فليْسَ الوَجْدُ إلا من الوَجْدِ

فذكر شرحًا مختصرًا له نقله عن الصولي والآمدي والمرزوقي . ثم قال : "هذا بيت ظاهر المعنى قد شرحه هؤلاء العلماء فأتيت بما قالوا فيه اتبّاعًا لهم ، ووجدت له تفسيرًا أخر أطول من هذه التفاسير المذكورة فتركته" [٧] .

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٩ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦١ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ .

(٥) نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٢٥ .

(٦) نفسه : جـ ١ ، ص ١٩٢ .

(٧) نفسه ، جـ ١ ، ق ٦٥٤ .

ويبدو أن شعر الطائي ينقسم من وجهة نظر ابن المستوفي قسمين : أبيات واضحة المعنى : وقف عندها باعتدال ، سواء تستحق الشرح أو لا تستحق ، أورد بعض شروح السابقين حولها اقتداءً بهم ومحاكاةً لهم .

وأبيات مشكلة المعنى ، غير قريبة الدلالة : منحها عناية فائقة ، فأطال الوقوف عندها ، واستقصى أقوال الشراح حولها ، وتوسع في بيان ألفاظها وتراكيبها ومعانيها ، وساق الشواهد عليها . لذا نجد في بعض شرحه توسعًا وإطالة ، بحيث يستغرق شرح البيت - أحيانًا - ثلاث أو أربع صفحات ، وقد لاحظ ابن المستوفي على نفسه الإسهاب في الشرح أحيانًا ، فاعترف به واعتذر عنه في ختام شرحه المطول لهذا البيت :

جَارَى إليْهِ البَيْنُ وَصْلَ خَرِيدَةٍ ماشَتْ إليْهِ المَطْلَ مَشْيَ الأكْبَدِ

وبعد أن أتى بأقوال الشراح قال : "لعل ناظرًا في هذا الموضع ونحوه من هذا الكتاب يقول : قد أطال وأملّ ، وأتى بأقوالٍ يتداخل بعضها في بعض على اختلاف المفسرين لها في شرحها ، ولعمري ، أن الحقَّ معه ، والقولَ ما قاله ، لكني ألزمتُ نفسي أن أُورد في هذا الكتاب كل ما وقع إليّ من بيانٍ لمُشْكل أو تقييدٍ لمُهْمل وألا أتجاوز شيئًا منه ولا أضرب صفحًا عنه ، فربما توافق القولان ، أو أكثر في معنى ، وإن اتسع الزمان وساعد الإمكان ، عدتُ على ما فيه من تطويل فاقتصرته ، ورجعت إلى ما فيه من إسهاب فاختصرته ، وأتيت به موجزًا ملخصًا يقرب تناوله وتدنو قطوفُه ذليلة إلى يد من يحاوله . . . "(١) .

هذا النص الأخير يكشف عن حرص ابن المستوفي على تسجيل كل ما وقع إليه من أقوال الشراح حول المشكل من شعر أبي تمام ، لذلك يضم الأقوال إلى بعضها ، حتى وإن اتفقتْ في المعنى وترادفتْ في الدلالة ، ما دام كل قولٍ منسوبًا إلى صاحبه .

رابعًا : دقته وأمانته العلمية في نسبة الأقوال إلى أصحابها ، وتحققه وتثبته من المصادر التي ينقل عنها : وقد وعد بهذا في مقدمة كتابه : "... وملخصه بقدر طاقتي ، وناسبه إلى قائله ، ومسنده إلى ناقله ..." (٢) .

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ٦٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

وتعود هذه المنهجية الأخلاقية - في الغالب - إلى ثقافته الدينية والتزامه بآداب المحدِّثين وطرقهم في التثبت والتحقق من النصوص التي ينقلونها ، فقد كان شديد الحرص على ذكر اسم من ينقل عنه في أول النص ، فإذا لم يذكره أولاً ، أتى به في آخر الشرح . على هذا النحو :

أَنْتَ فينَا في ذَا الأَوانِ غَرِيبٌ وهو فينَا في كُلِّ وَقْتٍ غَرِيبُ

" يخاطب الغيث ، يقول : أنت غريب في هذا الوقت ، أي : جئت في وقت ليس عادتك أن تجيء في مثله . « وهو فينا » يعني الممدوح : غريب في كل وقت ، أي : ليس له شبيه في كرمه فهو غريب أبداً . قاله الصولي " (١) .

وفي كتابه أمثلة كثيرة تؤكد رجوعه إلى النصوص في مظانّها الأصلية ، لتوثيقها وللتحقق من صحتها ، من ذلك أنه بعد أن أثبت شرح الصولي على هذا البيت :

فسقاه مِسْكَ الطلِّ كافورَ النّدى وانحلَّ فيه خَيْطُ كُلِّ سَمَاءِ

نقد فهم الصولي للصورة فقال : " لا معنى لقول الصولي ، "وتشبيهه المطر بخيوط متصلة من السماء إلى الأرض " ، وإنما أراد أبو تمام حُسن الاستعارة ... كما يقال : حل السحاب عزاليه ، ثم قال : " وبعد أن ذكرتُ ذلك بسنين وجدت في حاشيةِ بعض دواوينه : " هذا توهم من الصولي ، والصواب ما ذكره الديمرتي : والخيط يعني خيط العزلاء ... " (٢).

هنا يشير ابن المستوفي بكل صدق وأمانة إلى أنه مسبوق في ملاحظته السابقة على شرح الصولي . ولم يأنف من أن يذكر ذلك صراحة في كتابه وينبّه إليه .

وعندما ذكر الآمدي أن هذا البيت :

لَدَى سنْدَبَايا والهِضَاب وأَرْشَقٍ وموقان والسُّمْرُ اللِّدَانُ تَزَعْزَعُ

يروى " لدى سندبايا لا تشاب" وأنه وجده في سائر النسخ هكذا ، ولا يتوجه معناه إلا على ظنٍّ يظنّه فسره بقوله : أي لا تشاب بهلع ولا جزع .. ولم يطمئن ابن

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ١٥٣ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ .

المستوفي إلى ما ذكره الآمدي من استقصاء سائر النسخ ، فرجع إلى النسخ التي لديه ليتحقق من كلام الآمدي ، فلم يجده صحيحاً على إطلاقه ، قال : "وقفت على عدة نسخ فلم أجد فيها هذه الرواية " [١] . وهذا يدل على أن الآمدي لم يستعمل لفظة " سائر " استعمالاً دقيقًا في هذا الموضع ، حيث لم يقيدها بما لديه من النسخ ، الأمر الذي جعل ابن المستوفي يتتبعه في عدة مواضع ويستدرك عليه بعض ما فاته .

ولم يقصر ابن المستوفي مقارنته أقوال الشراح بما في النسخ الأصلية على قول دون قول أو على شارح دون آخر ، بل كان يحرص على التثبت من كل ما يمكن أن يحوم حوله شك ، سواء في رواية الشعر أو في الشرح ، ولم يفرّق في ذلك بين أقوال المرزوقي الذي أحاطه في كتابه بعبارات الاحترام والتبجيل ، وأقوال الآمدي الذي اتهمه بالتعصب على أبي تمام . كما لم يفرّق في النقل والتحقيق والاستدراك بين أقوال أنصار أبي تمام أو خصومه .

وقد اتهم ابن المستوفي المرزوقي بأنه في مواطن من شرحه ، تابع الآمدي في تخريج بعض الروايات ، غير أنه بعد مراجعة النسخ تبين أنها مخالفة لما صح من شعر أبي تمام عند بعض العلماء [٢] . هذا وسنعود إلى الحديث عن تثبته من صحة الرواية في الجزء المخصص لدراسة موقفه من رواية شعر أبي تمام . أما إذا تبين له أن قوله يتوافق أو يتطابق إلى حد ما مع قول أحد الشراح السابقين ، وخشي أن يتهم بأنه نقل قول السابق ولم يذكره ، فإنه يسارع إلى توضيحه وإزالة اللبس ، وذلك مثل ما مرّ من توافق قوله مع ما ذكره الديمرتي في نقد الصولي ، بل ربما يبالغ في تأكيد كلامه في هذا الجانب فنجده يُقْسِم بأنه لم يطلع على شرح المعري لقول أبي تمام :

عَطايا هِيَ الأَنْوَاءُ إِلاَّ عَلامَةً دَعَتْ تِلْكَ أَنْوَاءً وتلك مَواهِبا

إلا بعد أن شرحه ، "... وكتبته ولم أنظر علم الله تعالى إلى ما ذكره أبو العلاء إلا بعد فراغي.." [٣] .

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ١٣٩ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ق ٥١٦ .

(٣) نفسه ، جـ ١ ، ق ١٤٧ .

ويتفق شرحه مع شرح أبي العلاء ، في الاهتمام بلفظة « دَعت » بفتح الدال ، وليست « دُعَتْ » على أنها لغة طائية ، فتكون في موضع وصفٍ للعلامة ، أي سَمَّتْ ، من قولهم دعوت الرجل إذا سمَّيته ، فالعلامة هي التي سمَّت هذه أنواءً وتلك مواهبا ، أما على « دُعَت » في اللغة الطائية ، فإن النصف الثاني يكون منقطعًا من النصف الأول ، ويكون الكلام قد تمّ في الشطر الأول ، ثم يؤتى بالشطر الثاني على معنى التفسير [١] .

على الرغم من كل ما سبق ، فإن لكل قاعدة شذوذًا ، ولم يكن ابن المستوفي معصومًا عن السهو والخطأ ، لذا فإن في شرحه نصوصًا ليست قليلة لم ينسبها إلى أصحابها ، وأقوالاً أخطأ في نسبتها ، وشروحًا أغفل ذكر أسماء أصحابها ، واكتفى بقوله « قالوا » [٢] ، أو « قال غيره » [٣] ، أو « يُروى . . . » [٤] . . . الخ .

وقد نقل من التبريزي في مواضع متفرقة من شرحه [٥] ، ولم ينسب كلامه إليه كعادته . من ذلك ما نقله في شرح قول أبي تمام :

إِنِّي وإِنْ كانَ قومٌ مَالَهُمْ سَبَبٌ إلا قَضَاءٌ كَفَاهُمْ عِنْدك السَّبَبَا

" يقول : أنا تسببت إليك بأسبابٍ وموات ، وهؤلاء ما لهم سبب سوى القضاء الذي كفاهم السبب دوني " [٦] .

هذا الشرح منقول بلفظه ومعناه من التبريزي ، وهو متسق مع روايته للبيت ، حيث يرويه « كَفَاهُمْ دُوْنِي » بدلاً من « كَفَاهُمْ عِنْدَكَ » التي أثبتها ابن المستوفي .[٧]

كذلك نقل شرح الصولي حين عرض لقول الطائي في الهمزية الأولى من الديوان :

فالْجَوّ جَوِّي إِذْ أَقَمْتَ بِغِبْطَةٍ والأرضُ أَرضي والسماءُ سمائي

---

(١) ابن المستوفي : النظام، ، جـ ١ ، ق ١٤٧ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٧ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

(٤) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٢٢ ، ١٦٣ ، ١٧٥ .

(٥) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٢٠ ، ٢٢٢ ، جـ ٢ ، ق ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٤٩ .

(٦) انظر : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٧٩ .

(٧) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ .

قال الصولي في شرح البيت : " يقول : هذا البلد ليس لي ببلد إلا بك ، فإذا أقمت فجوه جوي ،وأرضه أرضي ، وسماؤه سمائي ، أي علُوه عُلُوّي" [١] . فنقله ابن المستوفي ولم يشر إلى أن هذا كلام الصولي [٢] ، ولعل ابن المستوفي هنا اكتفى بالإشارة إلى الصولي حين نقل عنه خبر خالد بن يزيد وقصته مع المعتصم ، والخبر ملاصق للشرح في كتاب الصولي ، ثم إنه لم يذكر معه في هذا البيت شرحًا غيره .

أمّا ما أخطأ في نسبته ، بحيث يكون الشرح للمعري فينسبه للمزوقي ، أو هو للمرزوقي ، فينسبه إلى ابن الليث ، أو ما جاء على صورته فإنه قليل جدًا ، ولم نعثر إلا على أمثلة قليلة منه ، فعلى سبيل المثال - نسب شرح أبي العلاء المعري اللغوي وتخريجاته النحوية في « إيّاكَ » الواردة في قول الطائي :

انْظُرْ وإيّاكَ الهَوَى لا تُمْكِنَنْ سُلْطَانَهُ مِنْ مُقْلَةٍ شَوْساءِ

إلى التبريزي [٣] ، بينما نجد التبريزي نفسه قد نسبه إلى أبي العلاء المعري ، ويبدو أنه يقصد "وفي كتاب التبريزي" ، كما عبّر عن ذلك في مواضع من شرحه ، حين ينقل من كتابه كلامًا نسبه التبريزي إلى صاحبه بدقة ، ويجوز أن يكون التعديل من ناسخ الكتاب .

خامسًا : كانت أقوال الشراح وتفسيراتهم التي جاءت في غير مظانها الأصلية متداخلة ومختلطة ، وبخاصة الشروح التي خلطها أبو زكريا التبريزي في كتابه : حتى إنه في مواضع كثيرة يستحيل معرفة كلام بعض الشراح وتمييزه دون الرجوع إلى كتاب « النّظام » ، وقد استطاع ابن المستوفي أن يميّز بين هذه الشروح بفضل الأصول التي بين يديه من كتب الشراح ، والنسخ القديمة لديوان الشاعر ، وما في بعض حواشيها من تعليقات وإشارات .

---

(١) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٧٥ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢١٧ .

وهذا التفريق والتمحيص بين الشروح المتداخلة يُعدّ من أهم ميزات شرح ابن المستوفي وأبرز خصائصه: حيث حفظ لكل شارح وناقد رأيه الذي قد يكون التبريزي ضيّعه عليه إمّا بدمجه في كلامه أو بنسبته إلى غير صاحبه ، لذلك فإن كتاب ابن المستوفي يعدّ أفضل مرجع لدارسي ديوان أبي تمام وشروحه ، وخير معين في التثبت والتحقق من أقوال أي شارح قد يعنون بدراسته ، وقد صرّح بعض المشتغلين بشعر أبي تمام وشروحه بأهمية كتاب ابن المستوفي واعترفوا بفضله ، فعبده عزام ، محقق شرح التبريزي يقول : " والحق إن كتاب ابن المستوفي هذا كان أكبر معين لي على تحقيق نص التبريزي نفسه ، ونص من نقل عنهم من شراح أبي تمام ..." [١] . ثم قال في موضع آخر : " ويطول بنا الحديث لو ذكرنا هنا ما أخذنا من كتاب ابن المستوفي هذا ، ويكفي أنه كان مفتاح هذه الرموز التي سقطت من نسخ التبريزي ، وما أثبتناه في هوامشنا من كتابه من تعقيبات وروايات ، يعطينا فكرة عن قيمة هذا الكتاب " [٢] .

كما استعان محقق شرح الصولي بكتاب ابن المستوفي ، وذكر أنه نظر نظرة مدققة بكل ما ورد في شرح التبريزي وما يقابله في شرح ابن المستوفي من أجل التثبت من صحة بعض ما ورد من أقوال الصولي التي أخذها التبريزي وذكرها لنفسه ولم ينسبها إلى قائلها الحقيقي - على حدّ قوله - لذلك اعتبر ما ورد في كتاب ابن المستوفي من شروح للصولي كأنه نسخة رابعة - من نسخ شرح الصولي - يمكن مقابلتها بما يماثلها من شروح في النسخ الأخرى [٣] .

كما اعتمد عليه أيضًا محقق كتاب « شرح مشكلات ديوان أبي تمام » للمرزوقي، ونظرًا لأهمية الكتاب أثبت المحقق في الحواشي بعض ملاحظات ابن المستوفي على المرزوقي سواء في الشرح أو الرواية [٤] .

---

(١) التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٨ .

(٣) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ١ ، ص ١٤٤ - ١٤٨ .

(٤) انظر : المرزوقي : شرح مشكلات ديوان أبي تمام ، ص ٦٧ .

وقد أشاد كثير من الدارسين بكتاب ابن المستوفي وقيمته العلمية . قال أحدهم : " وهذه الخصال العلمية ، والقيم النبيلة ، جعلت من كتاب ابن المستوفي وثيقة هامة بالنسبة لنا ، مكنتنا من تحقيق ومقابلة كثير من النصوص ، وأتاحت لنا التحقق من أن كثيراً من النصوص التي ينقلها التبريزي هي للمرزوقي أو الصولي أو لغيرهما ... وليست للتبريزي كما يوهم بذلك " (١) .

ولكي لا يُلقى الكلام على عواهنه ، أو يجنح إلى الإغراق في التنظير فحسب ، نورد من كتاب ابن المستوفي بعض الشواهد التطبيقية التي تثبت صدق هذه الأقوال ، وتدلّ على الجهد المشكور الذي قدمه ابن المستوفي في هذا الجانب من شرحه .

نبه ابن المستوفي إلى أن أبا زكريا التبريزي نقل شرح الصولي لبيت أبي تمام :

عودٌ تُساجلُهُ أيّامُهُ فبِها مِنْ مَسِّهِ وبه مِنْ مسّه جُلَبُ

قال التبريزي : " هذا مثل ، " يقول : قد جرّب الأمور خيرها وشرها ، يكون الدهر مرة معه ومرة عليه يساجله " ، فعقب ابن المستوفي بأن التبريزي غيّر ما قاله الصولي ، وهو الصحيح في تفسيره ، وأن الذي ذكره أبو زكريا هو ما أورده الصولي بعينه(٢) .

في موضع آخر أخذ التبريزي أيضاً شرح هذا البيت :

طَلَبَتْ أَنْفُسَ الكُمَاةِ فَشَقَّتْ مِنْ وَرَاءِ الجُيُوبِ مِنْهُمْ جُيُوبَا

من الصولي (٣) ، ولم ينسبه إليه ، فبدا كأنه من شرحه ، لذا نسبه ابن المستوفي في البداية إلى التبريزي " قال أبو زكريا أي طلبت هذه الرماح أنفس الكماة ، فشقت جيوب دروعهم ، ونفذت إلى القلوب فقتلتهم وحملت نساءهم على شق جيوبهن" ، غير أنه

---

(١) طاهر حمروني : منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر ، ط : الدار التونسية ، ١٩٨٤م ، ص ٢٧٣ .

(٢) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ٩٣ - ٩٤ .
وانظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٤٨ .
وانظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ .

(٣) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ٢٥٧ .

في نهاية الشرح قال : " وبهذا لفظه في طرة نسخة ابن الليث . وقبله بخطه وذكر ذلك وهو من كلام الصولي" [١] .

والحق أنه كلام الصولي بكامل لفظه لم ينقص منه حرف ولم يزد عليه حرف [٢].

وعندما عرض ابن المستوفي لشرح مطلع القصيدة التي مدح بها أبو تمام عياش ابن لُهيعة الحضرمي ، وأعطاه عياش خمسة آلاف درهم جائزة عليها ، ومطلعها :

تَقِي جَمَحاتِي لَسْتُ طَوْعَ مُؤَنِّبِي وليس جَنِيبِي إِنْ عَذَلْتِ بِمُصْحِبِي

ذكر أن كلام التبريزي في شرح هذا البيت هو كلام المرزوقي كما جاء في كتابه «شرح مشكل الأبيات» إلا أنه وضع « قلبه » موضع « نفسه » فغيّره بينما لو نقله على وجهه كان أجود[٣] .

وجاء في شرح المرزوقي لهذا البيت : "و« الجنيب » يجوز أن يكون : هواه ، ويجوز أن يكون قلبه وإنما يجنبها غيره ، ولكن أضافه إلى نفسه لتعلقهما به ..." [٤] .

وإذا تأملنا ما ورد في هذا البيت عند التبريزي نجده كما ذكر ابن المستوفي ، غير أن التبريزي أضاف بعض الشرح اللغوي وناقش بعض المسائل النحوية في بعض العبارات التي لم يقف عندها المرزوقي الذي كان مشغولاً بالمعنى أكثر من أي عنصر آخر من عناصر الشرح .

كذلك أسهم ابن المستوفي في تلخيص شرح أبي العلاء المعري وتمييزه عن شرح التبريزي الذي دمج كثيراً من أقوال أستاذه في كلامه ، وكان ابن المستوفي ينص على الأخذ أحياناً ، ويكتفي بذكر اسم صاحب الشرح في البداية أو النهاية أكثر الأحيان ، وقد اعتمد محقق شرح التبريزي على عمل ابن المستوفي في إعادة بعض كلام المعري إليه ، فوضع حرف [ع] أمام بعض أقوال المعري التي دمجها التبريزي في شرحه ، أو لم ينسبها إليه ، غير أن تصرف التبريزي في كلام أبي العلاء بالتقديم والتأخير

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .

(٣) انظر ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ق ١٤٩.

(٤) المرزوقي : شرح مشكلات ديوان أبي تمام ، ص ٢٤٥ .

والحذف والزيادة قد يفوّت أحيانًا ملاحظة أن هذا الشرح لأبي العلاء ، لكن ابن المستوفي الذي يَعرف النسخ القديمة من شروح الديوان تنبّه إلى ذلك في أكثر من موضع . وفي الهمزية التي رثى بها أبو تمام خالد بن يزيد الشيباني ، وقف ابن المستوفي عند قول أبي تمام :

أُصِبْنَا جَمِيعًا بَسَهْمِ النِّضَالِ فَهلاً أُصِبْنَا بسَهْمِ الغِلاءِ

فذكر شرح أبي العلاء المعري لمعنى البيت ، وعندما لاحظ أخذ التبريزي بعض التفسيرات استدرك بقوله : " وقال قبله : تناضل الرجلان ، وناضل أحدهما الآخر : إذا رماه . والطائي : ذهب في هذا البيت إلى أن سهم النضال هو الذي يرمي به العدو الرامي " [١] .

لقد أخذ التبريزي هذا النص الذي أثبته ابن المستوفي في كتابه للمعري ، وصدّر به شرحه للبيت السابق ، ولم ينسبه إلى صاحبه « المعري » ، وفات على المحقق ملاحظة ذلك [٢] .

ونختم بهذا المثال الذي ذكر ابن المستوفي أنه وجده في نسخة ابن الليث ، حيث قال الشارح إن أبا تمام يعني ببيته :

خَرْقَاءُ يَلْعَبُ بالعُقولِ حبابُها كَتَلَعُّبِ الأفْعَالِ بالأسْمَاءِ

" أنه يريد أن الأسماء تعمل فيها الأفعال فتنتصب وترتفع بالأفعال " [٣] .

فأوضح ابن المستوفي أن كلامه هذا هو معنى الصولي حين قال في شرحه : " ذلك لأن الأسماء إنما تتصرف بها الأفعال في الإعراب ..." [٤] .

والمتتبع لمثل هذه النماذج يجد في كتاب النظام عبارات كثيرة تدل على حرص ابن المستوفي على إعطاء كل ذي حق حقه ، فنراه يقول : "لفظ المرزوقي هو لفظ

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٦٢ .

(٢) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٨ .

(٣) ابن المستوفي : النظام ، جـ ١ ، ص ٢٤٢ .

(٤) الصولي : شرح الديوان ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

الصولي " أو " الذي ذكره التبريزي هو في الانتصار" أو " هذا كقول الخارزنجي وأحسبه منه أخذه" أو " أظن هذا القول من كلام الآمدي" أو غير ذلك .

من هذه الأمثلة - وغيرها - يمكن أن ندرك القيمة الحقيقية لكتاب ابن المستوفي ، والأهمية النقدية لما جاء في كتابه من نقول سواء كانت نصوصًا كاملة أو مختصرة حين تكون منسوبة إلى أصحابها ، كما ندرك أهمية المنهج الذي التزم به في تمييز أقوال بعض الشراح المختلطة وآرائهم المتشابكة والمتداخلة ، حتى أصبح في الإمكان بفضل هذا التمايز إقامة دراسة موثقة ومطمئنة على معظم الشروح التي جمع ابن المستوفي مادتها في كتابه .

سادسًا : شرحه الخاص على شعر أبي تمام ، الذي اعتمد فيه على فهمه العميق لهذا الشعر ،واعتمد فيه على ثقافته الواسعة ومعارفه المتنوعة: فوظف أدواته النقدية ومعلوماته اللغوية والبلاغية والعروضية والتاريخية ، في الكشف عن معاني شعر الطائي ، وبيان مقاصده ، والإشادة بمحاسنه ، ونقد مساوئه . كذلك مناقشته للشروح المتعاقبة على ديوان أبي تمام ، ونقده لها حين تخل بالشرح أو تقصّر فيه ، بغض النظر عن موقف أصحابها من الشاعر ، إذ إن ما يهمه هو سلامة المعنى وإصابة الغرض الصحيح للشعر ، لذا نجد في كتابه حشودًا من التعليقات والاستدراكات على بعض الشراح السابقين الذين خالفوا الصواب في فهم بعض الأبيات أو لم يدركوا ما عبر عنه الشاعر ، أو لم تكن شروحهم كاملة وواضحة بالقدر الكافي ، فهو تارة يضيف إلى الشرح ما يوضحه ويبين المراد منه ، وتارة ينقده ويخالفه ويأتي بشرح جديد مغاير، لكنه في نقده ملتزم بأسلوب العالم الموضوعي الذي يحترم الرأي الآخر ، فلا يستخدم في نقده للشّراح عبارات نابية ، بل كان يدرك أن هؤلاء الشراح علماء أفاضل فأحاطهم في مواضع من كتابه بعبارات الاحترام والتقدير .

ويمكن تصنيف جهود ابن المستوفي في ثلاثة محاور :

الأول: يتمثل في شروحه الخاصة على الأبيات التي أغفلها الشراح قبله : إذ إن

هناك أبياتًا كثيرة لم يقف عليها الشراح وانفرد ابن المستوفي بتفسيرها وتحليلها ، من ذلك ما جاء في قصيدة غزلية لأبي تمام :

كُنتُ أهْوى البِيضَ الحِسانَ فقد أصْـ ... ـبَحَ حُبِّي عَنْ غَيرِها مَحْجُوبَا

فبعد أن فسر ابن المستوفي بعض العبارات المشكلة وأوضح مراد الشاعر في البيت ، نقد المعنى ، وذكر أنه لم يكن حسنًا فقال : " « عن غيرها » : يريد محبوبته ، يريد أنه ترك هوى البيض الحسان كلهم إلاّ هواها ، وهذا يدل على أنه لم ينفرد بحبها ، وإنما أحبها من جملتهن ، ثم تركهن وأقام على حبها ، وهو معنى ليس بالحسن " [١] .

ونجد البيت السابق مثبتًا لدى كل من الصولي [٢] والتبريزي [٣] في متن المقطوعة الغزلية لكنهما أخلياه من أي شرح ، ولم ينقل التبريزي عن أحد من الشراح أي تعليق عليه ، وأسقطه المرزوقي من كتابه « شرح مشكلات ديوان أبي تمام » ، بل إنه أسقط المقطوعة برمتها ، لأن معانيها يغلب عليها الوضوح والسطحية وقرب التناول ، فلا تُعدُّ من شعر أبي تمام المُشْكل ، غير أن ابن المستوفي خالفهم جميعًا ، فشرح البيت ونقد معناه .

الثاني : إضافاته الكثيرة حين عرض للأبيات التي تناولها الشراح السابقون :

وهي تشكل مادة ضخمة في دراسة شرح ابن المستوفي وبيان أبرز خصائصه ، وسواء أكانت تلك الشروح وتلك الإضافات موافقة لأقوال الشراح أم مخالفة لها ، فإنه يثبتها بكل ثقة واقتدار ، مميزًا لها عن شروح الآخرين بتقديم ذكر اسمه ، "قال : المبارك بن أحمد ..." أو " قال : المبارك ..". وعلى سبيل المثال نجد في تناوله لقول أبي تمام من قصيدة مدح بها محمد بن يوسف :

شُعِفَ الغَمَامُ بعَرْصَتَيْكَ وربَّما ... رَوَّتْ رُبَاكَ الهائِمَ المَشْعُوفَا

بعد أن سرد شرح أبي العلاء المعري يقول : " قال المبارك بن أحمد : « شُعِفَ

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ١٨٠ .

(٢) انظر : الصولي : شرح الديوان ، جـ ٣ ، ص ٢٩٧ .

(٣) انظر : التبريزي : شرح الديوان ، جـ ٤ ، ص ٢١٩ .

الغَمَامُ بعرْصَتَيْكَ » دعاء له ، يقول أَحبَّ الغمام عرصتيك ، وإذا أحبها أقام بها ، فيكون كقوله : « أرْسَى بِنَادِيكَ النَّدَى » ، وإذا كان كذلك أروى عَرْصتيه ، وأتى بعده بقوله « وربَّما روّت رباك » فقابل الرَّي بالرَّي معنى . . . " ورُبَّما هنا للتكثير أي بمقامه فيها وسكناه بها ومواصلته أهلها ، فكأنه يرتوي بذلك ، كما أن البعيد عن محبوبه يعبر عن عشقه فيخاطب محبوبه فيقول أنا ظمآن إلى رؤيتك ، عطشان إلى لقائك وهذا معروف عندهم كما قال الآخر :

فيا ربِّ إنْ أَهْلِك ولَمْ ترو هَامتي بليلى أَمُتْ لا قَبْرَ أعطشُ من قَبْري "(١)

ولم يلزم ابن المستوفي شرحه وإضافاته موضعًا محددًا ، بحيث يجعله - مثلاً - في خاتمة الشروح أو في مقدمتها ، وإنما يجعله حيث يتطلّبه سياق الشرح ويستدعيه موطن الاهتمام ، فتارة يجعله في وسط الشروح وخاصة حين يكون الشرح السابق يحتاج إلى تعقيب أو إيضاح ، وتارة أخرى - وهو الغالب الأعم - يذكره بعد أن ينتهي من عرض جميع الشروح السابقة ، وهذا يمكّنه من التعليق على الشروح والموازنة بينها وترجيح بعضها وتصويب بعض الأخطاء التي وردت فيها .

الثالث: استدراكه وردّه المباشر على الشارح في أثناء عرض شرحه: عندما يلاحظ أن الشارح وقع في خطأ غير مقبول ولا يجوز السكوت عليه ، فيصل نقده بكلام الشارح دون إشارة أو تنبيه ، غير أن هذا لم يكن موجودًا بشكل مطّرد ، كما أن كلام ابن المستوفي وتصويبه لخطأ الشارح - في الغالب - يكون سهل التمييز ، والتفريق بينه وبين كلام الشارح أحيانًا غير عسير ، من ذلك نقده للخارزنجي في شرح قول أبي تمام :

كأنَّما جَادَ مَغْنَاهُ فَغَيَّرَه دُمُوعُنا يومَ بانُوا وَهْيَ تَنْهَمِلُ

قال الخارزنجي : " يقول انمحى هذا الطَّلل ودرس بما أصابه من الأمطار حتى كأن دموعنا يوم فراقهم جادته ، نبّه بذلك على كثرة دموعه يوم الفراق " ، ثم يصل شرح الخارزنجي بقوله : " هذا التفسير لا يوافق لفظ هذا البيت ومعناه واضح " وليس هناك

---

(١) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ١٧٣ .

فاصل أو علامة تفرق بين كلام الشارحين [١] .

ومن أمثلة ذلك أيضًا تعقيبه على الصولي الذي ذكر أن بيت الطائي :

ألا أيُّها الموتُ فَجَّعْتَنَا بِماءِ الحَيَاةِ وماءِ الحَيَاءِ

قد رواه قوم بمدّ المقصور في « ماء الحياء » قال الصولي ما أنشده إلا كما رويت أولاً ، وبعضُ من لا يدري ينشد هذه القصيدة موقوفة ، وليس ذلك بشيء .

ويتدخل هنا ابن المستوفي رادًا عليه بأنه " لا فرق بينه وبين إنشاده ، وقد مدّ المقصور ، إلاّ أن يريد أنه نبّه عليه أنه لم يرد إلاّ « ماء الحياء » الذي هو ضد القحة" [٢] ، ولأن ابن المستوفي لم يذكر - أحيانًا - ما يدل على أن هذا الاستدراك من كلامه نجد المحقق لا يقطع - كعادته - بأنه من كلام ابن المستوفي ، حيث يقول : "يبدو أن هذا الكلام لابن المستوفي وهو تعليق له على كلام الصولي ، وإن كان من عادة ابن المستوفي أنه يبدأ كلامه حين يريد أن يعلق بقوله : " قال ابن المبارك " ولكنه هنا لم يفعل" [٣] . ومثل هذا لا يطرد في شرحه ، بل نجده يميز قوله من كلام الشارح بوضع بعض العبارات مثل "هذا كلامه" أو "انتهى كلامه" أو " هذا آخر كلامه" أؤ يرمز إلى ذلك بالحرفين «ن هـ» اللذين يدلان على نهاية الكلام .

وعندما أنكر على الآمدي تعصبه على أبي تمام في نقده لهذا البيت :

بَلْ قابِضٌ بنواصِي الأمرِ مُشتَمِلٌ على قَوَاصِيهِ في بَدْءٍ وفي عَقِبِ

فصل بين تعقيبه وكلام الآمدي بعبارة " هذا كلامه " . وقد جاء في شرحه " قال الآمدي . . . وكان ينبغي أن يقول : بنواصي الحزم والعزم ، فأمّا « الأمر » فأنه غير مفيد . هذا كلامه ، هذا تعصب من الآمدي ، وقول أبي تمام « بنواصي الأمر » يريد : نواصي الأمر الذي أطلبه من مظانّه ومن وجهه ، ولكني لا أظفر ، وهو أولى من الحزم . . . " [٤] .

---

(١) انظر : ابن المستوفي : النظام ، جـ ٢ ، ق ٢٤٠ .

(٢) انظر : المصدر السباق ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٣) انظر : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

(٤) ابن المستوفي : النظام ، جـ ٣ ، ص ١٩٨ .

ولا نريد أن نسترسل في عرض المزيد من الأمثلة التي توضح الطرق المختلفة التي جاءت فيها شروحه وتعليقاته واستدراكاته ، وقد ذكرنا أهم الاتجاهات التي وردت فيها ، لكن قبل الانتقال إلى دراسة محتويات هذه الشروح والتعليقات ، وبيان أهم ما جاء فيها من مناقشات نقدية ، نؤكد أن ابن المستوفي كان يحاول مخلصاً إتمام جهود الشراح السابقين وتتويج أعمالهم وسد ثغراتها وإكمال الناقص منها ، بالشرح والتحليل والموازنة ، فتناول في كتابه معظم عناصر الشرح التي تعرض لها الشراح قبله ، فاهتم بضبط رواية شعر أبي تمام وبيان الأوجه المختلفة فيها ، ووقف على عدد من القضايا اللغوية والمسائل النحوية المتعلقة ببعض الأبيات التي تناولها في كتابه ، وتحدث عن بعض ما استعمله أبو تمام في شعره من الصور البيانية والأساليب البلاغية ، وناقش في مواضع من شرحه بعض أوزان شعر أبي تمام وقوافيه ومدى ملاءمة الأوزان لمعنى البيت ، وكان المعنى الشعري موطن اهتمامه ومحل عنايته ، حيث وظف كل ما ألمّ به من علوم اللغة والأدب في سبيل إيضاح المعنى والكشف عن مقاصد الشاعر.